

مغامرات بين العرب

رحلات في الأردن وفلسطين بين 1891-1899م
ورحلة إلى جوف السّرحان عام 1900-1901م

للرحّالة البريطاني

أرتشيبولد فوردر

ترجمة: مارية عثمان

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

مغامرات بين العرب



روّاد المشرق العربي

مغامـرات بين العـرب

رحلات في الأردن وفلسطين بين 1891-1899 م
ورحلة إلى جوف السّرحان عام 1900-1901 م

للرحّالة البريطاني

آرتشيبولد فوردر

ترجمة

مارية عثمان

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيبش

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقـدّم «**هيئة أبوظبي للثقافة والتّـراث**» للمكتبة العربيّة بوجـه العموم، ومكتبة تراث جزيـرة العـرب بوجه الخصـوص، باكـورة نتاجها من هـذه السّلسـلة الثقافيّـة التّراثيّة تحـت عنـوان: «**روّاد المشـرق العربـي**». وهـي مـن خلالها تعكـس اهتمامهـا بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشـعب الإمـارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّـة، وذلك من خـلال الحرص على جمع كافّـة المصادر المتعلّقـة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا اسـتعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشـر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشـرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشـر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسـعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شـتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسـفة والفكر الإنساني، الفنون، وسـائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسـة ورياضيّـات وصيدلـة وكيمياء. ومنها أيضـاً الأدب الجغرافـي العربي وأدب الرّحلات.

ومـا دُمنـا بصدد ذكـر تُراثنا الجغرافي، فلا بُـدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّـاراً موازياً له،

يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

في واقع الأمر، لا تتوفر معلومات وافية حول حياة رحّالتنا لهذا الكتاب «آرتشيبولد فـوردر»، اللهـم إلا من خـلال ما خطّته يداه فـي كتابه هذا. والذي نعرفـه عنه أنّه رجل إنكليـزي ولد في عام 1863 م، وينتمي إلى فئة المبشّـرين المسـيحيين الذين أوفدتهم الكنيسـة الإنجيليّة البروتسـتانتيّة للتبشير في شرقي الأردن وأرض فلسطين. وغنيّ عن القول إنّ الهيئات التبشيريّة البروتستانتيّة في كلّ من إنكلترا واسكوتلندا وأميركا أبدت في القرن التاسـع عشراهتماماً منقطع النظير بأرض فلسطين، وأسّست لريادتها وبحثها مؤسّسـات كبيرة ذات ميزانيّات جسيمة، كان أهمّها Palestine Exploration Fund التي يُشـار إليها اختصاراً بالحروف (PEF)، وجمعيّة نشر نصوص رحلات الحجّ إلى فلسطين Palestine Pilgrims' Text Society ويُشار إليها اختصاراً (PPT).

يـروي لنـا أنه ترعرع في لنـدن، وفي سـن 13 كان يتعاطى مهنة البقالـة والعمل في الأفران، وفي عام 1888 تزوّج بسنّ 25 لكنه لا يذكر اسم زوجته. ولقد غادر بصحبتها إنكلتـرا يـوم الخميس فـي الثالث من سـبتمبر فـي عـام 1891 متوجهين إلـى القُدس الشـريف، وفي صباح يوم الأربعاء 30 سـبتمبر بدأا رحلتهما إلى الكَرَك عاصمة مؤاب في شرقي نهر الأردن، فاستهلّت مهمّتهما بكارثة تعرّضا فيها لقطّاع طرق وكادا يفقدان حياتهما.

أقام الزوجان في الكرك، وتولّيا مدرسـة للصبيان تابعة للإرسـالية، وشـرع صاحبنا بتعلّـم العربيّـة، كما راح يمـارس الطبابة في المنطقة، وكان كما ذكـر قد تلقى في لندن تدريبـاً طبيّاً لعدّة أشـهر. وفي صباح يوم السـبت السـابع من مايو من عـام 1892، بعد

وصولهما بثمانية أشـهر فقط، وافى زوجته الأجل. ثم بعد وفاتها بثلاث سنوات تزوج فـوردر ثانية مـن امرأة اسـكتلنديّة تعرّف بها في القـدس، وقد نشـر صورتها في مطلع الفصل الحادي عشر، ويذكر أنها كانت تجيد العربيّة حيث أمضت في القدس سنوات عديدة.

بوجه الإجمال، مكث فورد في الكَرَك ست سنوات مليئة بالأحداث، ما بين 1891–1897 ثـم يـروي لنا كيف قرّر وهـو كاره مغادرة الكَرَك والانتقـال إلى القدس. وهناك أيضـاً جـرى له العديد من المتاعب، وقام برحلات متعدّدة في منطقة إدوم وبئر السّـبع متتبعاً بعض الآثار الدّينية القديمة. وفي نهاية عام 1899 نازعته نفسه إلى دخول جزيرة العرب، فقام برحلة من القدس إلى معان قاصداً التوغّل جنوباً صوب وادي السّرحان، لكنه سرعان ما وقع في أيدي القوّات التركيّة وتمت إعادته إلى القُدس قسراً.

وأخيـراً، كمـا يروي في الفصل الخامس عشـر، تسـنّى لـه تنفيذ حلمـه فانطلق إلى الجـوف مـن القـدس في 13 ديسـمبر عـام 1900 م بطريـق جبل العـرب، فوصل بعد رحلة شـاقة إلى بلدة كاف ثم قرية إثرة، ومن إثرة توجّه إلى الجوف التي كان يحكمها آنـذاك أحد رجال أمير جبل شـمَّر عبد العزيز بن متعب آل الرَّشـيد، هـو جوهر العنبر، الذي أحسـن اسـتقبال فوردر، وباعتبار هذا الأخير جاء في مهمة تبشـيرية لنشر الديانة المسـيحية في الجزيرة، فقد فشـلت مهمّته فشلاً ذريعاً، وبذل معه جوهر شتى الوسائل لإقناعه بدخول الإسلام فلم يقبل. وانتهت زيارة فوردر للجوف نهاية مأساويّة، بانهيار أحد أبراج حصن مارد، وإصابة جوهر فيه إصابة بليغة.

صحيح أنّ مهمّة آرتشيبولد فوردر التبشيريّة مُنيت بالفشل الذريع، لكن على الرّغم مـن ذلك تبقى لها قيمتها كمهمة استكشـافية، وبالنسـبة لنا اليوم كوثيقـة تاريخية تضمّ روايـة حيّـة ممتعـة. والجدير بالذكر أنّ رحلته هـذه التي بدأها في ختـام العام 1900 م كانـت المحاولـة الرابعة لـه، وعلى غرار أغلب الرحالين الذين سـبقوه بـدأ رحلته من خلال منطقة الجوف، إلا أنه كان من ضمن القلائل الذين تمسكوا بنصرانيتهم وجاهروا بها (كشـيخ رحّالي الإنكليز تشـارلز داوتي)، مما عرّضه لضغوط وتهديدات كادت أن

تودي بحياته.

ويمكن لنا أن نضيف هذه الرّحلة إلى سلسلة الرّحلات المشابهة التي قصدت شمالي جزيرة العرب، كرحلة ڤالين عام 1843، وپالغريف عام 1862، وغوارماني عام 1864، وداوتي عام 1875، وبلَنت عام 1879، وهوبَر (أوبير) عام 1878–1880، وأويتِنغ عام 1883، ونولدِه عام 1893، وجوسّان وساڤينياك عام 1907.

نُشر الكتاب في بوسطن عام 1905، ولم تتمّ ترجمته إلى العربيّة قبل اليوم. ولقد ترك فوردر عدّة مؤلفات أخرى نذكرها أدناه. أمّا تاريخ وفاته فغير مذكور في أيّ من المصادر، لكن آخر مؤلفاته نُشر في عام 1921.

قمنا بتعريب هذا الكتاب عن طبعة صدرت في نيويورك عام 1909 عن دار Gospel، ونرجو أن يكون في عملنا هذا اليوم إضافة مفيدة وممتعة إلى سلسلة رحلات الغربيين في مشرقنا العربي.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

بيروت، *7 يونيو 2011*

د. أحمد إيبش



مؤلفات آرتشيبولد فوردر

With the Arabs in Tent and Town, London 1902.

Ventures Among the Arabs in Desert, Tent and Town, 1905.

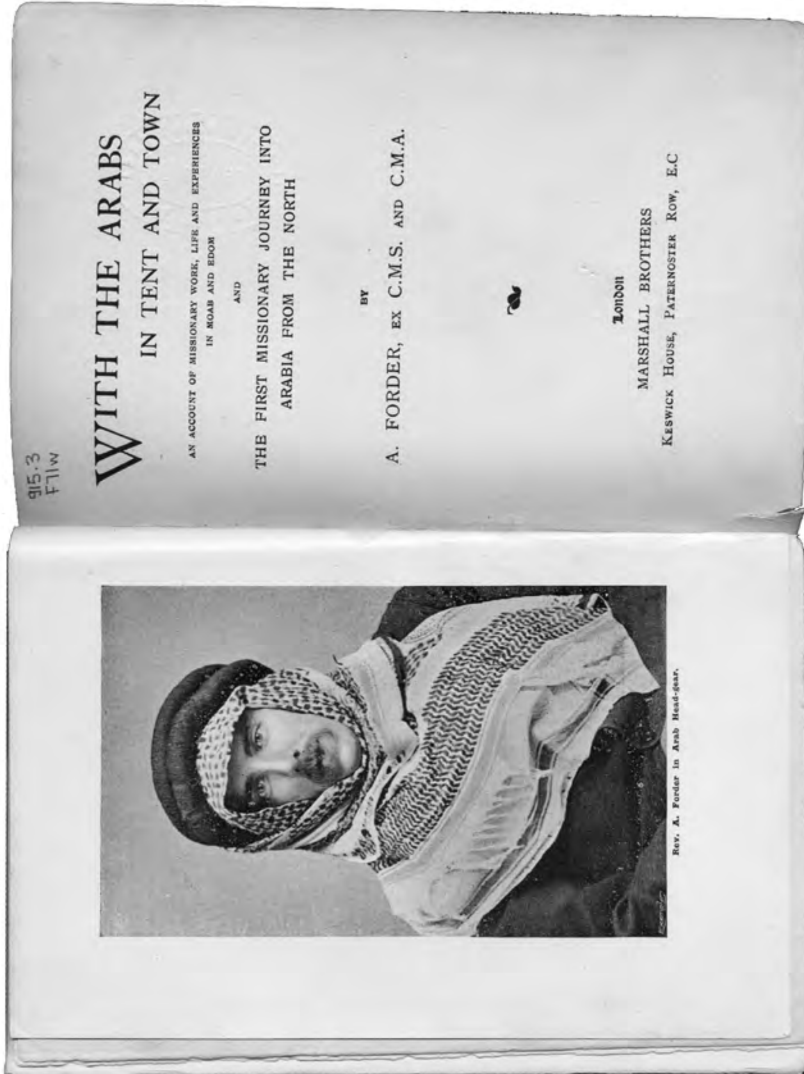
Daily Life in Palestine, Scenes and Doings, 1912.

In and About Palestine with Notebook and Camera, 1919.

In Brigands' Hands and Turkish Prisons, London 1920.

The Branded Foot, a Story of Life and Experiences, 1921.

❊ ❊ ❊



Rev. A. Forder in Arab Head-gear.

WITH THE ARABS
IN TENT AND TOWN

AN ACCOUNT OF MISSIONARY WORK, LIFE AND EXPERIENCES
IN MOAB AND EDOM

AND

THE FIRST MISSIONARY JOURNEY INTO
ARABIA FROM THE NORTH

BY

A. FORDER, EX C.M.S. AND C.M.A.

London
MARSHALL BROTHERS
KESWICK HOUSE, PATERNOSTER ROW, E.C

نموذج عن الطبعة الأولى لأقدم كتب فوردر

مغامرات في بلاد العرب

في الصحراء والخيمة والمدينة

ثلاثون عاماً من الحياة الريادية

مع إسماعيليي مؤاب وإدوم وجزيرة العرب

بقلم: آرتشيبولد فوردر

المعيّن سابقاً في الكَرَك ومؤاب

Late of kerak of Moab

أهدي هذا الكتاب

مع خالص محبتي وتقديري

إلى

أمي وأبي

اللذين كرسا حياتهما بكل المحبة والإيثار لابنهما الذي بدوره كرّس حياته للعرب، وللسنوات العديدة التي صلّى فيها يومياً من أجل النجاح في عمله.

في صفحات العالم، لازالت هنالك صفحة لم تُقرأ بعد؛

وأرض مازالت بانتظار رايات الرواد من المستكشفين؛

إنها شبه الجزيرةالعربية، موطن الخيل والنخيل،

والملايين من أبنائها المتلهفين لجرعة البلسم الشافي

لذلك

فقد أهاب بي الشوق الغامض للانطلاق، وحدد لي طريقي

نحو رمال الشرق، نحو أرض المعجزات

مهد الإسلام



المستر آرتشيبولد فوردر Archibald Forder

بالزيّ الأوروبي والزيّ العربي

تمهيد

لـم أهدف مـن وراء هذا الكتاب إلى إرضاء شـغف لمغامرة حسّـية، ولكن لإظهار كيـف يمكـن لحياةٍ نذرها إنسـانٌ بأكملها لخدمة الله أن تُسـتغل وتُكـرّس للعمل وفق ظـروفٍ شـتى، وميـؤوس منها في أغلـب الأحيان، على أمـل أن يُقـدم الكثيرون على المجازفة بشـيء ما باسـم جزيرة العرب العظيمـة التي يتحدّث عنها الكتـاب. يبيّن لنا الكتـاب بأن مغامرات روّاد المبشـرين مليئة بالإثارة والطمـوح والمتعة، وحريّ بها أن تطـرد من أذهاننا ذاك الوهم بأن الحياة برمتها عبارة عن سلسـلة من المتع والمسـرّات وأن المبشر يستمتع بالأوقات التي يمضيها في تلك الأصقاع النائية.

لم يكن قصدي من وراء هذا العمل الوصول إلى مستوى الإبداع أو الكمال الأدبي، أو الوصـف الجغرافـي والتاريخي المفصّـل لجزيرة العرب. بل قصتـي هي عبارة عن تدويـن عفوي لمغامـرات وأحداث كما جرت تماماً، عبارة عن سـجل موثق لتجارب ومعتقدات شـخصية. وهو موجّـه لما أعتقد بأنه جمهور متعاطف مـع ما أقوم به؛ وإذا مـا منَّ اللـهُ على مَن يمعن النظـر والتأمّل في صفحات الكتاب بتكريس نفسـه بصورة أكمل وأعمق لمزيد من العمل التبشيري في بلاد الله الواسعة، فلن يكون وقتي وعملي وتفكيري الذي كرّستُه في سبيل هذا العمل قد ذهب بلا طائل.

أ. فوردر

بوسطن، ماساتشوسِتس



المقدمة

[نقلاً عن كتابي «مع العرب في خيامهم ومدنهم»]

قنصلية الولايات المتحدة

إلى من يهمه الأمر:

السيد أو السيدة، --

تُعرِّفُ هذه الرسالة بالسيد آرتشيبولد فوردر المعروف تماماً من قبلي. إنه مسيحي مثابر، مخلص متفان، جريٌء غيرُ هيّاب، عمل ولا يزال بحماسة لا تعرف الكلل ولا الملل.

إنه يستمتع بالاستكشاف والعمل الرّيادي أكثر من أيّ شخص آخر رأيته في حياتي.

ذهب بمفرده العام الماضي 1900 إلى جوف صحراء جزيرة العرب، حيث كاد أن يهلك بسبب جسامة الأخطار والمشاق التي واجهها وكابدها. إنه بمثابة ليڤنغستون[1] (Livingstone) دائم وإذا كان هنالك أيّ قارة مازالت «غير معروفة»، فإن المستر فوردر سيكون الرجل الذي سيفتح أبوابها المغلقة أمام الرّيادة.

---

(1) داڤيد ليڤنغستون (1813–1873): مبشّر اسكتلندي ومستكشف بأفريقيا واسع الشهرة.

المقدمة

بالتنسـيق مع بعض الجمعيـات العريقة المعترف بها وتحت إشـراف بعض الأمناء المتميزين بالحكمة ورجاحة العقل، أنا على يقين من أن المسـتر فوردر سيؤدي مهمته علـى النحـو الأمثل. إن شـخصية هذا الرجل تسـمو فـوق كل نقد ولـوم، وهو موضع احترام وتقدير جميع معارفه.

بكل الاحترام

القس سِلاه ميريل

(Hon.) Selah Merrill LLD

U. S. Consul Jerusalem

23 سبتمبر 1901

❊ ❊ ❊

شكر وتقدير

للصورتيـن التوأم اللتين أعيد نسـخهما كصـورةٍ مواجهة لصفحة العنـوان؛ كما أننا مدينون لـ جيه سي ڤارني J.C Varney، من هاڤرهيل Haverhill، ولاية ماساتشوسِتس Mass.، وأيضـا للصورة المواجهة للصفحة 85؛ ونوجه الشـكر أيضـا لـ فان بي ويتُن Van B. Wheaton، من أمستردام، ولاية نيويورك Amsterdam N.Y..



مغامراتي في بلاد العرب

الفصل الأول

استقبال غير لائق

كان الليل يرخي سـدوله بسرعة، وكنا نترقب بلهفة نهاية رحلتنا الطويلة والمرهقة، حيث قضينا أربعة أيام في طريقنا من القدس، وليلة أخرى كان علينا أن نقضيها قبل أن نصل إلى موطننا الجديد وسـط الآلاف من الإسماعيليين في الكَرَك، العاصمة القديمة الواقعة فوق مرتفعات وجبال تلك المنطقة النائية.

أمـر زعيـم قافلتنا الصغيرة بتحميـل الجمال والبغال للمرحلـة الأخيرة من الرحلة. عمد رجالنا الأوفياء الأتقياء بشيء من الخوف والرهبة إلى موازنة الأحمال على ظهور الدواب، ثم إلى تناول هراواتهم الغليظة وتقلّد بنادقهم القديمة ذوات القدّاحة الصَوَّانية flintlock guns مستهلين انطلاقتهم بكلمة «بسم الله»، يحدوهم الأمل ببلوغ المدينة القديمة التي تفصلنا عنها مسـافة خمسـة وعشـرين أو خمسـة وثلاثين ميلاً قبيل بزوغ الفجر.

امتطينا دوابنا وكنا نسـير في مؤخرة الرّكب. وعند الشـفق أمكننا رؤية القافلة أمامنا يحدوها رجالنا بكل همّة ونشاط، ولكن من دون أن نسمع لهم صوتاً، نظراً لأننا أصبحنا الآن فـي أرض مؤاب وسـط أناس عُرف عنهم خروجهم علـى كل القوانين المعروفة، يسـكنون بيوت الشـعر ويرعون الماشـية. كانوا على عداوة مع الجميع، والجميع كان

على عداوة معهم. كان هؤلاء الناس ينظرون بارتياب إلى أيّ شخص تسوّل له نفسه أن تطأ قدماه حماهم دون دعوة منهم، وكانوا على أهبة الاستعداد في أية لحظة للغزو والانقضاض، أو حتى القتل، لإشباع رغبة الشيوخ ومرافقيهم وإتخام رغبتهم بمغانم السلب والنهب. وبعد عملية النهب وحتى القتل، كانوا يعودون إلى مضاربهم، فيهدّون الخيام ويطوونها ومن ثم يرتحلون إلى أرض جديدة عصيّة على كل من قد تسوّل له نفسه بتعقب أثرهم والانتقام لما حدث.

لا غرابة إذاً بأن مرافقينا العرب الطيبين لزموا الهدوء خشية أن يسلّطوا علينا بعضاً من الجشعين والمتعطشين للدماء. ولكن على الرغم من التزام الحيطة والحذر، لم يكن ليُسمح لنا بالعبور من دون منغّصات أو الوصول إلى مقصدنا الجبلي من دون مضايقات.

كانت الساعة حوالي السابعة مساءً وكان الظلام دامساً عندما حوصرنا فجأة ومن دون سابق إنذار من قبل عُصبة كبيرة من الرجال الشرسين المسلحين بالبنادق والخناجر والرّماح والطبنجات. أطبقوا علينا بلمح البصر من كل حدب وصوب، في خطة مُحكمة نُفّذت بكل دقة. قاموا أولاً بفصلنا، ثم قام بعضهم بسوق الدواب المحملة التي أصيبت بحالة من الهياج والذعر المفاجئ ما حدا بسائسيها إلى تركها والابتعاد عنها. البعض الآخر من هؤلاء الوافدين غير المنتظرين احتجزوا أحد أفراد جماعتنا المتواضعة أسيراً، وبعد دقائق من الهجوم لم يعد أحد منا يعلم عنه شيئاً.

سيسأل البعض من كان هؤلاء القادمون الجدد؟ كانوا مجموعة من الأعراب ينتمون إلى العائلة الحاكمة في مؤاب والمعروفة بآل المَجَالي الذائعي الصيت والمرهوبي الجانب بسبب شراستهم وجسارتهم. وبطريقة ما علموا بقدومنا، وكانوا يتربّصون بنا بانتظار وصولنا، مستعدين ليس فقط لمباغتتنا، وإنما لاستقبالنا في بلدهم بطريقة فظة غير لائقة. لم يكن المكان أو الوقت مناسباً للحديث، وهكذا فقد جرى سوق كل واحد منا راكباً من قبل ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الوافدين غير المرحّب بهم.

تناهى إلى سمعي صوت زوجتي تناديني، وكان صوتها آتياً من مكان ما عن يميني.

وهكذا، ومن دون الالتفات للأشخاص القائمين على اقتيادي معهم، انسللت مترجلاً عن حصاني؛ وقبل أن يتنبهوا لما حدث، كنتُ أركض في الاتجاه الذي أتى منه صوت زوجتي، متعثراً بالأحجار والشجيرات في الظلمة، إلى أن وقعت على مجموعة صغيرة من الرجال.

كانت زوجتي في الوسط مازالت معتلية بغلها وحولها ستة أو ثمانية رجال، بعضهم على الجياد، والبعض الآخر راجلاً. كانوا يحاولون إفهامها بأنهم يريدون أيّ شيء ثمين قد تحمله معها.

بالرغم من أنهم كانوا قوماً شرسين وخارجين عن القانون، فإنّ عاداتهم وأعرافهم الاجتماعية منعتهم من التعرض لامرأة، رغم توقهم للفوز بأية أشياء ثمينة قد تكون بحوزتها. لقد سبق لي أن تعرّضت لمثل هذا الموقف الذي خرج منه اللصوص بخفي حنين. على أية حال، لم أكن أحمل معي أيّ شيء ذا قيمة، كوني قد وضعت في حسباني مواجهة مثل هذه المواقف.

كنت قد قاومت بشدة الرجل الأول الذي بدأ يفتش جيوبي وخُرج دابّتي. وفي محاولة منه لإخافتي وترويعي كي أستسلم له، استل خنجراً مقوساً طويلاً ثم أخذ يلوح به في وجهي مهدداً. لكنني تمكنت بحركة بارعة من انتزاعه من يده، الأمر الذي دفعه إلى العزوف عن محاولته التدخل في شؤوني.

باندفاعي بين الجياد والرجال الذين يحاصرون زوجتي، تمكنت من خلال إشاراتي وصرخاتي من إفهامهم بأني كنت محتجاً على أفعالهم. في ذلك الوقت لم أكن أجيد سوى بعض كلمات اللغة العربية. وما هي إلا دقائق معدودة حتى انضم إليهم أولئك الرجال الذين عمدوا إلى أسري والذين تعقبوا أثري بعد أن تمكنت من الإفلات منهم؛ ثم انطلقنا سوية. كنت أسير بحذاء بغل زوجتي وأنا أبذل ما بوسعي لتشجيعها والترويح عنها. لقد دعوني عدة مرات للركوب، ولكن من دون جدوى.

لم نكن طوال هذا الوقت نعرف شيئاً عن أصحابنا الذين كان بمقدورهم التحدث

بلغـة القـوم أو عن الحمولة، أو حتـى عن مرافقينا الأوفياء. أسـرينا لمدة سـاعة تقريباً تحت جنح الظلام، وغالباً ما كنت أتعثر بالحجارة أو بعض الحفر فوق الأرض الجافة المتشـققة، لكنني أتشـبث بلجام البغـل، وعلى الرّغم مـن قدمَي المتقرحتين وسـاقَي الداميتيـن من وخز الأشـواك الحـادة أو نبات القـرّاص اللاذع، لاحت لنـا أخيراً على البعـد أضواء نيران المضارب، وأدركنا أن بيوتَ آسـرينا باتـت قريبة وأن هذه المرحلة من رحلتنا على الأقل شـارفت على نهايتها. اندفعت الكلاب الحانقة باتجاهنا من كل حدب وصوب معلنة عن قدومنا بصيحاتها الحادة ونباحها الأجشّ.

وبعـد بضـع دقائـق أنخنـا الجمـال وحططنـا الرحـال قبالة واحـدة من خيـام أحد المضارب الكبيرة، ثم دُعينا للدخول؛ وهذا مافعلناه، مدركين لحقيقة أننا أسرى هؤلاء البدو الذين قاموا باعتقالنا وأن سجننا المؤقت هو أحد بيوت الشعر.



الفصل الثاني

دخول مؤاب

آلَ بنا الفصلُ السابقُ وأنا ورفاقي أسرى داخل أحد بيوت الشعر فوق سهول مؤاب الموحشة المقفرة. دعوني الآن أروي لكم كيف وصلت إلى هناك والظروف التي أسلفت ذكرها.

غادرت أنا وزوجتي إنكلترا يوم الخميس في الثالث من سبتمبر في عام 1891 تحدونا الأماني الطيبة وبركات ودعوات الأهل والأصدقاء. وصلنا إلى يافا، ميناء جنوبي فلسطين في الموعد المحدد، حيث استقبلنا هناك من قبل السيد والسيدة ليثاباي Lethaby وحللنا ضيوفاً مؤقتين في دارتهما الخاصة. هنا تلقيت أول درس لي في اللغة العربية – درس قصير وسهل نسبياً، ولكنه مفيد جداً، فالوكيل الذي تعهّد أمور نزولنا من المركب وإجراءات الجمارك علّمني المقابل في اللغة العربية لعبارة «ما ذا يكون ذلك؟».

وهكذا شرعتُ في تعلّم العربية مسلحاً بأول كلمتين من تلك اللغة الصعبة، وسرعان ما تعلمت أسماء العديد من الأشياء حتى بات بمقدوري التحادث مع الناس. وبما أنّ الطريق إلى مؤاب كانت تمرّ عبر القدس، فقد استأجرنا عربات توصلنا إلى المدينة المقدسة، نظراً لأن طريق سكة الحديد لم يكن قد افتتح بعد. وبعد رحلة مضنية وصلنا إلى القدس حيث أقمنا في بيت مريح. في صباح يوم الأربعاء 30 سبتمبر بدأت رحلتنا إلى مؤاب. كانت وجهتنا الكَرَك Kerak العاصمة القديمة، والتي هي قير Kir في العهد القديم، ولو أننا عرفنا آنذاك بكل ما سيحل بنا، لكنا تحسبّنا لمثل هذه الرحلة بقدر أكبر من الجدية. صديقانا السيد

والسيدة ليثاباي Lethaby ركبا في محملين بدائيين مدليين على ظهر أحد الجمال. ووُضعنا أنا والسيدة فوردر في وضع مشابه. تحركنا ببطء شديد، وبعد أن أخذ التعب منا كل مأخذ، امتثل صاحب الجمل في النهاية لتوسلاتنا واقتراحاتنا بالوقوف وأخذِ قسط من الراحة. وبعد عشر دقائق بدأنا من جديد. لا تزال ذكرى رحلة ذلك اليوم إلى أريحا ماثلة في خاطري وتلك التأرجحات والترنّحات على ظهر الجمل تحت أشعة الشمس الحارقة، كانت أمراً لا يطاق. وما فاقم من معاناتنا وتعاستنا كان ذلك الجمل الحرون في إصراره على السير بحذاء الحواف الخطرة لتلك الجروف الشديدة الانحدار التي يشتهر بها طريق أريحا. وكان إذا ما ربتنا على عنقه لنوجهه إلى منتصف الطريق، يحرن ويتوقف عن السير، ثم يجثو على ركبتيه.

لقد فاقم الهدوء غير العادي لذلك الحيوان من متاعبنا في اليوم الأول إلى درجة كبيرة. وكنا إذا ما استدار بعنقه الطويل ليذبّ حشرةً مزعجة عن مؤخرته، نخال أنه يهم بقضم أرجلنا المتدلية على أطراف المحملين اللذين كنا قابعين فيهما.

وأخيراً تراءت لنا أريحا عبر السهول ووصلنا أخيراً إلى القرية. كنا متعبين ومنهكين، وممتنين للمأوى والمياه الساخنة التي وفرتها لنا المرأة المسؤولة عن ذلك النزل الرّوسي هناك. حاولنا أن نخلد إلى النوم، ولكن الحرارة الشديدة والهوام والحشرات المنتشرة بكثرة التي شاطرتنا فراشنا، جعلت النوم يجافي أعيننا.

في حوالي الساعة الثانية من صباح اليوم التالي انطلقنا في طريقنا من جديد نحو وجهتنا التالية. كانت جمالنا في العتمة تقتفي أثر سيدها عبر سهل أريحا المنبسط. وعند الفجر وصلنا ضفاف النهر التاريخي حيث تقدم دليلنا بعد أن انتضى عنه ملابسه ورمى بها جانباً ليخوض نهر الأردن عابراً إلى الضفة الأخرى. وبالتتابع عبر الجملان كلاهما النهر وتبعهما على الأثر حماران سباحةً. حمل مرافقنا الحقائب على رأسه، وبعد قدر كبير من الخوض في مياه النهر، نجح في النهاية بالوصول إلى الضفة الأخرى. كان المنظر رائعاً في الصباح الباكر مع خيوط الفجر الأولى. استرحنا لحوالي نصف ساعة وتناولنا طعام الإفطار المكون من الخبز الجاف ومياه نهر الأردن، التي وإن لم تكن غاية في الروعة، فقد كانت سائغة جداً.



نهر الأردن

إطلالة على النهر بالقرب من المخاضات (مواضع المياه الضحلة) التي عبر من خلالها بنو إسرائيل. يبعد الموقع حوالي خمسة أميال عن أريحا. وقد التقطت هذه الصورة من على الجسر الخشبي الممتد فوق النهر في تلك النقطة. عبر المستر فوردر من هنا في رحلته الأولى إلى مؤاب.



بيت عربي من الداخل

تبيّن هذه الصورة مكان الموقد في الوسط والعنابر الطينية التي تخزن فيها الحبوب والملح أو الطحين. إلى اليسار يوجد فسحة لنوم العائلة، كون باقي المساحة تكون بشكل عام مشغولة بالضيوف. لا يوجد في هذه البيوت نوافذ أو مداخن.

كانت الرحلة عبر سـهول الأردن طويلة ومتعبة. كانت الحرارة لاهبة وجبال مؤاب بدت وكأنها سراب لن ندنو منه أبداً. ولكننا وصلناها في النهاية، وبدأت رحلتنا صعوداً. شـرعت الجمال ببطء ومشقة بمهمتها الصعبة في الصعود والنزول في أماكن يستحيل على أيّ حيوان آخر أن يجازف بارتيادها، بمحاذاة الحواف الخطرة للوديان السـحيقة فوق الجروف الصخرية الملساء والزلقة بفعل أقدام العابرين وحت العواصف والرياح. وأخيـراً لاحت لنا على البعد سـهول مؤاب Moab الشاسـعة الخصبة والتي كانت في ذلـك الموسـم الجاف والحار من العام متشـققة بفعل الحـرارة القائظة لفصل الصيف الطويل. مررنا في ظل جبل نبو Mount Nebo، لكننا كنا مرهقين جداً لننتبه له أو نعير كثير اهتمامٍ لأول زعماء بني إسـرائيل الذي توفـي هناك فوق ذاك الجرف المنعزل من تلك السلسلة الجبلية.

بعد خمس عشـرة ساعة من مغادرتنا أريحا وصلنا إلى مادَبا Medeba، وهي عبارة عـن قرية كبيرة تقع في السـهل. كم كنا ممتنيـن للترحيب الحار من قبل زعيم المنطقة! فقد بسط لنا السجّاد وغير ذلك من وسائل الراحة على الأرض، حيث اضطجعنا وأرحنا بسرور أرجلنا المتعبة من عناء المسير. كان المنزل عبارة عن غرفة واحدة كبيرة في كل ركن من أركانها مكان مخصص لنوم العائلة أو تخزين المؤن والبضائع. أقواس عريضة مصنوعة من طبقة سميكة من الطين كانت تدعم السقف تحملها عوارض خشبية.

كما جرت العادة، تم إعداد العشاء وتقديمه على الطريقة العربية. كانت وجبة محترمة جداً مؤلفة من دجاجتين مشويتين في الفرن وأرز مسلوق وخبز مسخن. لقد أكلنا حتى التخمة وما تبقى أعطي لأولئك المتحلقين حولنا يحدقون بنا. أعقب ذلك القهوة، التي قدمـت لنا في فناجين صغيرة؛ مقدار ملء ملعقة صغيرة كان بالنسـبة لنا يفي بالغرض، حيث أنها كانت قهوةً كثيفة ومركزة ولكنها كانت تفتقر إلى الحليب أو السكر. في ذلك الوقـت كان البيـت قد غصّ بالعديد من الرجال الذين تحلقوا حول النار الموجودة في نُقرةٍ وسط الأرض. وفي غمرة الثرثرة الصاخبة ودخان النار والغلايين العديدة أسلسنا قيادنا لنوم عميق، أبعدنا لفترة وجيزة عن هذه البيئة الجديدة والغريبة المحيطة بنا. بُعيد

استيقاظنا لم نلبث أن اكتشـفنا أن أعداداً كبيرة من الغزاة والمغيرين كانوا قد هاجمونا لهدف واضح وهو الاسـتيلاء على كل شيء اسـتطاعوا أخذه من الوافدين الجدد. لقد علمنا للأسـف بأن مادبـا كانت مقر إقامة زعيـم وزعيمة المنطقـة flea community وأنهم لم يتوانوا أبداً في التحقيق مع أيّ شخص كان ينزل أرضهم لبعض الوقت. تلك الإغفاءات القليلة أنعشتنا وساعدتنا في تمضية تلك الليلة المثيرة.

كان ينبغي لي التنويه بأن حقائبنا الثقيلة غادرت القدس على خمسـة بغال قبلنا بساعتين فـي ذات اليـوم الـذي بدأنا فيه رحلتنـا حيث التقينا بها فـي مادَبا. لم نكن نتوقـع بأن ننطلق مجـدداً قبـل يـوم أو يومين، لكنهـم قالوا بأنهم سيسـتأنفون مسـيرهم يـوم الجمعة حوالي العاشـرة صباحـاً. كانت جمالنا قد عـادت إلى القدس، لذلك فقد بدأنـا المرحلة الثانية من رحلتنا على البغال والأحصنة. كان يمكن لمسيرنا خلال اليومين التاليين أن يكون محفوفاً بالمخاطر والتأخير، لولا أن حالفنا الحظ بعبور المكان دون أن يلحظنا أحد.

دخلنـا أرض الأعداء في وقـت متأخر من بعد الظهر وواصلنـا التحرك حتى أرخى الظلام سدوله.

كانـت قافلتنا مؤلفة مـن حوالي أربعين رجـلاً، إضافة إلى الـدّواب، والعديد منهم قـرروا السـفر معنـا، لأن في الكثرة أماناً. مـن دون أن ينبس أحد ببنت شـفة عبرنا تلك السهول تحت جنح الظلام. وفجأة ألفينا أنفسنا محاصرين من قبل عشرة أو اثني عشر رجـلاً من قبيلة بنـي حميدة[1] Hameideh حيث أننا كنا نسـافر عبـر أرضهم من دون موافقتهم. بدت ملامحهم على ضوء النجوم ملامح رجال أشـرار، مسـلحين بالبنادق والطبنجـات والسـيوف ورماح بطول اثني عشـر قدمـاً. بعد كثير مـن الصياح والجدل الـذي كان مبهماً بالنسـبة لنا، عمدوا إلى فصلنا ثم سـاقوا جميـع الحيوانات المحملة بعيـداً، بعدهـا تركونا نجتمع مرة أخرى ونسـتأنف مسـيرنا دون أن نعلم أيّ شـيء عن مصير حقائبنا.

---

(1) تعود بنا الذاكرة هنا إلى رحلة الإيطالي كارلو غوارماني الذي أقام لدى بني حميدة مدّة إبّان رحلته المشابهة لرحلة فوردر من الأردن إلى الجوف فالقصيم عام 1864.

بعـد حوالي سـاعتين وصلنا أحـد مضارب بيوت الشـعر حيث أمضينـا بقية الليل. وقبيـل الصباح كان قد جرى اسـترداد جميـع حيواناتنا المحمّلة على يد ساسـة البغال الأوفيـاء. ومـع طلـوع الفجر تحركنـا ثانية يحدونا الأمـل ببلوغ الكَـرَك Kerak بأمان قبيل حلول الظلام. وسـرعان ما وجدنا أنفسنا نهبط في المَجاز الضيق والعميق لوادي الموجـب Mojeb. عبرنـا نهر أرنون الذي يجـري في قاع الوادي ومتعنـا ناظرنا بذاك الغطاء القشـيب مـن أزهار الدفلـى البيضاء والقرنفليـة على ضفتي النهـر. وصلنا إلى طرف ذاك الوادي الرائع من جهة الكَرَك حوالي السـاعة العاشـرة صباحاً وقررنا البقاء هناك حتى مغيب الشمس، حيث أننا كنا قد دخلنا الآن أرض زعماء الإغارة في مؤاب Moab المعروفين بآل المجالي Mujellies.

كان رجالنـا علـى علم بأننـا إذا ما وقعنا في أيـدي هؤلاء الناس فلـن يرحمونا أبداً. تفيأنـا ظلال إحدى الصخور الكبيرة واتخذنا من ذلـك المكان ملجأً ومأوى. لقد كان المـكان محجوبـاً عن الأنظـار لدرجة أن أحـداً لا يمكنه رؤيتنا ما لم نظهر أنفسـنا عن عمـد. لـم نمكث طويلاً في ملجأنا حتى تناهى إلى سـمعنا صوت شـجار صاخب بين رجالنا. تسـللت السيدة ليثاباي خارجاً لاسـتطلاع الأمر فلمحت الرمح الطويل لأحد الشيوخ أو الزعماء. كان قد أطبق على رجالنا زاعماً بأن بعضاً منهم قد جرّد أحد رجال قبيلته من بندقيته وسرقها وأن عليه أن يأخذ شيئاً ما بالمقابل.

وبعـد جـدال عاصف، مضـى بأحـد بغالنا بعـد أن حَمَّلـهُ بأسـرّتنا وأحـد صناديق الملابـس والأرغن الصغير خاصتي. لم يكن لدينا أيّ أمل برؤية تلك الأمتعة ثانية، إلا أننا عددنا أنفسنا محظوظين عندما استعدناها بعد عدة أسابيع. انقضى ما بقي من ذلك اليوم بهدوء ودون منغصات، أما البقية فقد هيأتنا للأحداث المدونة في الفصل الأول. كنا هناك في خيمة بدوية ومن تلك النقطة سأبدأ القصة.



مضارب عرب الصحراء

هـذه الملاجـئ البدائية هـي «خيم قيـدار kedar» مكان إقامة عـرب الصحراء والتي تدعى «بيوت الشـعر» لأنها مصنوعة من شـعر الماعز. فالنسـاء يغزلنها وينسـجنها وهي محاكة بإحكام وبذلك سوف يسحبون الماء منها ويبقونها خارجاً على الرمال الناعمة خلال العاصفة. تقسم الخيام إلى قسمين: قسم للنساء، وآخر لاستقبال الضيوف وتأمين راحتهم.

أُخذنا أنا وزوجتي إلى واحد من بيوت الشعر تلك حيث بُسط لنا السجاد لنجلس عليه وتحلّق الرجال والنساء والأطفال حولنا محدّقين بنا بدهشة واستغراب، فاستنتجنا بأنهم جميعاً كانوا راضين عن هذا الأسر الذي مكّنهم من رؤيتنا. وسرعان ماخطر ببال أحدهم احتمال أننا جياع، لذلك فقد بادروا إلى الاستفسار منا من خلال الإشارات إن كنا راغبين بالأكل، فهززنا رؤوسنا بالموافقة. عندها أعدوا لنا على عجل بعضاً من الخبز الرقيق الذي كان طيب المذاق. قدموا لنا أيضاً القهوة وجلبوا لنا قِدراً كبيراً من الحليب. لعله كان أمراً جيداً بالنسبة لنا أننا لم نستطع التحدث إليهم؛ ليته كان بإمكاننا أن نفعل ذلك، إذاً لأمكننا تسقط أنباء عن رفاقنا وأمتعتنا.

وفي غضون ساعة من الزمن حضر إلينا واحد من رجالنا وأفهمنا بأننا مطلوبون في مكان آخر. نهضنا وتبعناه حيث قادنا إلى خيمة على الجانب الآخر من مضرب الخيام، وهناك وجدنا رفاقنا داخل الخيمة. كانوا داخل خيمة الزعيم المحاط بأبنائه العُتاة ورجاله الجشعين، حيث طالبنا الزعيم بالمال لأننا مررنا في إقليمه. كان علينا أن ندفع له خمسين دولاراً قبل أن يطلق سراحنا، وإلا فسوف يبقينا وحوائجنا رهن الاحتجاز.

كان المبلغ المطلوب بالنسبة للكثيرين مبلغاً صغيراً ولكنه، بالنسبة لنا ولهم، كان كبيراً؛ لذلك رفضنا أن نلبي طلبات هذا الزعيم المراوغ.

تضرّعنا إلى ربنا أن يلهمنا الحكمة ويهيئ لنا من أمرنا رَشَدا، ثم افترشنا الأرض الجرداء وأسلمنا أنفسنا للنوم. وعندما استيقظنا صباح اليوم التالي رأينا بعضاً من صناديقنا ملقاة في أرجاء مضرب الخيام كيفما اتفق. وسرعان ما بدأت النسوة بإنزال الخيام استعداداً للرحيل، حيث تبين لنا بوضوح وجوب التوصل إلى تسوية ما، وإلا فسوف نفقد كل ممتلكاتنا.

قطعنا لهم عهداً بأن ندفع المبلغ المطلوب شرط أن يقوموا بمرافقتنا لحين وصولنا إلى الكَرَك بأمان وأن تردّ إلينا جميع حقائبنا. فجرى تكليف ثلاثة من أبناء الزعيم لمرافقتنا إلى موطننا الجبلي. وهكذا وجدنا أنفسنا أمام بداية جديدة كانت بانتظارنا،

ولكـن بعد حوالي سـاعة من الزمن جوبهنـا بالمزيد من الأعراب علـى ظهور الخيل؛ وكانوا جميعاً بحالة من الغضب والانفعال.

سُـمح للجميـع بالمرور، باسـتثناء أنا وزوجتـي. كان هؤلاء المطالبـون الجدد من عائلـة أخرى مرتبطة بالشـيخ الحاكم وقـد طالبونا بحصتهم من الغنائم قبل أن يُسـمح لنا بالمرور. وبعد الكثير من العراك والمشـاحنة قـام المكلفون بحمايتنا بتهريبنا حيث لحقنا بالآخرين.

عند الساعة الثالثة من بعد الظهر وصلنا الكَرَك حيث كنا متعبين ومرهقين ومنهوكي القوى نظراً لأننا لم نأكل أو نشرب منذ حوالي خمس عشرة ساعة. وبهذه الحالة قدمت للعرب. بعدئذ كنت أتحدث من وقت لآخر مع أولئك العُتاة حول تلك الليلة لأسـمع منهم الرد التالي: «ما فات قد فات ومن مات قد مات».

لـم تظهـر علينا في خـلال كل تلك المحن الأولـى الجديدة والقاسـية أيّة علائم أو دلالات توحـي بالخوف أو الرعب، فقد كنا ندرك آنـذاك، وعلى غرار المحن العديدة السـابقة، بـأن «مـلاك الرّب يـكلأ بعيـن الرعايـة أولئك الذيـن يخشـونه وينجيهم من البلـوى». لقـد كانـت مجـرد البداية لكثير مـن الأحـداث القادمة، والأسـوأ من ذلك، أن هـذه الأحـداث بدأت تتوالى قبل أن نتمكن من كسـب ذلك الـود والاحترام والثقة والإعجـاب من جانب هؤلاء من أبناء إسـماعيل حيالنا والحفـاظ عليه من الضياع في يوم من الأيام.



الفصل الثالث

من هو الأسير

ستسهم بعض المعلومات التي يتضمنها الكتاب عن نشأة مؤلفه في تمكين القارئ من متابعة وفهم كل ما تتضمنه هذه الصفحات على نحو أفضل.

لم أفتح عيني على نور هذه الحياة وفي فمي ملعقة من ذهب. لقد كنت واحداً من سبعة أبناء مَنَّ اللهُ بهم على والدين وَرعَين بكل ما في الكلمة من معنى. لم يكن الترف الدنيوي الزائل مبتغانا، كما أننا لم نكن فقراء أيضاً، لكن المستقبل لم يكن يعدني بأكثر من الملل المتثاقل، ملل الحياة اليومية الرتيبة. كنت يومها فتى في الثامنة من عمري عندما حرّك إعلانٌ أذيع في أنحاء مدينتي الرغبة في مخيلتي الصغيرة للخروج والإصغاء إلى أحد الخطباء الشعبيين وهو يذيع إعلانه. كان الخطيب روبرت موفات Robert Moffat، رائد المهمات التبشيرية في إفريقيا. وقد تمكنتُ، بعد إلحاح، من إقناع والديَّ بالسماح لي بالذهاب لسماع خطبته. معارضة والديَّ لذهابي لم تكن ناجمة عن أيّ قناعة منهما بأن المناسبة غير ملائمة لمن هو في مثل سني، وإنما لاعتقادهما بأن السرير هو المكان الأنسب بالنسبة لطفل مثلي من قاعةٍ مكتظة بالكبار.

مع حلول المساء كنت أتصدر المقعد الأمامي في القاعة؛ ولا زالت صورة الأضواء والحشود والاهتمام الكبير المنصبّ على المتحدّث وأشياء أخرى من هذا القبيل ماثلة في ذاكرتي حتى الآن. لكن الرائد المخضرم، برأسه الأصلع وشعره الطويل ولحيته الرمادية، شدّني إليه أكثر من أيّ شيء آخر على الإطلاق. وقد لاقت توسلاته ومناشداته

لإنقاذ شعب الهوتنتوت المسحوق في جنوب إفريقيا وطلب المتطوعين صدى إيجابياً عند البعض؛ لكن أكثر ما أثارني كفتى صغير كان حكاية الأسد الذي خرج من الغابة وأمسك بالسيد موفات من كتفه فما كان من خادمه المخلص إلا أن انبرى للإجهاز على الوحش، منقذاً حياة سيده. وقبل انتهاء ذلك اللقاء كنت قد عزمت على أن أصبح مبشراً عندما أكبر، ثم أبلغت أمي بقراري الصبياني عند عودتي لمنزلي في ذلك اليوم. مضى زمنٌ لم يعد يثر فيه هذا الموضوع على الإطلاق. وفي مرحلة لاحقة، تجددت اهتماماتي بالبعثات التبشيرية الخارجية بعد سماعي عن شخص قضى سنوات عديدة من حياته في الصين، وعزمت مرة أخرى على قضاء حياتي بين الوثنيين[1].

أمضيت بضع سنوات أجمع التبرعات للمهام التبشيرية الخارجية بكل حماسة ونجاح. معظم عطلات منتصف الأسبوع التي كانت تصادف أيام الأربعاء والسبت كنت أكرّسها للتنقل من منزل لآخر طلباً للتبرعات من المساهمين ووضعها في الصندوق الذي حصلت عليه من إحدى الجمعيات التبشيرية. لم تمنعني الحالات التي كنت أتعرّض خلالها للإحباط والصدّ من المضيّ قُدُماً في مهمتي، حيث سرعان ما أصبحتُ جامعَ تبرعاتٍ ناجحاً وذائعَ الصيت، ولطالما أسهمت أحداث ومواقف كالتي سآتي على ذكرها في جعل هذا العمل أكثر إمتاعاً.

ففي عصر يوم حارّ كنت خارجاً أقوم بمهمة جمع التبرعات، عندما طرقتُ على أحد الأبواب، فإذا بخادم طيّب القلب يستفسر عن الطارق. فأجبت قائلاً: «هلا تكرّمت بوضع أيّ شيء في صندوق التبرعات التبشيري؟». فأجاب الخادم: «هلا تفضلت بالدخول يا أيها الولد الصغير، سوف أخبر سيدتي». دخلت، ثم رافقوني إلى غرفة فارهة حيث جلست أنتظر مجريات الأمور. أخبر الخادم سيدته عني، وبعد وقت قصير حضرت سيدة المنزل وسألتني عدداً من الأسئلة أجبتها عنها جميعاً بطريقة مقنعة نالت استحسانها، ما حدا بها إلى قرع الجرس واستدعاء الخادم ثانية حيث طلبت منه

(1) إن كان كما يقول، فما الذي أتى به إلى جزيرة العرب مهد النبوّة ودار الإيمان؟ لا ريب أنّ مهمته لاقت فشلاً ذريعاً، كحال مهمّة زويمَر في البصرة والبحرين ومسقط.

إحضار بعض المرطبات من أجلي. وسرعان ما عاد الخادم مع صينية صغيرة مليئة بأنواع البسكويت الفاخر وكعكة وزجاجة نبيذ. سكب الخادم كأساً من النبيذ وعرضها عليَّ، لكنني رفضت قبولها بما أنني أحد أعضاء «عصبة الأمل» Band of Hope. إزاء رفضي، اسُتبدل الخمر بعصير الليمون، مع الكعك والبسكويت، محققاً بذلك العدالة الأخلاقية والشرعية التي تتناسب وعمري.

وبعد تناول المرطبات، عدت إلى عملي والاستمتاع برؤية قطعة معدنية تساوي حوالي ستين سنتاً تضاف إلى مجموع التبرعات في الصندوق.

عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، غادرت بيتي متسلحاً بخبرة عمرها ثلاث سنوات في مهنة الأفران والبقالة. في نهاية تلك الفترة، وفي أثناء إحدى إقاماتي القصيرة في البيت قُدّر لي أن أنذر نفسي للربّ من خلال صبر وأناة وإقناع أستاذي القديم في مدرسة الأحد. لم يكن لأيّ توجه آخر سوى هذا التوجه أن يقنعني بالذهاب للعيش في مدينة لندن العظيمة؛ المكان الذي يعجّ بالمخاطر والإغراءات لخريجي الجامعات الشباب من أبناء الريف. وما إن وصلت إلى المدينة الكبيرة حتى وُفقت بالحصول على عمل جيد في مركز بقالة للبيع بالجملة والمفرق. ثم سرعان ما أصبحت مديراً للمركز في وقت قصير، وهو أمر رائع بالنسبة لشابٍ في مثل سني.

بوسعي أن أعزو نجاحي في تلك الأيام إلى أمرين اثنين: عدم شعوري بالخجل من معتقداتي الدينية، والتزامي الصارم بعهدي بالابتعاد عن المحرمات. كنت بعد انتهاء ساعات العمل في النهار، أكرّس ساعات الليل بالإضافة إلى أيام الأحد للقيام بمهمات إنسانية في الأحياء الفقيرة ومدارس الأحد أو جمعيات الشباب الملتزم. عملت أمين سرّ تبشيري لإحدى مدارس الأحد الكبرى في لندن ورفعت من مستوى التبرعات التبشيرية في المدرسة من ثمانين دولاراً إلى أكثر من ثلاثمئة دولار في السنة. كذلك قمت بالاتصال بجميع المبشرين من الرّواد والمخضرمين من كل بقاع الأرض، وكنت طوال تلك الفترة أزداد حماسة خبرة وتمرساً في العمل في مجال التبشير.

طلبت خلال ذلك الوقت من كاهن كنيستي الذي تربطه صلات قربى مع طائفة

الجماعة التبشيرية التي أنتمي إليها مساعدتي للانخراط في مجال التبشير الخارجي. أصغى إلي بهدوء وأناة ثم خاطبني بوقار ورزانة قائلاً: «أخشى أيها الشاب أن تكون أقلّ المؤهلين حظاً لدخول مجال العمل التبشيري، والعديد من الأشياء ليست في صالحك: فأنت تفتقر للخبرة الأكاديمية، ولا تتحدر من عائلة كهنوتية»، وأشياء أخرى كثيرة، كلها صحيحة، ولكنها ليست ضرورية للتبشير بكلمة الله البسيطة في أيّ مكان كان.

تخلّيت عن تلك الدراسة، معتقداً بأنه من غير الممكن أن أغادر بلدي لأبشر بكلمة الله في بلاد أخرى؛ لذلك فقد حزمت أمري على أن أبذل ما بوسعي لتقديم خدماتي داخل وطني.

في عام 1888 تزوجت، وبدأت أعمل لحسابي الخاص، ولكني كرّست أوقاتي الإضافية للعمل في شتى مجالات النشاطات الدينية. كان علي مع ذلك أن أستلهم المعنى الحقيقي لكلمات أحد الحكماء الأولين: «لكل إنسان أساليبه وعاداته»؛ وأيضاً:

«كلُّ يومٍ هو في شان ليري عباده من آياته الكبرى»..

الله ينظر إلى قلب الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، بينما ينظر الإنسان إلى الشكل والمظهر الخارجي، لذلك علينا ألا نترك لليأس والقنوط مجالاً للتسلل إلى نفوسنا. كنت أعيش هانئاً مطمئناً في وطني وناجحاً في عملي عندما سنحت لي الفرصة على غير انتظار، وتحقق حلمي المنشود الذي طال انتظاره. بعد ثلاث سنوات تقريباً من مقابلتي للكهنوتي الحكيم تغير مجرى حياتي، بشكل جذري. كنت قد عدت إلى المنزل بعد الانتهاء من أداء واجباتي في مدرسة الأحد وكنت منهمكاً في مطالعة إحدى المجلات التبشيرية، عندما لفت انتباهي مقال عن العمل التبشيري بين العرب في أرض مؤاب Moab القديمة، على الجانب الشرقي من نهر الأردن. كان هذا العمل واحداً من الأعمال المحفوفة بالمخاطر والمشاق والصعوبات الكبيرة، وكان يقوم به رجل وزوجته وامرأة شابة. ما أثار اهتمامي أكثر من غيره خلال القراءة كان الكلمات

الأخيرة التي انطوت على نداء لشاب متزوج نشيط وقوي مستعد لتحمّل شظف العيش للذهاب للمساعدة في هذا العمل، ما يمكن العاملين هناك من أخذ قسط من الراحة هم بأمس الحاجة إليها. طويت الصحيفة؛ ولكن ما أن وضعتها جانباً حتى تراءى لي بأن صوتاً هاتفاً يخاطبني قائلاً: «تلك مهمة سيقت من أجلك».

لم أستطع التخلص من ذاك الهاجس الذي استحوذ على تفكيري، وفي غضون أيام قليلة أرسلت رسالة لأمين سر تلك البعثة التبشيرية الصغيرة التي تتلقى دعمها من عدد قليل من عباد الله المخلصين، الذي بات معظمهم الآن في ذمّة الله.

كان أمين سر تلك البعثة التبشيرية الصغيرة ويدعى الكاهن جورج پيرسي Rev. George Piercy أحد رواد المبشرين في الصين. وجاء الرد على رسالتي من خلال زيارة قام بها رئيس هذه البعثة ووعدٍ بدراستها دراسة مبشرة بالخير. ولكن كانت هنالك صعوبات تقف حائلاً أمام قبولي، – عملٌ مُجزٍ ومنزلٌ مريح، – وهذا يعني التضحية بهذه الأشياء والذهاب وبدء حياة بين العرب في أرض مؤاب Moab النائية والحافلة بالمخاطر.

استبعدت هذه المسألة على مدى أربعة أشهر؛ وبعدها استلمتُ رسالة تقول: إذا لم تغيّر رأيك بذلك الأمر، فإن اللجنة ستنظر بأمر إرسالنا في هذه المهمة. لقد قُبلنا؛ وفي خلال وقت قصير كنت قد تخليت عن منزلي وعملي عن رضا واقتناع، وبتنا مستعدين للذهاب دون قيود أو معوّقات. ألحقونا بدورة تدريبية عملية لبضعة أشهر في المستشفيات، والتي أثبتت التجارب العديدة التي مررنا بها خلال السنوات الأربعة عشرة الماضية بأنها كانت لا تُقدّر بثمن. كانت مغادرتي لندن إلى تلك الأرض النائية والغامضة محنة قاسية بالنسبة لوالديَّ؛ فقد دفنوا مؤخراً اثنين من إخوتي، ورحيلي كان بمثابة تحطيم للحلقة الثالثة من سلسلة العائلة.

لقد عهدوا بي للعناية الإلهية، ولم يأسفوا قط لتلك التضحية التي كانت تعني لهم مغادرتي لبلادي، ربما إلى غير رجعة.

سيتفهم القارئ الآن بشكل أفضل ماهيّة الظروف والأسباب التي حَدَت بي لدخول مجال التبشير. إنها كما يقول الرّب: «لا بالحول ولا بالقوة، بل إنها مسألة روحية» وأستطيع الآن أن أقول بكل صدق بعد تلك السنوات العديدة التي انقضت منذ بداية تلك الحياة الجديدة والظروف الكثيرة والمختلفة التي دهمت حياتي، بأنه كان بلا شك نداء الله إلي، ولم أشعر قطّ بالندم أو بالأسف لتلك الخطوة التي اتخذتُها أو التضحية التي قمت بها لتمكين أولئك المستضعفين في الأرض من إدراك أن الله لا يرغب في أن يهلك أيّ عبد من عباده، لكنه يرغب في توبة الجميع».



الفصل الرابع

من هم البدو

تحدثنا بإيجاز في الفصل السابق عن الظروف التي قادت الكاتب إلى أقوام يعيش معظمهم في بيوت من الشعر. سيكون من المناسب هنا تعريف القارئ بأولئك الناس الذين سطر الكاتب ما جرى معه من أحداث من خلال حياته بينهم.

يمثل العربي المعاصر تلك الحقيقة المستمرة عبر التاريخ للإسماعيلي القديم. إلى جانب اليهود، لم يسبق لأمة من الأمم أن حظيت بمثل هذه الاستمرارية اللامنقطعة أو التاريخ المثير كهذه الأمة[1]. سيكون من غير الملائم في سياق هذا الكتاب محاولة تقديم تقرير علماني مفصل عن تاريخ العرب، فالتقرير النصّي القديم يفي بالغرض.

ليس هنالك أدنى شك بأن إسماعيل هو المُنشئ الأول للسلالة أو العرق العربي العظيم، فهناك أربعة وعود تتعلق بذرية إبراهيم وهاجَر Hagar نراها تتحقق أمام أعيننا هذه الأيام.

---

(1) هذا على الورق فقط، نعم.. التّوراة التي بين أيدي الناس اليوم كتاب مليء بالأخبار المثيرة والشاعريّة، ولكن كبار خبراء النقد النصي في عصرنا الحاضر أجمعوا على أنّ ما يرد فيها تم تأليفه وجمعه وترتيبه في القرن الخامس قبل الميلاد على يد عزرا الكاتب في پرسيپوليس عاصمة بلاط الأخمينيين، وكان عزرا موظفاً في مكتبة القصر ويبدو أنه امتاز بموهبة أدبيّة رفيعة وخيال خصب جداً.



عرب مؤاب سكان الخيام

الرجـال الثلاثـة الذين كانوا برفقة المسـتر فـوردر عندما نبهتهم الجيـاد بذكاء إلى اقتـراب اللصوص. إلى الجهة اليسـرى الرّجل «الصّديـق الوفـي» الـذي رافق الكاتب في العديد من رحلاته في بلاد العرب. هؤلاء الرجال ينتمون لنفس القبيلة وينزلون بشـكل عام شرقي الكَرَك في مؤاب.

وهذه الوعود هي كما يلي:

إلى هاجر (الجزء 10 الفصل 16 سفر التكوين)

«سأكثر لك ذريتك أضعافاً مضاعفة بحيث يتعذر إحصاؤهم لكثرتهم».

إلى إبراهيم (الجزء 20 الفصل 17 سفر التكوين) (Gen. xvii.20)

«أما بالنسبة لإسماعيل، فها قد جعلته مباركاً وسأجعله وَلوداً وسأكثر له من ذريته بلا حدود... وسأجعل منه أمة عظيمة».

إلى إبراهيم (الجزء 13 الفصل 21 سفر التكوين) (Gen.xxi.13)

«من ابن الجارية سأنشئ أمة، لأنه من ذريتك».

إلى هاجر (الجزء 18 الفصل 21 سفر التكوين) (Gen.xxi.18)

«قم وارفع الفتى وخذ بيده، لأني سأجعل منه أمة عظيمة».

ثمّة ثلاثة عشر مليون شخص يفخرون بانتمائهم لإبراهيم وإسماعيل ويمثلون تحقق هذه الوعود الأربعة.

«سوف يحلّ دائماً حيثما حلّ جميع إخوانه» (الجزء 12 الفصل 16 سفر التكوين) Gen.xvi.12 يجد تجسيده في ذلك الوجود غير المنقطع لأبناء إسماعيل كأمة في أرضهم. لقد جَهد الغزاة الواحد تلو الآخر دون جدوى لاحتلال أرض العرب، ولكنهم فشلوا في تحقيق أهدافهم. فإسماعيل، الذي يمثل العرب جميعاً، مقيم فوق هذه الأرض قبل جميع الأمم في هذا الزمان، ولا يوجد أيّ جزء من أرضه تحت سيطرة القوى المسيحية في هذا العالم، رغم أن حماية بعض النقاط الموجودة على الشريط الساحلي معهود بها لبعض الزعماء من قبل بريطانيا العظمى أو فرنسا.

لم تُستبدل أسماء الأبناء الاثني عشر لإسماعيل بمجموعها والمدونة في الأجزاء 13 و14 و15 من الفصل 25 من سفر التكوين (Genesis xxv.13.14.15) بأسماء أكثر حداثة. فالعديد من الأسماء، مع بعض الفروقات الطفيفة في اللفظ أو النقل،

ما زالت سائدة في جزيرة العرب. فالقرى والبلدات وحتى العائلات لازالت تحمل بعض الأسماء كما هي واردة بالضبط في المرجع أعلاه.

ليس هنالك أدنى شك بأن جزيرة العرب كانت على الدوام الموطن الأصلي للعرب. قبل أن يستحوذ بنو إسرائيل على الأرض الموعودة بزمن بعيد، قام أحفاد إبراهيم من ذرية إسماعيل بامتلاك أرضهم. «لقد استوطنوا الأرض الممتدة من حويلة Havilah إلى شور Shur قبل الوصول إلى مصر» (الجزء 18 من الفصل 25 من سفر التكوين) Gen.xxv.18. وهذا دليل كافٍ على أنهم قطنوا جزيرة العرب. وبعد آلاف السنين تحدث عن أرضهم نبي الله إشعيا Isaiah على أنها «صحراء البحر» (الجزء 1 من الفصل 21) xxi. I.

تقسيم الأمم: وسرعان ما انقسم العرب إلى فئتين: الحضر المستوطنون والبدو الرحل. تتحدث النسخة المنقحة من سفر التكوين في الجزء 16 من الفصل 25 عن قرى ومنازل لإسماعيل. وبعد ذلك بمئات السنين نقرأ في الجزء 11 من الفصل 42 من سفر إشعيا (Isaiah xlii.11) عن منازل يسكنها أبناء قيدار Kedar ولاحقاً يتحدث إرميا Jeremiah مرة أخرى عن الخيام والستائر وقطعان الماشية والأواني وجمال قيدار Kedar، ويشير أيضاً إلى هؤلاء الناس كأمّة: «مساكن ثرية من دون عناية، حيث لا بوابات ولا حانات، فهم يقطنون لوحدهم» (الجزء 31–28 من الفصل 49 من سفر إرميا) Jer.Xlix–31.28، فالبدو هم جزء من الأمة العربية العظيمة المشار إليها أعلاه.

كل بدوي هو عربي، ولكن ليس كل عربي بدوياً. فالبدوي لا يحرث ولا يزرع، بل يربّي قطعان الماعز والأغنام والإبل ويسكن البراري أو الصحراء ويحصل على قوته من قرى وبلدات جزيرة العرب، حيث يعطيهم الماشية مقابل التمور والحبوب والقليل من ضروريات الحياة. يقيم البدوي أو الأعرابي في خيمة سوداء، وهي حَرفياً «بيت الشعر»، وسُميت بهذا الاسم لكونها مصنوعة كلياً من شعر الماعز المجدول والمغزول والمحاك من قبل النساء في تلك البلاد. فعبارة: «سودٌ كخيام قيدار Kedar»

S.Sol. i. 5)) ليست إشارةً من صنع الخيال، وإنما مقولة حقيقية، فلون الخيام أسود لأنها تصنع من شعر الماعز العربي. وقيدار Kedar الذي هو الابن الثاني لإسماعيل، (الجزء 13 من الفصل 25 من سفر التكوين) Gen.xxv.13 كان على الأرجح مؤسس الفئة المرتحلة للسلالة العربية المسماة الآن بالبدو.

أما نبايوت Nebaioth الذي هو الابن الأكبر لإسماعيل، (الجزء 13 من الفصل 25 من سفر التكوين) (gen.xxv.13) فقد استقر في كهوف ومغاور جبال جزيرة العرب، وفيما بعد، على وفق ما يقوله تاريخهم، بنى المساكن، التي آلت في النهاية إلى تجمّعات سكنية مستقرة[1].

ينظر العربيُّ المستوطن بفوقية وازدراء إلى البدوي، معتبراً إياه أدنى منه منزلة بكثير من كل النواحي. وإذا ما ناديت ساكن القرى أو البلدة بالبدوي فتكون بذلك قد أثرت حفيظته. ومن جهة أخرى يشفق ساكن الصحراء على الناس المستوطنين لأنهم محرومون من التمتع بالحرية والحياة الصحية التي يتمتع بها أبناء الصحراء.

والفئتان كلتاهما على أية حال تمتلك الكثير من الصفات المشتركة: فضيافتهم الرائعة يُضرب بها المثل؛ وأيضاً على صعيد الدين، فهم يعتصمون بحبل واحد، على الرغم من أن سكان المدينة صارمون في عاداتهم الدينية أكثر من أبناء البدو المتحررين من القيود. فأسلوب اللباس يتفاوت قليلاً، حيث ترى النساء في القرى والبلدات لا يختلطن بشكل عام بالمجتمع الذكوري، بينما تخرج نساء «بيوت الشعر» حاسرات الرأس ويتمتعن بحريتهن الخاصة.

(1) هذا ليس أبداً تاريخ العرب، بل هو مجرّد رواية التّوراة. بل إنّ تاريخ العرق العربي في موطنه جزيرة العرب يؤلف على الأقل الـ 30 ألف سنة الغابرة من تاريخ العرق البشري Homo Sapiens الذي انطلق من أفريقيا إلى الجزيرة ومنها إلى باقي أقطار العالم. ومن الجزيرة بالذات انطلقت الموجات البشريّة التي أنتجت نوى الحضارة والكتابة المسماريّة الأولى (في سومر 3200 ق.م) والأبجديّة المقطعيّة الأولى (في جبيل 1200 ق.م)، وما تبع ذلك من زراعة وصناعة وفكر وأدب وشعر ودين.

لـم يكن للعرب كأمـة على مدار تاريخهـم الكثير من المحطات بـارزة على صعيد الإنجازات الإنجيلية أو العلمانية، لكن بعض الإشـارات والتلميحات إليهم من وقت لآخر تذكرنا بقوة بوجودهم المسـتمر. فقد بيع يوسـفُ إلى جماعة من الإسـماعليين أخذتـه معها إلى مصر. تخيـل أيها القارئ عملية الانقضاض على خدم أيوب وذبحهم من الوريد إلى الوريد ثم سلب ونهب الثيران والحمير.

من كان هؤلاء الغزاة؟ تلك الفئة من بني إسـماعيل المعروفة بالسـبئيين Sabeans. ومن أين أتت ملكة سبأ Sheba لتزور سليمان Solomon؟ من بلاد العرب.

ولعل الرجال الذين قدموا من الشـرق سـعياً وراء الطفل المخلّص infant Savior ينتمـون على الأغلـب إلى بدو جزيرة العرب[1]. يقدم العهـد الجديد دليلاً على وجود العرب، حيث أنهم كانوا موجودين في القدس في أثناء عيد العنصرة Pentecost (عيد ذكرى نزول الشريعة في سيناء واحتفال عيد الحصاد عند اليهود) (Act،ii.II).

فـي مرحلة لاحقة، يدفع التاريخ العلماني بالعـرب مؤقتاً إلى دائرة الضوء، ليعودوا بعدهـا إلـى الانعزال مـرة أخرى. لم تكن طبيعـة تجارب وخبرات العرب لتسـاعدهم في تحسـين أحوالهم من النواحـي الاجتماعية والدينية أو التجاريـة. منذ تلك اللحظة التـي أُبعد فيها إسـماعيل وأمّه من خيمـة إبراهيم «ما انفكّ العـرب يقفون في وجه كل إنسـان، وكل إنسـان يقف في وجههم». يُعـدّ العرب من الناحية البيولوجيـة عرقاً نقياً، ويمتازون بالهيافة والرشـاقة والقدرة على تحمل المشاق والحرمان؛ وهم أشداء على الأعداء رحماء بينهم، وأنت بمجرد أن تكسب ثقة أحدهم، تكون قد كسبته صديقاً إلى الأبد[2].

ليـس للعرب أيّـة علاقة بالمشـروبات الكحولية، ولا يتهاونون أبداً فـي إقامة الحدّ علـى المدانيـن بجرائـم الشـرف والعفة. وهم مولعـون بوفـرة الذرّيّة، لا سـيما البنين

(1) هذه أيضاً إشكاليّة غريبة من المؤلف، فإنجيل متى يروي أنهم من المجوس Magi وعلى ذلك فالمفترض عدّهم من فارس أو ميديا.

(2) نعم، هذا كلام طيب وصحيح منصف، والحق يقال.

الذكـور منهم، فقدوم الابن الذكر إلى العائلة يؤدي إلى تغيير اسـم الأب، حيث يُنادى منذئذٍ باسم «أبو فلان» مهما كان اسم ابنته البكر.

ليس لدى القسـم الأكبر من البدو أيّ شـكل من أشـكال الحكومة، فكل قبيلة وكل عائلة لها شـيخها أو زعيمها الذي يفزعون إليه وقت الشـدّة والخطـر والخصومة طلباً للحماية والنصح والمشـورة، وقراره يكون حاسماً في أغلب الأحيان. والمنصب عند البـدو ليـس وراثياً، ولكنه عادة ما يبقى في نفس إطـار العائلة، والدافع الوحيد لاختيار الشـيخ أو الزعيـم مـن عائلة أخرى هـو أن يكون ابـن الزعيم الراحل عاجـزاً عن إدارة شؤون قبيلته.

يمكـن للأحداث والتجارب المدونـة في هذا الكتاب أن تحمـل بعض القراء على الاستنتاج بأن العرب هم جماعة انطوائية وخطرة للغاية يستحيل التعايش معها. لكنني بعـد سـنوات عديدة من مخالطتهـم، أنا على يقين مـن أن العصبيـة المتمادية والجهل المتأصل المرتبط بقوة بالخرافات والأسـاطير، هو السبب وراء الكثير مما صادفته في ترحالي. أعطِ البدوي فرصة، وسوف تحوز على احترامه وثقته وتكسبه صديقاً مخلصاً مـدى الحيـاة. منذ ذلك اليوم الذي أُلقي فيه إسـماعيل إلى جـوف الصحراء، بدا وكأن الجميع قد ناصبه العداء، ولكن فجراً جديداً أكثر إشراقاً بدأ يتسامى بالنسبة له.





شيخ عربي

الشيخ أو الزعيم هو الذي يشرف على شؤون القبيلة أو القرية أو البلدة أو العشيرة. وتحال إليه النزاعات القبلية للبتّ بشأنها. وهو الذي يأمر بنقل المضارب واختيار موقع جديد لنصب الخيام. وهذا الشيخ المسيحي هو زعيم مادَبا وصديق مقرّب لمؤلف هذا الكاتب.

الفصل الخامس

سلسلة جديدة من المحن

كان قدومنا إلى الكَرَك سبباً لسلسلة من المنغصّات على مدى عدة أيام، فالطلبات التعجيزية للزعماء الجشعين سبّبت لنا الكثير من المضايقات. أما الحكومة التركية فلم تكن لديها السلطة والنفوذ في تلك المنطقة، ولم يكن لدينا من نعوّل عليه لطلب المساعدة. حتى الشيخ الحاكم لم يكن قادراً على ضبط أولاده الكثر أو الآخرين ممن يعدّون أنفسهم من ذوي الشأن.

وفي الوقت المحدّد قاموا بإحضار حقائبنا، لكننا اكتشفنا بأن بعض الحقائب كانت قد تعرّضت للعبث بها والعديد من الأشياء قد فُقدت. اتخذنا مكان إقامتنا في غرفة مساحتها حوالي عشرين قدماً مربعاً، نصفها تحت الأرض؛ ولم يكن هناك لا نافذة ولا مدفأة، والمنفذ الوحيد كان الباب. أما الموقد فكان في وسط الأرض الطينية، وكان لا بدّ للدخان أن يخرج قدر المستطاع، وإذا ما كانت هنالك ريح معاكسة تحول دون خروج الدخان من الباب، فقد كنا نخرج نحن عوضاً عنه، بأعينٍ حمراءَ دامعة ورئاتٍ عابقةٍ بالدخان.

لم يكن لدينا أيّة حيلة في صدّ المتطفلين والفضوليين الكثر ممّن كانوا يتوافدون لاستطلاع حقيقة هؤلاء القادمين الجدد، والطريقة الوحيدة لنخلو بأنفسنا كانت إغلاق الباب وقفله، والانزواء في ما يشبه العتمة.

وجدنا هنالك مدرسة للتلاميذ الصغار كانت تحت إدارة من كانوا قبلنا. والعديد

من الصبية كانوا يتحدثون الإنكليزية بشكل جيد، وأصبحوا على درجة كبيرة من الرقيّ والتحضر. عُهد إلي بأحد هؤلاء الصبية ليعمل لدي بصفة مترجم؛ وقد تمكنت بمساعدته واجتهادي ومواظبتي من اكتساب معرفة عملية باللغة العربية. كان وقتي في خلال الأسابيع القليلة الأولى مقسماً بين عيادة المرضى الذين كانوا يتحلقون عند بابي، والقيام ببعض الإصلاحات لبيتنا البدائي. فصُنعت الطاولات والكراسي والخزائن من صناديق الأمتعة، وأحمد الله أني كنت على دراية بكيفية استخدام بعض الأدوات الحرفية. كان العرب معجبين بما أقوم به، وكانوا يمضون الساعات الطوال في مراقبتي. وشيئاً فشيئاً أصبحتُ بالنسبة لهم المعلم الذي يجيد كل المهن وكانوا يكنّون لي كل الاحترام والتقدير.

إحدى تجاربي السابقة منحتني تقديراً مميزاً بين الرجال الذين باتوا يتجنبونني كشخص يُرهب جانبه. كنت ماراً في إحدى أزقة مؤاب الضيقة عندما تناهى إلى سمعي بعض الصرخات. استدرت لأستبين الأمر، ثم ولجت إلى داخل دار مضاء بشكل خافت، حيث رأيت رجلاً يمسك به أربعة أو خمسة أشخاص في محاولة منهم لتثبيته أرضاً، وكان أحدهم يعالج أمراً ما داخل فم ذلك الشخص. عند قدومي عليهم توقف الرجال لبرهة؛ وبعد استفساري عما كانوا يفعلونه، أخبروني بأن الرجل الممدّد على الأرض كان يعاني من ألم مبرح في أسنانه ونصحه أحدهم بالتوجه إلى الحداد لاقتلاع السن المنخورة. وعندما سألته لماذا كان يصرخ على هذا النحو، أجاب «لأن الرجل الذي كان يمسك بالكماشة أطبق على العديد من أسنانه وجزء من لسانه وبدأ بالشدّ». اقترحت عليه أن أقدم له خدمة أفضل من الحداد؛ فغضب الحداد من كلامي لأن ذلك يعني خسارته لبعض القمح الذي من المفروض أن يُدفع له لقاء ذلك.

نجح اقتراحي، ويمّم الرجل المتألم شطر داري ينتظر عودتي. وعندما وصلت وجدت حشداً كبيراً من المنتظرين الذين قدموا ليروا ماذا يمكن فعله للرجل المتألم من سنه. أمسكت بالمبضع الذي تفحصه جميع الحاضرين. وكان المريض خائفاً خشية أن أخفق في إنجاز ما كان الحداد بصدد إنجازه. طلب مني إثبات أن بإمكاني

اقتلاع السن المعطوبة؛ فعرضت عليه زجاجة فيها بعض الأسنان، وأكدت له أن مافعلته للآخرين بإمكاني عمله له. استسلم لي، وخلال دقائق قليلة كان الألم قد زال.

أمسك بالسن المقلوعة وانطلق بها خارج الغرفة، ثم قذف بها ناحية الشمس مخاطباً إياها: «يا شمس، خذي سنّ الحمار وأعطني سنّ الغزال». ثم التفت إلي طالباً مني تركيب سن جديدة مكان السن المقلوعة. أخبرته أن من المستحيل أن أفعل ذلك، فانطلق ممتناً وخائباً في آن. ذاع صيتي بين الناس، وسرعان ما بتّ أجري من العلميات الجراحية بقدر ما أستطيع، الأمر الذي عزّز من ثقة الناس بي، وبات أولئك الذين كانوا يناصبونني العداء من أعزّ أصدقائي. كانوا يأتونني بكل ما يخطر على البال لإصلاحه: الأحذية والأواني الخشبية وسروج الدواب والصناديق، حيث كنت أصلحها لهم بقدر ما أوتيت من قدرة ومهارة.

في فترة الظهيرة كنت أعكف على تعليم الصبية اللغة الإنكليزية لمدة ساعة؛ وأعتقد بأنني تعلمت منهم العربية أكثر مما تعلموا مني الإنكليزية، ولكن تلك الساعة التي كنا نمضيها معاً كانت تعود بالمنفعة المتبادلة على الطرفين.

كنت في أغلب الأحيان أذهب إلى بعض مضارب البدو لعيادة بعض المرضى أو المصابين في القتال. ولا شك بأن إحدى تجاربي الأولى في أحد مضارب البدو ستكون محطّ اهتمام القارئ. سمعنا بأن قتالاً ضارياً كان قد نشب بين بعض أبناء الكَرَك من العرب وأبناء قبيلة مجاورة، وهي من القبائل المشهورة بشراستها وجسارتها. كانت حصيلة هذا الاشتباك ثمانية قتلى، جيء بهم في اليوم التالي إلى المدينة ليدفنوا فيها. وسمعنا بأن هنالك العديد من الجرحى، وأن جراح ثلاثة منهم كانت بالغة الخطورة.

وفي اليوم التالي حضر رجلان إلى دارنا يسألون إذا كان بإمكاني إعطاؤهم دواءً ليأخذوه إلى الجرحى المستلقين في أحد المخيمات بعيداً في السهول. وفي الوقت نفسه حضر رجل ومعه رسالة تقول بأن الشيخ الموجود في المدينة يطلب رؤيتي على الفور. ذهبت إليه بصحبة مترجمي الصغير، فوجدته مع العديد من أبنائه والزعماء الأدنى مرتبة جالسين يعقدون اجتماعاً على سطح أحد الدّور. صافحتُهم فرداً فرداً

ثم أخذت مكاني بجانب الزعيم. المرة الأخيرة التي جمعتني بهم في مجلسهم كانت في ظروف مختلفة. كنت آنذاك أسيرهم في بيت الشعر، ولكني اليوم ضيفهم، بدعوة منهم. خاطبني الشيخ الكبير قائلاً: «أتمنى عليك أن تذهب إلى تلك المضارب لمداواة الجرحى». كان المكان يبعد حوالي خمس ساعات ركوباً عن المدينة، ولكنهم أخبروني بأنه قريب جداً. قال لي الزعيم بأنه يجب علي أن أذهب بصحبة من يحميني من التدخلات والتطفلات، وقال بأنه سيقدّم لي حصاناً لركوبي. أخبرته بأني سأذهب، وسأكون مستعداً في غضون نصف ساعة. كان على غلامي محمّد أن يرافقني لمهام الترجمة.

وبعد تناول بعض الطعام، حيث أن المسز فوردر كانت قد أعدّت لي وجبة سريعة بينما كنت أحزم لوازمي من العقاقير والأدوات والتي قدّرتُ بأني سأحتاج إليها أكثر من غيرها، يممت شطر المدينة.

في غضون دقائق أحضروا لي حصاناً وبغلاً لغلامي، حيث انطلقنا برفقة رجلين تبدو عليهما ملامح القسوة والخشونة، ونحن عازمون تماماً على العودة في صباح اليوم التالي. كان الطريق طويلاً ومرهقاً جداً فوق التلال وأعلى الجبال وأسفل الوديان العميقة وعبر سهول لا نهاية لها، إلى أن وصلنا قبيل المغيب إلى مضارب خيام تضم حوالي تسعين خيمة أسفل الوادي. حال ترجلي عن حصاني تنفستُ الصعداء، حيث بات بوسعي أن أمدد ساقَيْ، ولكني كنت متلهفاً لأعمل ما أستطيع فعله لمداواة هؤلاء الجرحى وتسكين آلامهم قبل حلول الظلام. سألنا عن مكانهم، وسألنا أيضا عن الرجل ذي الجراح الأكثر خطورة.

أُخذت إلى خيمة كبيرة بداخلها رجل ممدّد مصاب بتسع جراح من بنادق ورماح وسيوف وخناجر، وكان واضحاً بالنسبة لي بأنني أحتاج إلى خبرة جرّاح كامل الأهلية للقيام بالمهمة التي أُلقيت على عاتقي. وأثناء معاينتي للرجل ومشاهدتي للجراح الناجمة عن ضربات السيوف البالغ طول بعضها حوالي ستة إنشات، وإصابات الطلقات النارية، ارتعشتُ وارتجفت مثل ورقة الشجر، ولكني، مستلهماً الرشاد

والعزيمة من ربّ السّموات والأرض كي يعينني على أداء هذه المهمة، شرعت في تعقيم وتقطيب وتضميد الجراح الواحد تلو الأخر، إلى أن باتت حالة الرجل المسكين أفضل قليلاً من ذي قبل. وقد كنت طوال ذلك الوقت محاطاً بسبعين أو ثمانين رجلاً وامرأة وهم ينظرون بدهشة للطريقة التي كنت أرتق فيها الجروح المفتوحة.

ثم طلبت رؤية الرجل التالي؛ وعلى الرغم من حلول الظلام، فقد أخبرتهم بأني أرغب في معالجة الرجال الثلاثة ذوي الجراح الأكثر خطورة. ولكنهم سرعان ما أخبروني بوجود اثنين وعشرين رجلاً على شاكلة الرجل الذي عالجتُه للتو. لذلك، وبعد أن بذلت ما بوسعي لمداواة ثلاثة منهم، عدت إلى مريضي الأول وطلبتُ بعض الطعام. قالوا لي بأنه يتوجب علي أن أبيت في هذه الخيمة، ومن ثم باشروا في تحضير بعض الخبز من أجلي ومن أجل الصبي، وهو عبارة عن أرغفة كبيرة رقيقة لذيذة جداً. وقدّموا لنا ثلاث بيضات لتناولها مع الخبز. طلبتُ ماءً لعلي أستطيع أن أصنع بعض الشاي؛ لكن ما أحضروه لي كان أقرب إلى الوحل منه إلى الماء، ولم أتمكن من استخدامه. ثم حضر رجل ومعه بعض حليب الغنم، فشربناه بتلذذ، وكانت تلك وجبة عشائنا.

بينما كنا متحلّقين حول النار طلبتُ من غلامي أن يسألهم عما إذا كان بإمكاننا أن نقرأ لهم شيئاً من كتاب الله، فوافق البعض منهم على اقتراحي. وحيث أنه كان بحوزتي النسخة العربية لسفر التثنية وسفر متى، فقد طلبت من محمّد أن يقرأ عليهم الوصايا العشر، وتمتمتُ أنا ببعض الكلمات لمشاركتهم في ذلك. بعضهم كان مصغياً، أما البقية فكانوا يضحكون ويهزؤون منا.

كانت الخيمة تضم الخليط الاعتيادي من العرب، وكان حرياً بالزوار أن يتصرفوا وكأنهم من أهل البيت وسط كل هذا الحشد، فالنزلاء في خيمتنا كانوا خليطاً من رجال ونساء وأطفال وماعز وجداء وحملان وكلاب وجراء وحمارين وثلاث بقرات وعجل واحد وحصانين وبغل وأعداد لا حصر لها من الدجاج.

لعلك ستخمّن الآن أنه وفي خضم كل هذه الضوضاء المنبعثة عن هذا الخليط

الغريب العجيب من الأشياء، لم أولِ كبير اهتمام لهذا الموقف من الاستخفاف والسخرية، وهنالك خارج الخيمة المئات من رؤوس الماعز والخراف تسهم في إضفاء المزيد على ذلك الصخب والضجيج في الداخل. وحوالي الساعة الثامنة سألني صاحب الخيمة إن كان لدي رغبة في النوم؛ وبما أنني كنت في حالة يرثى لها من التعب والإعياء، فقد أجبته بـ «نعم». وهكذا مدّ لنا بساطاً رقيقاً فوق بعض الأوراق والأعشاب الجافة وطلب إليّ النوم فوقه. وبعد أن تلوتُ بعض الصلوات الصامتة لله كي يحمينا من كل مكروه، استلقينا أنا ومحمّد من دون غطاء حيث حاولنا أن نخلد للنوم، لكن آهات وسعال الرجل المريض والقهقهات والصيحات القوية والصاخبة الصادرة عن الرجال والنساء والحيوانات المختلفة الموجودة في الداخل والخارج، جعلت النوم بالنسبة لنا ضرباً من المستحيل. لكني في النهاية أسلست قيادي مرغماً لنوم عميق غافلاً عما يجري من حولي، إلى أن استفقت فجأة على شخص يهزّني محاولاً إيقاظي.

فتحت عيني لأرى الرجل المصاب مستعيناً في وقوفه على عدة رجال، وعندما أيقظت مترجمي لاستيضاح الأمر تبين بأن الرجل كان يشعر بالألم وأنه بحاجة إلى بعض المسكنات.

كانوا يعتقدون أن من الأفضل له أن يمشي قليلاً. أعدتُه إلى سريره بسرعة، وأفهمتهم بأنهم سوف يقتلونه بهذه الطريقة، ثم أعطيته جرعة منوم. ومرة أخرى استلقيت وحاولت أن أخلد للنوم، لكن الرياح الباردة كانت تعصف بقوة كبيرة إلى درجة أنها كادت تحمل معها الخيمة. وعندما شعرت أخيراً برغبة في النوم أحسست باهتزازات ورعشات تقضّ مضجعي. نهضت لأستطلع الأمر، فوجدت بأن المطر كان يهطل على شكل سيول منهمرة وبدأ يتسرّب إلي، فتكونت بركة في نفس المكان الذي كنت راقداً فيه. أمضيت الهزيع الأخير من الليل قابعاً قرب النار مصغياً لصوت الريح والمطر؛ وحالماً بالدفء والأمان في دارنا المتواضع في الكَرَك.

وأخيراً بزغ نور النهار، ولكن دون أيّة تطورات ذات شأن. وبعد أن تناولنا بعضاً من

الخبز وشـربنا بعضاً من الحليـب، أفصحت لهم عن رغبتي بالذهـاب لعيادة الجرحى الآخريـن. لا أجـرؤ علـى محاولة وصـف الحالة المزرية جـداً التـي كان عليها هؤلاء المسـاكين؛ حيـث أن كل واحد منهم كان بحاجة إلى عناية ورعاية أفضل مستشـفيات العالـم. ومـع ذلك، فقـد قيّضني الله لمسـاعدتهم. كنـت أطهّر وأرتـق وأضمد جراح الجميـع برفـق؛ والبعـض منهـم كان ممتنـاً لي جداً إلـى درجة أنـه قـام بتقبيلي مرات ومـرات، وقدّمـت لي بعـض الأمهات والزوجـات الزبيب والخوخ المجفف وأشـياء أخرى للأكل.

مـع انتهائي مـن عملي توقف هطول المطـر وطلبت منهم أن يعيدونـي إلى مدينتي كما هو متفق عليه، ولكن أحداً لم يحرّك ساكناً للذهاب معنا، فقلت لهم بأنني سأنطلق سـيراً على الأقدام. قالوا جميعهم بأنه يتوجب علي البقاء حتى يتحسّن حال الجرحى، وأنهـم لـن يدعوني أرحل عـن الخيام. أكدوا لي بأن شـيخنا هو مـن أخبرهم بوجوب بقائي لعشـرة أيام؛ لكنها كانت كذبة، وأكدت لهم بأنها كذلك. وبعد ذلك عاود المطر هطولـه الغزيـر مرة أخرى وانطلقنا أنا وفتاي صوب التلة، في طريقنا نحو الكَرَك سـيراً علـى الأقـدام. وعندما وصلنـا أعلى التلة كان هناك حوالي عشـرين رجـلاً قد خرجوا فـي إثرنا، حيث أخـذوا الصبي مني؛ وبعد ذلـك أثبت أحد هؤلاء الرجـال بأنه صديقٌ مخلص حين خلع عباءته وألقاها علي ليقيني وطأة المطر، ثم أقدم ثلاثة أو أربعة رجال منهـم على حملي معهم عائدين بي إلى الخيام، حيـث وضعوني في الخيمة التي كنت قد نمت فيها الليلة الماضية.

كانت هذه الخيمة عبارة عن ملجأ بائس، وقد بدا للرجل الذي ألبسـني عباءته بأني لم أكن على ما يرام، لذلك أخذني إلى تلة أخرى، حيث قدمنا على أكثر من اثنتي عشرة خيمـة فـي مضرب الخيام التي كان يسـكن فـي إحداها. وهنا مدّ لي الكثير من البسـط لأسـتلقي عليها، ثم طلب من امرأته أن تضرم النار لتدفئتي وتجفيف ملابسـي المبللة. وبعـد ذلك سـألني ماذا أرغب مـن أنواع الطعام؛ هل يذبحون خروفـاً أم عنزة أم حملاً أم جدياً؟ كان مسـتعداً لأن يطهو لي أيّ شـيء يخطر على بالي. فطلبت دجاجة وقليلاً

مـن الملـح والبصل فأحضروها لي بسـرعة. نظفـت الدجاجة وطهوتهـا على طريقتي الخاصـة بدون أيّ تدخل مـن أبناء المنطقة. أعدوا لي أيضاً بعـض الخبز، وتكفلت أنا ومحمّـد بإعـداد وجبة محترمة تليـق بهم، قدّم لنـا بعدها أصدقاؤنا العـرب القهوة مع السـكر والحليب. اكتشـفنا لاحقاً بأن هذا الرجل سـبق له أن عاش في دمشق وبيروت وأنه اكتسب بعضاً من عادات الأوروپيين وتصرفاتهم.

وبعـد أن انتهينا من تنـاول الطعام قمنا بعيادة المرضى ذوي الحالات الأكثر سـوءاً وطيبنـا خاطرهم. تبينت في أثناء عيادتي لأحدهـم أن أنفه كان مجدوعاً بالكامل، وقد عمـدت أمه إلـى إحضار العضو المجـدوع كي أعيـد خياطته مرة أخرى، فلم أسـتطع الامتثـال لطلبها، علـى الرغم من توسـلاتها. كان الليل قد أرخى سـدوله وكنت قرب النار مسـتمتعاً غاية الاسـتمتاع بالدفء والراحة. سألتهم إن كان بوسعي أن أتلو عليهم شيئاً من كتاب الله، فوافقوا؛ ثم شرع غلامي بالقراءة حيث شرحت لهم الوصايا العشر وبعضـاً مـن الآيات من وصايـا القديس متى، فكانوا علـى غاية من الاهتمـام بما يُتلى عليهم. وبعدها بدؤوا يسـألونني عن مواضيع شـتى: كم من المال توجّب علي أن أدفع مهراً لزوجتي؟ أين سيفي وخنجري وبندقيتي ورمحي؟ فأجبت عن السؤال الأول بأن «الإنكليز لا يشـرون نسـاءهم بالمال» وعن الأسـئلة الأخرى، قلت لهم بأن الله أقوى من الإنسان وهو الموكل بحمايتي.

لـم يتمكنوا من اسـتيعاب ذلك، وعرض علي أحدهم أن يعطيني مسدسه. ثم تتالت الأسـئلة عـن الملكة؛ وسـألوني «فيمـا إذا كان الناس في بلدي يعيشـون فـي مثل هذه الخيـام الرائعـة»، فأخبرتهم بأننا نعيش فـي بيوت كبيرة وجميلة، الأمر الذي اسـتحوذ على اهتمامهم.

بـدأ النعـاس في وقت متأخر مـن الليل يدغـدغ أجفاني، فأخلدت للنـوم إلى بزوغ الفجـر. وبعد أن أفطرنا على بعض الخبز والحليب، تهيأنا للتحرك نحو الكَرَك. بحثت عن صديقي العربي، لكنه كان قد مضى بعيداً مع القطيع. بعد ذلك حضر رجل حسـن الملبـس وسـأل إن كان بإمكانـي أن أذهب معه لعيادة شـقيقه وتطبيـب جروحه، وهو

سيتكفل بأمر ذهابنا إلى الكَرَك، فوافقت، ثم نفّذت ما طلبه مني. وبعدها بحثت عن الرجل، لكنني لم أعثر له على أثر. ثلاث مرات لقيت فيها ذات المعاملة. لذلك فقد قررت الرحيل، حيث أن الطقس كان يعد بيوم جميل. مرة أخرى صعدنا قمة التلة وخرج في إثرنا حوالي ثلاثين أو أربعين رجلاً يصيحون علينا طالبين منا العودة، ثم حاولوا إرغامنا على ذلك. وفي غمرة الهرج والمرج ظهر صديقي العربي على غير انتظار، وأعتقد بأن الله قد أرسله لي في تلك اللحظة، حيث عمد وبسرعة إلى تفريق الذئاب الشرسة عنا وقال بأنه سيتولى إيصالنا إلى المدينة. وحيث أنه كان قد استعاد للتو عافيته من هجمة حمى كانت قد ألمّت به من فترة وجيزة، فقد قال بأن عليه أن يعود إلى الخيام لإحضار حصانه، تاركاً عباءته وغليونه وجزمته ولباس رأسه كضمان لعودته، ثم مضى.

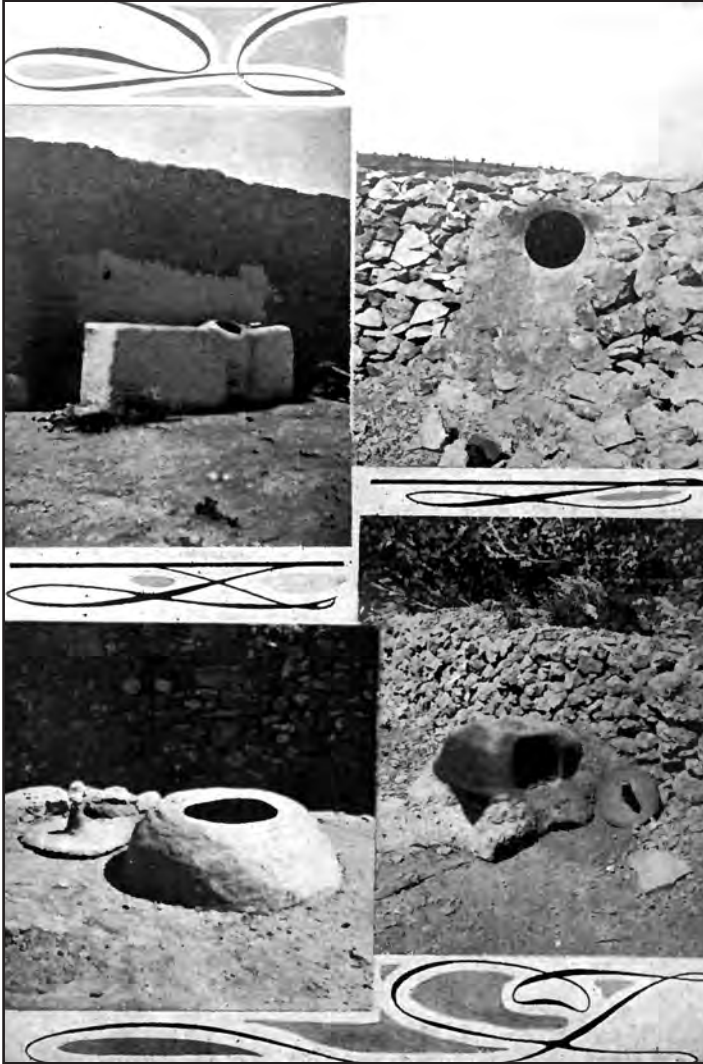
وفي غضون ربع ساعة عاد إلينا ومن ثم انطلقنا إلى الكَرَك. وبعد حوالي ثلاث ساعات من السير فوق الأرض المحروثة والعشب الناعم وصلنا إلى موقع يشرف على القلعة القديمة في الكَرَك، ولكن ما زال أمامنا ساعتان لنصلها. قال غلامي: «انظر أيها المستر فوردر، إنها القلعة، أنا في غاية الابتهاج!» وأنا كذلك كنت في غاية الابتهاج، ثم شرعت أترنّم بخشوع حقيقي بالنشيد الجميل الذي يقول في مطلعه:

عندما يعتلي المسافر المتعب

صهوة التلال المشرفة

يرتعش قلبه حبوراً لمرأى بيته عبر السهول الفسيحة

على الرغم من أن بلوغه لم يحن بعد



الأفران المستعملة لدى العرب

هذه الأفران التي صنعتها النساء وتقسّت تحت أشعة الشمس، تؤدي وظيفتها بشكل جيد. يُستعمل العشب الجاف والقش والمخلفات العضوية والأغصان المقطوعة كوقود لهذه الأفران الطينية، وحالما تغدو حرارتها مناسبة، تبقى موقدة لوقت طويل. يستغرق بناء هذه الأفران أياماً عدة، لكن هدمها وتكسيرها يتم بسهولة.

مشـينا بتثاقل، ومررنا فـي طريقنا بضبعين وبعض الثعالب، وحوالي السـاعة الثالثة عصـراً وصلنـا إلـى الكَرَك. لقد شـكلت عودتنـا مبعث الكثيـر من الهـرج والمرج في المدينـة بـكل معنى الكلمة، فقـد غمر الجميـع السـعادة لرؤيتي ثانية. وهكـذا أنهيت زيارتـي إلى أحد مضارب الخيام العربية بدعوة من أهلها. على الرغم من كونها تجربة قاسية ومريرة إلى حد ما، إلا أنها كانت تجربة يمكن أن أنظر إليها الآن بكل سرور. إنه لشرف لي أن يسخّرني الله لخدمة أولئك البسطاء الفقراء!



الفصل السادس

المحن والشدائد تحيل الأعداء أصدقاء

كانت الشـهور السـتة الأولى من حياتي بين العرب قد مرّت بسرعة، ووثقت بشكل جيد بأولئك الذين سبق أن أسديت لهم خدماتي بكل سرور، وكان هنالك بكل وضوح شعور أكثر تفاؤلاً حيال المهمة التي أقوم بها، لا سيما من جانب أولئك الذين كانوا قد ناصبوا مهمتي العداء منذ البداية.

غادر السيد والسيدة ليثاباي Lethaby الكَرَك بعد أسبوعين من وصولنا إليها، وذهبا إلـى إنكلترا لقضاء إجازة مسـتحقة. لم يعد السـيد ليثاباي أبداً، وعـادت زوجته بحزن كبير لأخذ بعض من أغراضهما، حيث أن الأحداث الحزينة والغامضة منعت مؤسسي تلك الإرسـالية التبشيرية من العودة إليها، وعُهد إليّ للاستمرار بإدارة شؤونها. بفضل مساندة زوجتي التي كان العرب يحبّونها ويتفانون في خدمتها، كنت أعمل من شروق الشمس حتى المساء، أساعد الناس وأعلم الصبية.

في صباح يوم السبت السابع من مايو من عام 1892، بعد دخولنا إلى مؤاب بثمانية أشهر فقط، وافى زوجتي الأجل على نحو غير متوقع داخل دارنا.

دون أيّـة أعراض مرضيـة، ومن غير أية كلمة وداع، اسـتُدعيت زوجتي من الأرض إلـى السـماء. انفطر قلب العـرب حزناً عليها، وأظهـروا تجاهي تعاطفـاً كبيراً في تلك الأيام المليئة بالكآبة والأسـى. انتشرت الأخبار الحزينة بسرعة، وقبل غروب الشمس كان العديد من زعمائنا قد حضروا إلى المدينة. اتفقنا على مواراة زوجتي الثرى صباح

يـوم الأحد. وفي وقت مبكر جداً من اليـوم الموعود، حمل زعماء مؤاب إلى الضريح جثمان أول سـيدة نذرت حياتها لخدمة بدو مؤاب. كان هؤلاء الأشخاص بالذات من أسَـرنا قبل أشهر قليلة عندما دخلنا أرضهم، أما الآن فهم يذرفون الدموع وهم يوارون الجسـد مثواه الأخير. بعد التشـييع حضر هؤلاء الرجال قائلين: «يجب أن لا تفكر أبداً بتـرك بلادنـا، فبعد أن وارينا جثمان زوجتك الثرى في وسـط بلادنا، أصبحت من أبناء البلـد؛ ونحـن الآن أخوة، فـلا تتركنا وتمضي بعيـداً». لقد أصبح الأعـداء أصدقاء من خلال سلسـلة مـن المحن والشـدائد، التـي قدّرها الله لحكمـة أرادهـا دون أن ندرك كنهها.

كان أقرب مركز بريد بالنسـبة إلينا يبعد حوالي مئة ميل، وكان من الضروري لي أن أذهب لإرسـال الأخبار الحزينة إلى وطني، فانطلقت في اليوم نفسـه يرافقني اثنان من أولاد الشيخ، حيث رافقوني إلى حدود منطقتهم.

وبعـد ثمانيـة أيام عدت والتقيت مرة أخرى ببعض من شـيوخنا، حيث أصرّوا على ذهابـي إلى خيامهـم، وهو مافعلتـه. ذبحوا لي خروفـاً وصنعوا لي القهـوة وقدّموا لي الهدايـا مـن حليب وبيـض وخبز وأشـياء مختلفة عديـدة وعاملوني بأحسـن ما تكون المعاملـة. وقد نمت في خيمة الشـيخ، حيث انطلقت باكراً في صبـاح اليوم التالي إلى المدينة يرافقني اثنان من الشيوخ الشباب، حيث أوصلوني إلى بيتي بأمان.

وصلـت أنبـاء رجوعي إلى المدينة حيث خـرج كل واحد من منزلـه للترحيب بي، وهـرع تلاميذنـا وطلابي في صف اللغـة الإنكليزية للقائي واسـتقبالي. كانت وجبات الطعام قد أُعدّت في العديد من البيوت وانهالت علي الهدايا بشتى أنواعها، من أطعمة وفواكه وأشـياء أخرى. ويا له من استقبال مختلف كلياً عن ذاك الذي لقيته قبل أقل من سـنة، ومن ذلك الحين تحسّـنت الأحوال وباتت محن كثيرة فـي ذمة الماضي. رفيقي الوحيـد وزميلـي في العمل في تلك الأيـام كان امرأة إنكليزية سـبقتني إلى الكَرَك قبل سـنتين؛ وهي مثلـي تماماً، كوّنـت العديد من الصداقـات بين العرب إلـى أن أرغمتها الظروف على التقاعد وعدم العودة إلى مجال التبشير مرة أخرى.

لعلّ رسالتي الأولى إلى وطني فور عودتي تعطي تفسيراً ما حول كيفية قضائي لوقتي وكيفية تكويني لمزيد من الصداقات؛ تقول الرسالة في أحد جوانبها:

«والآن يجب أن أخبرك كم أنا مشغول منذ عودتي وكم من الأحداث المرعبة حصلت هناك. الأربعاء الماضي، في الخامس والعشرين من الشهر، جرى قتال بين أبناء قبيلة المجالي Mujellies وأبناء قبيلة الصخور The Skour المجاورة، حيث قتل أخَوان اثنان من أبناء الشيخ خليل بوحشية. لكنهما لم يُقتلا أثناء القتال المشروع، بل جرى أسرهما وقتلهما بطريقة همجية. هذان الاثنان كانا من خيرة أصدقائنا في قبيلة المجالي، لذلك، فهي بالنسبة لنا خسارة كبيرة بالفعل، فقد كانا شابين طيبين ومحترمين من قبل أبناء الكَرَك. إضافة إلى هذين الشابين، قتل اثنان من أبناء الشيوخ واثنان من أبناء الكَرَك أيضاً.

وما إن وصلت الأخبار السيئة إلى المدينة صباح الخميس حتى بدأ الرجال والنساء والأطفال بالنواح والعويل؛ حتى الرجال الأشداء لم يتمالكوا أنفسهم من البكاء بمرارة وحرقة كالأطفال حزناً على الضحايا. وبعد ساعتين عادت الجثث محمّلة على ثلاثة جمال؛ كان منظراً لا ينسى، ونحيب النساء لا يمكن وصفه. وقفت إلى جانبهم في أثناء غسل الجثامين وشاهدت كل الجراح؛ لقد كان مشهداً رهيباً، ولم يسبق لي أن شاهدت مثل هذه المجزرة الهائلة ولا أرغب أبداً برؤيتها مرة أخرى.

في غمرة هذه الإجراءات والطقوس الجنائزية أُمرت بأن أذهب على الفور إلى الخيام لعيادة رجل جريح، وهو ابن أحد الشيوخ، من الرجال القساة الأشداء.

رفضت في البداية، حيث أن مجرد ولد صغير كان سيرافقني في هذه المهمّة، والبلد كانت في حالة من الاضطراب والفوضى نظراً لتجرؤ أبناء قبيلة الصخور Skour على انتهاك حرمة أراضي الكَرَك؛ بعدها قال الشيخ: «تريّث حتى الصباح، وأنا سأذهب معك بنفسي».

انطلقنا عند السادسة من صباح اليوم التالي، آخذين معنا مقادير كبيرة من الأدوية

وغيرهـا. وبعـد أربع سـاعات مـن المسـير وصلنا إلى مضـرب الخيـام حيث وجدت الرجل المسـكين مصاباً بإصابات بليغة، فعمـدت على الفور إلى رتق الجراح الناجمة عن ضربات الرمح والسـيف، الأمر الذي خفف من آلامه ومعاناته إلى حدّ كبير. وعند العصر قدم الزعيم الشيخ الذي فقد ولديه من المدينة برفقة بقية الشيوخ؛ لقد فعلوا كل ما بوسعهم من أجل راحتي، فذبحوا لي خروفاً وقدّموا لي الكثير من القهوة والحليب. بتُّ معهم تلك الليلة، وفي اليوم التالي عدت إلى المدينة لإحضار المزيد من الأدوية. هؤلاء هم آل المجالي الذين عاملوا السيد والسيدة ليثاباي بكل قسوة، قد أقسموا الآن علـى عهد صداقة أبدية، ولدي اعتقاد راسـخ بأنهم لن يمسّـوا شـعرة من رؤوسـنا. أنا مسرور لأن الله سخّرني لخدمة هؤلاء الناس والمثابرة على الدعاء لهم، لاسيما وأنهم قـد يقبلـون بالمُخلّص[1]، فهم شـاركونا أحزاننا وعلينـا أن نكون معهم وقت الشـدّة. ولهذا القصد فأنا مغادر في غضون ساعة أو ساعتين.

كنا قد حزمنا أمرنا على أن نقضي يوم أحد هادئ. كان الصبية قد حضروا وغادروا، وكنـت أعـزف لحناً على أُرغني الصغير قبيل صلاة قصيرة عندما أطل رأسـان من فوق البوابـة. ولـدى الاستفسـار، طُلب إلـي أن أذهب لعيـادة أحد الجرحى ممـن تعرّضوا لإصابات بليغة في خيمة تبعد حوالي مسـيرة سـاعة ونصف. كان الرجل قد أصيب في أثناء قتال نشب مؤخراً وحُمل على جمل إلى أقرب مسافة ممكنة.

مجـرد شـعوري بأني ألبّي نـداء الواجب حتّم علـي أن أنحّي رغباتـي جانباً، وعلى الرغـم من أنني كنـت متعباً جداً جـرّاء عمل اليوميـن الماضيين، فقـد حزمت حقائبي وانطلقـت، لأجد الرجل في حالة مروّعة، وهي أسـوأ حالـة صادفتها حتى الآن. كانت ذراعه مصابة فوق المرفق بجراح بليغة غائرة وكان علي أن أرتق الجرح بخمس قطب، إضافة لقطبتين لجرح في منطقة الذقن وأخرى في صدره واثنتان في ظهره.

وبعـد سـاعتين من العمل بالضمـادات والشـريط اللاصق بات الرجل فـي وضع مريح أكثـر. وبعـد أن تناولت بعضـاً من البيض والخبز، عـدتُ مرة أخرى إلى بيتنـا الذي وصلته

(1) يا لسذاجة هذا الفوردر، حاول الكثير لكنه عاد بخفيّ حُنين.

بعيد الساعة الثالثة عصراً وأنا في حالة من التعب والإعياء. كان علي أن أعود ذلك الرجل عدة مرات قبل أن أتركه تحت رعاية أهله وجماعته. لو أمكنني أن أقرأ وأشرح الكتاب المقدّس للناس بلغتهم، لحظيت بالعديد من الفرص لفعل ذلك، لكن مهمتي في الوقت الحاضر كانت مقتصرة على عملي كوكيل إعلانات لإرسالية الكَرَك التبشيرية.

في أوقات فراغي كنت أطالع بعض العربية، وعندما كانت تسنح لي الفرصة كنت أتدرّب على القراءة مع الأولاد في المدرسة. كنت أبلي بلاءً حسناً بالمحادثة، ولكن إحراز تقدم في اللغة المكتوبة كان دونه بعض الصعوبات. لم يكد يمضي أسبوع حتى دُعيت للتوجّه إلى إحدى القرى لعيادة بعض المرضى والجرحى. بفضل الهواء الطلق والحياة البسيطة التي كانوا يعيشونها، فقد تعافى مرضاي بشكل عام، وقد كان العرب من الفطنة والنباهة بما فيه الكفاية لإدراك أن وجودي بينهم كان في صالحهم أكثر مما هو ضارّ لهم.

هيأت الزيارات المتكررة لقبائل العرب وإقامتي في خيامهم لي فرصة عظيمة للتعرف إليهم ودراسة حياتهم اليومية وعاداتهم. وشيئاً فشيئاً أصبحت معتاداً على شظف هذه الحياة وقسوتها، وألِفتُ أيّ طعام يُقدّم لي تقريباً، شريطة ألا أنظر إليه أثناء إعداده.

قضيت العديد من الليالي المؤرّقة في بيوت الشعر، وغالباً ما كان يؤرق أجفاني النباح الأجشّ للكلاب الغاضبة في أثناء تصدّيها لبعض الوحوش الدخيلة المصرّة على مهاجمة القطعان. لقد حرمني النحيب المتواصل للنساء على مقتل زوج إحداهن من النوم والراحة على مدى ليالي عديدة، وكذلك الآهات والأنات المتوترة المنبعثة عن آلة الرّبابة التي كان يعزف عليها أحد الرجال والذي كان مكلفاً بالمراقبة والتنبيه إلى أيّ خطر بالهجوم على الخيام أو القطعان.

ومن خلال ظروف كهذه أصبح لدي أصدقاء، حيث خدمني بعضهم بتفانٍ وإخلاص خلال رحلتي المتعبة والخطرة، حتى أنهم خاطروا بحياتهم في سبيل حماية حياتي؛ لكننا سنرجئ الحديث عن هذه الأمور إلى فصل آخر.



الفصل السابع

أوقات شاقة في أماكن متعبة

بعـد وصولي إلى مؤاب ومعرفتي التدريجية بالعرب فـي المدينة والخيام، نجحت المهمّـة بمـا فيه الكفاية لتشـجيعنا على تجربة أشـياء جديدة في طريقـة البناء، فالعمل الطبي والمدرسـي لـم يكن مُرضياً كما يجب، ونحـن نقوم به في أروقة ودهاليز دورنا، وإذا ما أردنا لهذا العمل أن يسير على النحو الأمثل، علينا أن نقوم بشيء ما لتوفير أمكنة أكثـر ملاءمة لهذا العمـل، فالزيارة القصيرة إلـى إنكلترا مع لجنتنا بهدف الاستشـارة، أدّت إلى جمع تبرعات لا بأس بها تكفي لاستئجار الأرض وإقامة الأبنية بشكل أفضل بكثير من طرازها المألوف عند العرب والغائر عن مستوى الأرض.

أبنيتنا الجديدة كانت فوق مستوى سطح الأرض وفيها نوافذ وأبواب جيدة وخزائن جداريـة ذات رفوف، وغير ذلك من وسـائل الراحة المبتكـرة ذات المظهر الحضاري والتـي أثـارت اهتمـام العـرب. كان علي أن أقـوم بنفسـي بالكثير من أشـغال النجارة والطلاء وكنا بالفعل سعداء جداً عندما انتقلنا إلى أحيائنا الجديدة.



دار المستر فوردر في مؤاب

هـذه الصـورة تبين الدّار الأولى التي بنيت بالكامل فوق مسـتوى الأرض في الكَرَك. فبيوت العرب هي بيوت الخشـب الغائرة في الأرض ولا يوجد فيها شبابيك ولا مداخن. بنى مؤلف الكتاب هذا البيت وستة بيوت أخرى لأهداف تتعلق بالإرسالية التبشيرية. وهو يظهر في الصورة مستعداً للذهاب إلى بعض مضارب العرب. والمرأة الشابة الواقفة بجانب الباب كانت المعلمة في مدرسة الإرسالية التبشيرية لسنوات عديدة.

في أثناء عودتي إلى مؤاب، كانت الرحلة من القدس مشوّقة ومثيرة مرة أخرى، فقد عـادت أختي معي حيث كانت تجربتها الأولى والوحيدة في بيوت الشعر، وستروى القصة بلسانها كما دونت آنذاك:

«غادرنا القدس حوالي الساعة السابعة صباحاً ومعنا ثلاثة جمال وثلاثة أو أربعة حمير ورجلان، حيث استمرينا في السير حتى الحادية عشرة عندما وصلنا إلى أحد الخانات، فمكثنا هناك لنصف ساعة تقريباً. وبعد ذلك تابعنا مسيرنا عبر الجبال إلى أن وصلنا إلى أريحا حوالي الساعة الثالثة عصراً. كان الفندق مغلقاً لانتهاء الموسم، لذلك كان علينا أن نجلس خارجاً فيما يشبه فناء المزرعة مع الرجال والنساء والأطفال والحيوانات المنتشرين في أنحائها، وبعد استراحة قصيرة انطلقنا باتجاه نهر الأردن، حيث كان علينا في ذلك الوقت أن نعبر أرضاً سهلة. كان الجو حاراً جداً نظراً لوجودنا على مستوى البحر الميت. وعند الساعة السادسة مساءً كنا على ضفاف النهر، حيث كان مخالفاً لكل توقعاتي. فبدلاً من السهول والحقول الخضراء، لم أجد سوى الرمال، كشاطئ البحر تماماً، وعلى الجانبين كليهما كان هنالك الكثير من الناس والحيوانات بانتظار العبور. لم يكن هناك سوى مركب واحد فقط، يُسحب ويُجرّ بالحبال.

تمكنا من العبور عند حوالي الساعة السابعة مساءً نحن والصناديق والجمال والرجال في حمولة واحدة. شعرتُ بتعب شديد بعد الركوب الطويل، وحاولت أن آخذ لي قسطاً من النوم بعد أن شربت قليلاً من الشاي، ولكن أنّى لي ذلك، وسط كل ذلك الصخب والضجيج المنبعث من الحيوانات والرجال. وكان بين الحشود المئات من رؤوس الماعز؛ وقد تمكن أحد رجالنا من الحصول على كمية لا بأس بها من الحليب، تلذذنا بها حتى آخر قطرة.

كان القمر بدراً والرؤية واضحة، واستغربنا غاية الاستغراب رؤية ذلك العدد الكبير جداً من الرجال والحيوانات مستلقين في العراء، وكذلك النار الكبيرة المتأججة لإبعاد الحيوانات المتوحشة. وحوالي الساعة الثانية صباحاً أخبَرَنا الرجالُ بأنهم يريدون مواصلة السير؛ ونحن لم نكن متأسفين على ذلك، لأنه كان يتوجب علينا عبور سهل

الأردن قبل ضحى الغد. وعند الساعة السادسة كنا عند سفح الجبل من جهة الخلف، وعند ينابيع حشبون Heshbon أخرجتُ الإسفنجة والصابونة وجثوت على إحدى الصخور واستحممت في مياه النهر حماماً منعشاً للغاية.

تناولنا وجبة الطعام في هذا المكان، وبحلول الساعة الثامنة استأنفنا رحلتنا من جديد. واصلنا طريقنا صعوداً ونزولاً ونزولاً وصعوداً حتى ظننت بأننا لن ننتهي أبداً. أخبرنا بعض الرجال عند نهر الأردن بوجوب عدم الذهاب إلى مادَبا كونها ليست آمنة، وهكذا واصلنا مسيرنا حتى الساعة الحادية عشرة تقريباً، عندما وصلنا إلى بعض مضارب البدو. نزلنا هناك لأننا كنا مرهقين جداً من عناء المسير.

ذهبنا إلى خيامهم لأخذ قسط من الراحة، لكن ما لم يكن يطاق كان ضجيج النساء والرجال المنبعث عن أحاديثهم وثرثرتهم، وكان الجوّ حاراً إلى درجة لا تحتمل؛ والأسوأ من ذلك كان تحلق النساء والأطفال حولنا بكدرهم الذي يفوق الوصف. لا يمكنك أن تتخيّل أن هنالك بشراً يعيشون في مثل هذه الحالة. وبعد فترة وجدنا لنا مقيلاً عند طرف الخيمة، كان أفضل بكثير من الجلوس وسط الناس.

بقينا هنا طوال اليوم التالي، وعند الغروب بدأت النساء بصنع الخبز وإعداد العشاء، ثم رجعت قطعان الغنم والماعز من مراعيها فوق التلال حيث كانت ستُحلب جميعها؛ توازعت النسوة العمل فيما بينهن كل واحدة حسب اختصاصها. قدّمن لنا الكثير من الحليب الشهي، ولما أتى الرجال إلى البيت أضرموا النار، وتحلقنا جميعاً حول الطعام لنتناول عشاءنا من نفس الطبق. ومرة أخرى منعتنا الحيوانات من النوم، وعند حوالي الساعة الثانية قال رجالنا بأنهم مستعدون للذهاب، لذلك كان علينا النهوض والانطلاق مرة أخرى باتجاه ماعين Mien بدلاً من مادَبا، والتي وصلناها عند الساعة الثامنة صباحاً.

ذهبنا إلى منزل مدير المدرسة، وحالما دخلنا، تجمّع حولنا النساء والرجال والأطفال ينظرون إلينا بدهشة واستغراب. كانوا يجلسون على الأرض الطينية وهم ينفثون دخان سجائرهم.

قـدّم لنا المضيف بعض الخبز، وكان معنا علبة مربّى، وبذلك تناولنا طعام الإفطار؛ وكنت خلال هذا الوقت قد ألقيت نظرة عامة على الدّار.

كان المنـزل عبـارة عن قبو واسـع تحت مسـتوى الأرض، وغالباً ما كانت سـحب الغبـار الكثيف تتهاوى علينا من السـقف. كانت الغرفة صغيـرة ومعتمة، كما أن الباب كان صغيـراً وواطئـاً، والأثـاث الوحيـد الموجود كان عبـارة عن كومتيـن كبيرتين من الحجر المغطاة بملاط الطين من أحد الجانبين؛ فهذه كانت أسِرَّتهم، وبالطبع من دون بطانيـات أو ملاءات أو وسـائد. أمّا العائلة التي كانت مؤلفـة من الأب والأم وولدين، الأول بعمر اثنتي عشرة سنة تقريباً والثاني بعمر سنتين، فقد نامت على أحد السريرين، وأخي على السـرير الآخر. أفسـحت ليَ القـوسُ المقنطرة مجـالاً متواضعاً في إحدى الزاويـا للنوم فـوق صناديقنا الخشـبية بعـد أن وضعناها فوق بعضهـا البعض؛ فبعض الصناديق كانت أشبه بالسرير، وهكذا كان حالي أفضل من الآخرين.

الشـيء الوحيد المتحضّر الذي يمتلكونه كان إبريـق القهوة، بالإضافة إلى مقلاتين أو ثـلاث مـن المعدن، والتي كانت تسـتعمل لكل شـيء – فبالنسـبة لنا كنا نغسـل بها ونأكل منها. كانت عملية غسـل اليدين تتم ببسـاطة من خلال سـكب القليل من الماء علـى اليدين وتركه ينسـاب إلـى الأرض. قدموا لنـا الكثير من الخبز البلـدي المحلي وبعضـاً من العسـل في هذه الأوانـي المعدنية، حيث كان على كل منـا أن يجلس على جانب من الصناديق والمقلاة في الوسـط وأن نغمس الخبز فيها، وكان لهذه الحال أن تستمرّ أسبوعاً بحاله، نظراً لعدم وجود أحد من الرجال يأخذنا إلى الكَرَك.

بوسعك أن تتخيل كم كانت الأيام تبدو طويلة ومضجرة، حيث أنه لم يكن لدينا ما نقوم به. لم نكن نسـتطيع الخروج من البيت طوال النهار بسـبب الحرارة. وفي النهاية تعرفنـا إلـى رجـل وعد بأن يأخذنـا، ولكن كان على أخـي أن يدفع له مبلغـاً لا بأس به مـن المال نظـراً لمخاطر الطريـق. وعندما قدّرنا بأننا سـنبدأ الرحلـة وأن كل حوائجنا باتت جاهزة للتحميل، قبع الرجل في بيته لا يحرك ساكنا، زاعماً بأن الوقت لازال غير مناسـب للرحيل وأنه سـينطلق في الصباح. وبالطبع لم يكن بوسـعنا إلا الانتظار، وفي

النهاية بدأنا مسيرنا في اليوم التالي حوالي الساعة الثامنة.

انطلقنا قاصدين في البداية مضارب بني حَميدة Hameideh لاصطحاب مرشد يواصل معنا الرحلة. وصلنا المضارب حوالي الخامسة عصراً، وكنا متعبين جداً، ولكن لم نستطع أن نتخلص من تطفل وحشرية النساء والأطفال لبعض الوقت. فما أن تطأ قدماك الخيمة، يتحلّقون حولك على الفور تحلّق النّحل على قطعة الحلوى، هذا يتحسّس لباسي وحذائي وذاك يتلمّس وجهي، ليتحققوا ربما من أنني مخلوق على شاكلتهم من لحم ودم. عندما عادت العنزات إلى البيت أمكننا الحصول على بعض الحليب، وقاموا بذبح واحدة تكريماً لزيارتنا، ولكني لم أستطع لمسها. لقد جربت ذلك من قبل، وكان ذلك كافياً.

مرة أخرى منعتنا العنزات والحمير والجمال والبقر والخراف والكلاب وغيرها من الحصول على كفايتنا من النوم، وعندما غفونا قليلاً حوالي الساعة الثالثة، همَّ الرجالُ بالرحيل، فاستيقظنا وبدأنا من جديد. كان وادي الموجب Mojib أمامنا، لذا كان علينا أن «نقوي قلوبنا».. وهو تعبير محلي شائع.

من المستحيل أن أصف طبيعة المكان بحيث يتفهمه القارئ تماماً، فهو أشبه بتسلق جُرفٍ مهولٍ شاهق فيه من الصخور ما يكفي لبناء عدة مدن. اعتقدت بأننا وصلنا إلى القمة قبل ساعتين من وصولنا إياها. توقفنا لحوالي ساعتين عند جدول جبلي صغير وتفيأنا ظلال أشجار الدفلى الرائعة، فكانت لحظات لا توصف من الارتياح وسط هذا الجو القائظ الحرارة والصخور المبهرة البريق. انحدرت نزولاً لمسافة لابأس بها، فكان هذا أقصى ما يمكن أن أغامر بالقيام به على صهوة حصان في مثل هذا المكان المرعب.

أثناء عبوري أحد الممرات الجبلية الضيّقة جداً انزلق أحد الحمير، أو بالأحرى انهارت التربة من تحت قوائمه، فهوى الحيوان المسكين أسفل المنحدر لحوالي عشرين أو ثلاثين قدماً بحمله المكوّن من صندوقي المعدني وصندوق آخر وآلة الكمان خاصتي. وقفت وأنا أرتعش خوفاً على كماني، لكنها كانت تلة ترابية، هي

الوحيدة التي مررنا بها، لذلك فقد كانت الأضرار طفيفة. وصلنا القمة حوالي الساعة السابعة حيث وجدنا مضرب خيام مصنوعة من شعر الماعز، ومرة أخرى عانينا من تطفل وحشرية النساء والأطفال لبعض الوقت.

وبعد أن تناولنا كمية لابأس بها من الحليب وأخذنا لنا قسطاً لابأس به من الراحة لمدة أربع ساعات، انطلقنا في المرحلة الأخيرة من رحلتنا باتجاه الكَرَك، وكان طريقنا هذه المرة عبر أرض منبسطة.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما انطلقنا؛ ولم يكن مسيرنا في الظلام أمراً مريحاً أو محبذاً، لكن الراحة والطمأنينة باتت قاب قوسين أو أدنى منا، لذلك لم نأبه لذلك كثيراً. وصلنا مضارب قبيلة المجالي حوالي الساعة الثالثة صباحاً، ومررنا بها بأمان، حيث لاحت لنا الكَرَك لأول مرة عند الساعة السادسة صباحاً تقريباً. بدت جميلة جداً من أعلى التلة، ولكن كان علينا أن نهبط ونصعد قبل الوصول إليها. نزلنا بيُسر وسهولة، وكنا في منتصف الطريق عندما التقينا بشاب أبدى إعجابه الشديد بعقال أخي. كان عقالاً اشتراه من القُدس، فأراد الرجل منه أن يأخذ العقال القديم ويعطيه الجديد، فاحتجّ أخي على ذلك، لكن الرجل صمّم واستلّ خنجره مهدداً. تملّكني ذعر شديد، وفي سبيل تسكين روعي، سُمح للسارق بأخذ بغيته والمضيّ في طريقه.

كان أحد رجالنا قد سبقنا ليعلم الناس بقرب وصولنا، لذلك فقد هرع تلامذة المدارس يتسلقون الصخور لاستقبالنا. التقتنا الآنسة آرنولد Arnold عند عتبة دارها. وسرعان ما أحضر لنا الأهالي الهدايا؛ فقد حصلنا على ثلاثة وثلاثين بيضة وطائري دجاج على قيد الحياة ووعاء كبير من السَّمن الذي يشبه دهن الخنزير، وقرصي عسل بشهده وسمك من النهر والعديد من الأشياء الأخرى، بينما عمد صاحب الأرض إلى ذبح عنزة من أجلنا كقربان شكر لوصولنا بالسلامة».



بعد مكوثنا لبضعة أشهر في مؤاب، رافقت أختي في رحلة العودة إلى القدس.

لقـد أدّى الصـراع بين القبائل إلى إغلاق الطريق بيـن مادَبا وأريحا، لذا كان لا بدّ لنا أن نسـلك الطريـق حول الطرف الجنوبـي للبحر الميت وعبر الخليـل. كانت الرحلة عبر هـذا الطريـق الأخير تثير الخوف لسـببين، هما نـدرة المياه واحتمـال التعرض لهجوم مـن قبل قطاع الطرق، فالمناطق الجبلية والأماكن المهجورة أماكن مثالية جداً لتواجد اللصوص وقطاع الطرق.

سـافرنا بصحبة مجموعة من التجار، أغلبهم من سـكان الخليـل العائدين من قرى وسـهول مؤاب، حيث كانوا في رحلة تجارية إلى مناطق العرب، يقايضون مستلزمات الحيـاة الضروريـة بمنتجات محلية كالخـراف والماعز والتبغ وزيـت الزيتون والزبدة وأشياء أخرى مطلوبة بأسعار جيدة في أسواق الخليل والقدس.

ركبنـا فـي هذه الرحلة على ظهور الحمير، وكل الأمور سـارت علـى ما يُرام خلال الأيـام الثلاثـة أو الأربعـة الأولى، عندمـا بدأنا بمواجهة سلسـلة مـن المنغصات التي انتهـت بخسـارة بضائعنا ونجاتنا مـن الموت بأعجوبة. في وقـت مُبكر من صباح أحد الأيـام غادرنا مخيمنا بالقرب من الشـواطئ الغربية للبحـر الميت، وبدأنا رحلة صعود مرهقة عبر الجبال الشـاهقة؛ وعند حوالي السـاعة الثامنة توقفنـا لبعض الوقت لتناول وجبة الفطور، فحططنا الرحال وأنزلنا الأحمال، وبدأنا نتهيأ للاستراحة أسفل الجروف الصخرية هرباً من حرارة الشمس القائظة.

كنـا قد شـرعنا للتو بتنـاول وجبتنا المتواضعـة عندما أطل علينا اثنا عشـر رجلاً من وراء إحـدى التـلال القريبة. تهامس البعض منـا فيما بينهم بكلمة «حراميّة» واسـتولى الخوف على كل من في المجموعة. هبط اللصوص سفح التلة وسلاحهم في أيديهم، وعندمـا باتوا على مقربة منـا أمطرونا بوابل من الرّصاص، فجرحوا اثنين من جماعتنا، ثـم تـلا ذلك وابل مـن الحجارة التـي بعثرت رجالنا فـي جميع الاتجاهـات. وقبل أن نعـي ما حدث، عمد أحد الرجـال إلى تغطية أختي بعباءته الكبيـرة، ثم حملها وانطلق بها بعيداً. حملها إلى مسـافة لا بأس بها ومـن ثم وضعها في مغارة بين الصخور حيث كان يعرف بأنها سـتكون في منأى عن أيّ أذى. أخذت خروج السّـرج خاصتي وتبعته،

ولكـن أحد المهاجمين كان يطاردني وهو يصـرخ: «ألقِ بها أرضاً وإلا قتلتك». رميت الحقائب التي كنت أحملها، فاستلبها ومضى في سبيله تاركاً إياي ألحق بأختي، حيث وجدتها مخبأة في المغارة. لم تدرك أختي ما حدث، ولكنها اعتقدت بأن الرجال كانوا يصطادون وحوشاً برية.

بعد بعض الوقت، ولدى محاولتي معرفة ما كان يجري، تسللتُ إلى الخارج لأرى رجالنا واللصوص يختصمون ويتشـاجرون من أجل الغنائم والحيوانات. لمحني أحد اللصـوص فتقدّم مني ثم انتزع عباءتي وغطاء رأسـي وحذائـي، تاركاً إياي في قميصي القطنـي الـذي، لكونه مصنوعاً محلياً، تدلى حتى كعبيّ. سـلبوا منا كل وسـائل الراحة والبسط وبعضاً من ملابس أختي؛ ولكن الملابس تم استعادتها فيما بعد، لأن استلاب أشياء نسائية يعدّ بمثابة عار وأمر مشين، حتى في ثقافة الغزاة. طلبوا مني نقوداً، ولكني لـم أتمكن من تلبيـة طلبهم، حيث أنني لم أكن أحمل معي أية نقود. الرجل الذي كنتُ تحـت رحمته لمح في إصبعي خاتم الزواج الـذي يخص زوجتي الراحلة، فأصر على أخذه مني. وعندما تعذر عليه انتزاعه من إصبعي، استخدم خنجره، حيث كاد أن يقطع إصبعـي. ولمـا رأى زعيـم اللصوص ما كان يفعلـه الرجل، أوقفه قائـلًا: «لا تُرق دماء هذا النّصراني؛ دعه وشـأنه»، وهكذا نجوت من فقدان إصبعي وقدر كبير من المعاناة. قام اللصوص بتحميل الحيوانات وترحيلهم بعيداً ثم فرّوا عبر السـهول، آخذين معهم حقائب طعامنا وقرب مائنا وحيواناتنا وأغطيتنا. تبعتهم، أستجدي منهم حماراً لركوب أختـي وغطـاءً تدثر به ليلاً، فأعطوني كليهما. وبعدها ناشـدتهم من أجـل عباءتي التي أخذت مني، فهذا أمر مخالف للأعراف أن يسـتبقي الشـخص عباءة شـخص آخر لديه ليوم وليلة. (انظر xxii, xxvi, xxvii).

كان كل ما حصلت عليه من اللصوص كيس قديم، استخدمتُه للنوم وانسللت بداخله خلال الثلاث ليالي التالية التي قضيتها في العراء في تلال بريّة اليهوديّة تحت وطأة البرد والندى، والذي يعدّ ظاهرة متكررة في تلك الأنحاء. بخسـارتي لغطاء رأسـي وحذائي ولباسـي الخارجي، غدوت عرضة لحرارة الشـمس المحرقة نهاراً والرياح الباردة في

تلـك الليالـي المقمرة ليلاً. ولكن، في مثل هذه الظروف غير المواتية، شـعرت بتحقق الوعد: «لن تصيبك الشمس في النهار ولا القمر في الليل» (Ps. cxxi. 6).

بعـد ثلاثة أيام من السـفر المرهـق وصلنا كروم عنب وبسـاتين زيتون الخليل؛ ومع انبلاج الفجر قرعت على باب بيت أحد المبشرين، لكن مظهري الخارجي منع الخادمة من السّماح لي بالدخول. لا شك بأنها اعتقدت بأني متسوّل. لكن إلحاحي ومواظبتي علـى قرع الباب ومناداتـي على من في الداخل، جعلهم يدركـون أن وراء هذا الطارق أمراً جللاً. ثم تعرفوا إلى صوتي، وأخيراً سـمحوا لي بالدخول واسـتقبلوني اسـتقبالاً حـاراً. واصلـت في نفـس الليلة طريقي إلى القـدس، بملابس اقترضتُهـا من صديقي؛ كانـت أطرافي مكشـوفة تماماً بسـب قصر الملابس وضيقها، حيـث أنها كانت تخص شخصاً أقصر مني بكثير.

ألمّـت بي بُعيد الليلة التي أعقبت وصولي من المدينة المقدسـة آلام مبرّحة وحمّى شـديدة، وذلك بسـبب الإجهاد والتعرض للبرد والامتناع عن الأكل والشرب. غير أنّ الطبيب البارع السـيد ميريل[1] Merrill، وهو القنصل الأمريكي وصديق المحتاجين، أبـدى حيالـي كل تعاطف ومودّة في ذلـك الوقت، وبعون الله تعافيت سـريعاً وعدت مجدداً لخدمة هؤلاء الذين يعيشون في البيوت الحجرية وبيوت الشعر أيضاً.



تتضمّن الفصول التالية سـرداً لأحداث صعبة أخـرى في ظل ظروف عصيبة؛ وهي حاليـاً تفي بالغرض. سـوف ننظـر الآن إلى جانب أكثر تفاؤلاً وأكثر إشـراقاً من الحياة التي عشتها وقضيتها في خدمة أهل مؤاب والمناطق والمجاورة.

---

(1) سِلاه ميريل (1837–1909) قسّ پروتستانتي أميركي ومُربٍّ وعالم آثار يتبع الجمعيّة الأميركية لاستكشاف فلسطين American Palestine Exploration Society، كما كان ديپلوماسياً وشغل منصب قنصل الولايات المتحدة في القدس بين 1882–1885 ثم 1891–1893 ثم 1898–1907. قام بحفريات أثريّة في القدس الشريف في أسوار المدينة، وفي موقع الجُلجُلة فيها.



عصائب الذهب على رؤوس نساء العرب

تضع هذه المرأة حول رأسـها 115 قطعة من العملة المعدنية الثمينة كجزء من مهر زواجها. لا تشـاهد مثل هذه العصائب إلا في بضعة قرى فقط، وهم يعتبرون أيضاً أن من العيب أن تظهر المرأة نفسـها بما فيه الكفاية لكي تبدو في الصورة. قام المسـتر فوردر بزيارات متكررة للقرية التي تقطنها المرأة.

الفصل الثامن

تشجيع من مناطق غير متوقعة

سبق أن أوضحت بأن العمل الذي كرّست حياتي من أجله كان مشجعاً بما فيه الكفاية لحملنا على السعي نحو تأمين مقر أفضل نواصل فيه خدماتنا. لقد شدّ انتباهنا العديدُ من الأحداث السارّة التي ينبغي توثيقها، لعلَّ ذلك يحفّز الآخرين على المبادرة للقيام بمهام مماثلة، رغم المصاعب والمنغصات.

كنا مسرورين من أداء شقيقين صغيرين في مدرستنا الصغيرة، إلى درجة أننا لم نلق بالاً لمثل هذه الأشياء. كنت قد تغيّبت عن المنزل لبعض الوقت لعيادة بعض الجرحى في إحدى مضارب الخيام التي تبعد قليلاً عن محطتنا. لم يسمعوا عني أيّ خبر، إلى أن قدم رجل في صباح أحد الأيام إلى مدرستنا وأخبر الأولاد بأني قد قُتلت وأن جثتي ملقاة على الرّمل، دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منها. كان الخبر ملفّقاً، لأن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث قط لإطلاق مثل هذه الشائعة. كان الأولاد قلقين جداً على سلامتي ومنزعجين من الأخبار التي سمعوها عني. وعند انصرافهم من المدرسة كانوا مرتبكين جداً لاستماعهم لأهلهم وأقربائهم يناقشون هذه الإشاعة التي أمل الجميع بأن تكون كاذبة.

اثنان من التلامذة الصغار، لدى وصولهما إلى المنزل، إن كان لكلمة منزل أن تصف المكان الذي كانا يعيشان فيه، التقيا بأبيهما المتعصّب القاسي القلب والفظّ الذي حدثهما بالتفصيل عن أخبار الصباح، منهياً كلامه بالطلب إليهما ألا يركنا إلى

تعاليم المبشـرين حول العناية الإلهية أو التصديق بعيسـى على أنه ابن الله. لم يحاول الصغيران مناقشة أبيهما، لكنهما غابا عن الأنظار داخل القبو الموجود تحت الأرض. تسـاءل الأب عن سـبب دخولهما إلى هناك، لذا فقد لحق بهما حيث سـمعهما يقولان شـيئاً مـا من قبيـل: «لقد أتينا إلى هنـا كي نصلّي لله من أجل عودة مبشـرنا سـالماً إلى بيتـه، وإذا صلينـا يتوجب علينا أن نقول شـيئاً ما، فماذا نقول؟» وقـررا بأن صلاة الرّب هـي الصلاة الفضلى التي بوسـعهما تردادهـا. قال الولد الأكبر البالـغ من العمر ثماني سـنوات: «إذا لـم نتلُ الصـلاة بحرفيتها، نكون قد تلونا ما بوسـعنا تلاوتـه، والله أعلم بالقصد».

ثم أثقلت على عقليهما الفتيين معضلةٌ ثانية، وهي: «هل سيفهم الله لغتهما الصعبة، أم أن الإنكليزية سـتكون أسهل فهماً؟» وبعد لحظات قليلة من التشاور قرّرا بأن يصليا بلغتهما الأم، حيث سجدا على الأرض الرطبة المتسخة في ذلك القبو المعتم، مردّدين معاً كلمات: «أبانا الذي في السموات»؛ بدءاً بالإنكليزية أولاً، ثم بالعربية[1].

مـع انتهائهمـا من تـلاوة الصلاة غـادرا القبو حيث التقيـا أباهما مرة أخـرى، الذي وبّخهمـا وعنّفهما بقسـوة لتجرّئهما على الله. صعدا إلى سـطح المنزل وأخذا ينظران إلى المدينة. عند سـفح الجبل الشـاهق لاح لهما على البعد فارس فوق صهوة جواده. وما أن رأياه حتى هرع الصغيران باتجاه منزل الإرسالية التبشيرية. ولدى وصولهما إلى البوابـة، صرخـا بصوت لاهث: «إنـه آت، لقد رأيناه، لقد اسـتجاب الله دعاءنا، لذلك جئنـا لنخبركم». كان كل ذلـك صحيحاً. ففي الوقت الذي كان فيـه الولدان يتضرّعان إلـى الله فـي القبو، كنت قد عبرت سلسـلة الجبال التـي تحيط بتلك المدينـة العربية. فالفارس الذي شاهداه كان مبشرهما.

وعندمـا توجهـت نحو بوابـة بيتنا، لم يتمّ اسـتقبالي على الطريقة الشـرقية بالتطبيل والتزمير والتحيات الحارة، بل ببعض كلمات من مثل: «كنا على يقين من أنك سـتأتي قريباً، لأننا طلبنا من الله أن يردّك إلينا» فوجوه الأطفال الصغار الطافحة بالبشـر كانت

(1) رواية مختلقة بوضوح من فوردر، فمن أين أتى بكلّ هذه التفاصيل إلا من مخيّلته؟

تنمّ عن مدى سعادتهم.

هل يمكن للقارئ إلا أن يكون متحمّساً حيال بعض المواقف التي مرّت بي، كالموقف التالي؟ فبعد الاهتمام والرعاية التي أوليتها لأعداد كبيرة من الناس الذين أصيبوا بذلك المرض المخيف وهو الجدري، أصبتُ أنا به في النهاية. رقدتُ في الفراش عاجزاً وغائباً عن الوعي لمدة طويلة، وما فاقم من مخاوف وهواجس المحيطين بي أنني كنت في حالة من الهذيان والهلوسة. لم يكن هنالك أيّة وسائل مناسبة للراحة أو الاستطباب، إذ أنني كنت تحت رحمة شتى أنواع الأغذية وأساليب الطب العربي. بدأت شيئاً فشيئاً أستعيد وعيي وعافيتي، وكنت مسروراً ومتحمساً لأنهم أخبروني بأنه وخلال مرضي الطويل، تعهّد أربعة من العرب بالسهر على خدمتي، اثنان منهم خلال النهار، واثنان خلال الليل. لقد قاموا بكل وفاء وإخلاص بتأدية واجبهم بدافع الإيثار، رافضين أن يتقبلوا أيّ شيء على سبيل المكافأة أو التعويض. كان يأتيني في كل يوم أعداد من الرجال والنساء إلى مسكني المتواضع يستفسرون بأصوات هامسة عن حالتي، وعندما دخلتُ مرحلة الخطر لبعض الوقت، انتابهم الخوف والقلق والتمسوا السّماح لهم بالدخول. رفض القائمون على خدمتي طلبهم، فبادروهم بالقول: «لقد كان خير الصديق عندما كنا في أشد الضيق، في وقت نأى فيه الآخرون عنا خوفاً ووجلاً.

لذلك، دعنا ندخل ونلقي عليه نظرة عابرة؛ لن نتكلم معه ولن نحدث أيّة ضجة؛ نريد فقط أن نرى صديقنا». وفور تماثلي للشفاء توافد أهل البلد يهنئونني، والبعض كان يحمل معه كقربان شكر لله تعالى بعض الأرغفة والبيض والحليب، وآخرون قاموا بإحضار دجاجة أو بعض الحطب، في مبادرة منهم لإظهار العرفان بالجميل للمساعدة التي قدمتها لهم. وبالرغم من أن معظم الأشياء التي جاؤوني بها لي كانت غير مناسبة لشخص في مثل حالتي، في طور النقاهة، فقد شعرت بالتأثر والرغبة في تقديم المزيد من الخدمات للعاجزين وأبناء الفقراء والمحرومين.

وحالما حزت على تأييد وثقة الناس، وجدت بأن الوقت قد حان لإخبارهم عن

السبب الرئيس لوجودي بينهم. في كل صباح كان يحتشد عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال أمام بابي طلباً لمساعدة طبية أو جراحية، فرأيت بأن مثل هذه الفرصة لا ينبغي أن تفوّت للتبشير بالكتاب المقدّس، خاصة وأن معظم الناس كانوا غير قادرين على القراءة بمفردهم، وجميعهم كانوا جاهلين تماماً بفحوى الكتاب. بعضهم أتى مرة واحدة ولم يعد قط، ولولا الأنباء السارّة الأخيرة عن عودتي بالسلامة، لما سنحت لأيّ منهم فرصة لقائي مرة أخرى.

في صباح أحد الأيام قدمت الكتاب المقدّس قائلاً للناس بأنها رسالة الله أردت أن أسمعهم إياها. وبكل تبجيل وانتباه أنصتوا إلي وأنا أتلو عليهم آيات من العهد الجديد وأشرحها لهم. البعض منهم طرح علي عدداً من الأسئلة الذكية والمدهشة. الكثير منهم جاؤوا مراراً وتكراراً للاستماع فقط. في بعض الأحيان لم يكونوا راضين عن الجزء المختار للقراءة بسبب قصره وأهميته، لذلك كانوا يطلبون المزيد.

في صباح أحد الأيام شرعت قصداً بإعطاء الأدوية من دون أية قراءة أو حتى شرح عندما سمعت تعليقات من مثل: «لا قراءة اليوم! ماذا يعني ذلك؟» ثم قال أحدهم: «أنت لم تقرأ لنا هذا الصباح». فأجبته: «هل تريد أن تقرأ وتتعلم من رسالة الله؟»، فكان الجواب بالإجماع: «بالطبع نريد أن نسمعه؛ لا يوجد أحد سواك يقرأ لنا ويعلمنا مثل هذه الأشياء الجميلة، وعليك أن تواظب على ذلك، وإذا لم يكن لديك الوقت، سوف نتخلى عن الاستطباب ونستمع لقراءتك وحديثك».

كنت أعقد أيام الأحد اجتماعات صباحية للرجال، وكانوا يحضرون كل هذه الاجتماعات. لكن خلال مواسم الحراثة والحصاد لم يكن يحضر الكثير، لكن أحداً واحداً لم يكن يمرّ دون أن يأتي شخص ما لسماع القراءة والحديث.

استُدعيت في إحدى المرات لعيادة رجل مريض في بيته. وبعد أن انتهيت من علاجه، سألته إن كان يرغب في أن أقرأ له من كتاب الله، فوافق، وشرعت أقرأ وأخاطب الحاضرين في ذلك البيت المتواضع. وبعد أن انتهيت، قال أحد الحاضرين: «سيدي، لقد سمعتك تقرأ وتقول لنا بأننا يجب ألا نلعن أو نجعل من أسماء الله هزواً

مثلمـا نفعل، ولم أنـس ذلك؛ وكل يوم أحاول أن أكفّ عن هـذا الخطأ. كتابك يخبرنا بأشياء صالحة، وأريد أن أتمثل به وأفعل كما تعلمنا».

سنحت لي العديد من الفرص لإرسال نسخ من الكتاب المقدّس أو بعض الكتيّبات إلـى بعـض أنحاء المنطقة من التي تعذّر علينا بلوغها. كنـا دائماً نفعل ذلك، اعتقاداً منا بأن «كلمة الله لن تذهب هباءً، بل ستؤدي الهدف الذي أرسلت من أجله».

جاءنـي في أحد الأيام رجل قادماً من رحلة يومين. كان قد أصيب بكتفه ويريد مني أن أعالجـه. ونظراً لعدم وجود مكان أفضل، فقد سـمحنا له بالمبيت في رواق غرفتنا. لاحظنا أنه كان يصغي بانتباه إلى القراءة اليومية والتفسير، وأثناء مغادرته لنا طلب كتاباً يقرأه بنفسـه. قدّمنا له نسـخة من إنجيل يوحنا بالعربية، فكان من مبعث فخره واعتزازه أن يحوز على مثل هذه التحفة.

وبعد شهرين، عاد إلينا مرة أخرى، ولكن ليس لمزيد من المعالجة للعضو المصاب، بـل أتى طالباً نسـخة من الكتـاب المقدس. قال لـي: «لقد قرأت للناس فـي قريتي من الكتيّب الصغير الذي أعطيتني إياه، وقد أحبوه كثيراً، والآن أتيت أطلب منك كتاباً أكبر لكـي نقـرأ ونتعلم أكثر». مثل هـذه الأحداث جعلتني أؤمن بأن العديد من قرّاء رسـالة الله من شـتى أنحاء العالم الإسـلامي وأيضاً في البلاد التي زرتُها وبشّـرت فيها سوف تلتقـي علـى معرفه اللـه الواحد الحيّ الـذي لا يموت، لكن على جميع عبـاد الله، بما فيهم العرب، أن يتوبوا إلى خالقهم توبة نصوحاً»[1].

ألـم يكن أمراً مشـجعاً معرفة أن مجموعـة الصبية العرب الذيـن تعلموا الصلاة في مدرسـتنا كانوا يذكرونني يومياً عندما كانـت أخرج إلى بدو الصحراء؟ ولو كان هؤلاء الأكثر نضجاً على صعيد السـّن والمعرفـة على ذات القدر من الإخلاص في تأييد هذا المبشـر فـي بلاد الله الواسـعة بالدعاء والصلاة، لشـدوا من أزر العديد مـن أمثال هذا

(1) يتوبون عن ماذا؟ من الواضح تماماً أن فوردر الذي يجهل تماماً فحوى رسالة الإسلام، وتاريخه وتعاليمه وفكره وفلسفته وعلومه الشرعيّة والطبيعيّة، وعظمة ريادته في مسيرة الإنسانيّة جمعاء، قد صدّق نفسه بأنّ هذه الكتيّبات التي يحملها بإمكانها أن تنافس الطود الإسلامي الشامخ!

الرجل المكافح، وأنسوه شعوره بأنه وحيد في هذا العمل! ألم يكن أمراً مشجعاً حقيقة أن العربـي الـذي لا يأتمن أعز أصدقائه أو أقرب الناس إليه على أيّ مبلغ من المال، أو أيّ شـيء ثميـن، يأتي إلي من تلقاء نفسـه ليأتمنني على أيّة مبالـغ كائنة ما كانت، حتى بدون التفكير بطلب إيصال أو ضمانة من أيّ نوع كان؟

بالتأكيد كانت مسألة عرفان بالجميل، وثمّة موقف مفعم بالتشجيع عندما نشب قتال بين أبناء الكَرَك والعسكر التركي، حيث كان الرجال الذين عرفتهم منذ سنوات يقتلون أمام عيني. كانت زوجاتهم وأولادهم يلجؤون إلينا مسـتنجدين وطالبين الحماية؛ فقد كانـوا يشـعرون أنهم بأمان تام في حمانا؛ وبعدها، عندمـا كان يتوجب عليهم المغادرة مـن أجل أعمالهم في البسـاتين والحقول، كانـوا يودعون لدينـا مجوهراتهم وحليّهم القليلـة لحفظها وحمايتها. وفي النهاية، وعندما شـاعت الأخبار حول رحيلي، جاؤوا وتوسـلوا إلينا للبقاء معهم للأبد وأنه لا يوجد لديهم أحد سـوانا لمسـاعدتهم في حل مشـكلاتهم، مهدّدين بمنعنا من الرحيل. ولتفادي مثل هذا المنع، عمدنا إلى الانطلاق عند الفجر.

لم تكن السنوات التالية خالية من الإشارات المشجعة؛ ففي أحد الأيام جاءنا شاب عربـي إلـى بيتنا فـي القدس، زاعماً بأن عليـه أن يحضر أباه إلينا لعلاجـه، وأنه جاء من مسـافة بعيـدة تزيد عن مئـة ميل، مبرهنـاً أن درجة الإيمان بوسـائلنا وطرقنـا كانت قد نجمت عن حياتنا وعملنا في مؤاب. ألم يكن هناك موجب لسرورنا وبهجتنا عندما آثر أكبـر زعمـاء مؤاب، الذي كان قد فقد اثنين من أبنائه في يوم واحد، أن يكرّس وقته من أجل راحتنا وسرورنا، بدلاً من أن يكون وسط أهله وأقاربه يشاركهم عويلهم ونواحهم في هذه المناسبة؟

لقد كان ذلك الرجل أحد هؤلاء الذين تسبّبوا بأسري ودفع فدية لقاء إطلاق سراحي عندما دخلت مؤاب أول مرة.

لا يمكـن للروايـة حول رحلتـي إلى جزيرة العـرب، الموجودة فـي فصول أخرى، أن تُقـرأ دون النظر إلى ما وراء السـطور، الأمر الذي يشـجعنا كثيـراً على المضي قدماً

فـي رسـالتنا، حيث أن رغبة الناس في شـراء الكتب المقدسـة[1] واللطـف الذي أبداه حيالنـا أصحاب المراتب العاليـة، وأخيراً وليس آخراً، العنايـة الإلهية اليقظة واللطيفة والرحيمة، التي ما فتئت تذكرني بأن «الله غالبٌ على أمره» وبقوله تعالى: «سيمجّدني عبادي في الأرض»، تحثنا على ذلك. ولو أن أيّ عامل، سـواء في الوطن أو في مجال خارجـي، قـرأ تلك الصفحات وهو يائس، فليقطع على نفسـه تلك الوعـود التي لا بدّ سـتتحقق ويتقـدم إلـى الأمام، واضعـاً نصب عينيه بـأن «الطوبى» ليسـت وعد العامل المجد والناجح، وإنما وعد الخادم المخلص الطيب الذي سيحوز على رضا ربه.

كنت أسـير في الشـارع المسمى بـ «المستقيم» في دمشـق عندما اعترضني رجل لا أذكـر أنـي رأيتُه من قبل. تفاجأ الرجل لأني لم أتذكره وقال لي: «لقد تعهّدتني بالسـهر والرعاية على صحتي بعيداً في معسكرات مؤاب حيث كنت مصاباً في عنقي، وعندما غـادرت إلى بلدي وأهلي أعطيتني أحد كتبك. لقد قرأناه جميعاً وأحببناه كثيراً». وقبل مغادرته طلب مني الذهاب إليهم وإخبارهم عن ديننا.



(1) إن صدق فوردر في مزاعمه هذه، فلا بدّ أن يكون السبب ندرة الكتب عموماً آنذاك.



خيمة بدوية

هذا هو مسكن البدوي المسمى «بيت الشعر». هذه الخيام متينة جداً وثقيلة الوزن وتدوم لسنوات عديدة. الأطراف مشدودة إلى القمة بأوتاد خشبية يبلغ طولها حوالي ستة إنشات. وهي منسوجة ومحبوكة بإحكام، ولذا فمن النادر أن يخترقها الماء.



مخاضات نهر أرنون في مؤاب

هذا النهر الضحل حوض وادٍ عميق جداً ينتهي عند شواطئ البحر الميت. إنه يقسم أرض أهل أرنون وأهل مؤاب. وقد تكرر ذكر هذا المكان في التوراة. بعد الأمطار الغزيرة يغدو هذا الجدول الصغير نهراً جارفاً لا يمكن اجتيازه.

الفصل التاسع

في تنافس مع الأطباء المحليين

إن العمل التبشيري بمختلف أشكاله وفي أيّ مكان يكون دائماً مصحوباً بفترات من الإحباط وخيبات الأمل. تلك الفترات من الإحباط المقدّرة من عند الله لا حول للإنسان ولا قوة بها، لكن الجميع يقرّ بحصول مثل هذه الحالات، وقد تكون أحياناً نعمة غير ظاهرة لا ندرك كُنهها في اللحظة الحاضرة. ومن دون أن نمر بمثل هذه المحن في حياتنا، فإننا قد نقع في إثم «الكِبَر» أو «الغرور» من خلال أيّ نجاح صغير نحققه في عملنا، وبذلك فإن وجود شيء من الإحباط ممكن أن يذكرنا أحياناً بنصيحة الرّب بأنه «ليس بالقوة ولا بالسلطان يتحقق النجاح، وإنما بحول الله وقوته». ومرة أخرى يمكن أن يعلمنا الإحباط دروساً كثيرة ويخوّلنا لاكتساب خبرات قيّمة، لولا الإحباط لما كنا اكتسبناها. بالتالي فإن الإحباط الآنيَّ يمكن أن يفضي إلى نعمة دائمة، ليس للأفراد فقط، وإنما للمجتمعات أيضاً، حيث أنك تجد في مناطق نيويورك النائية العديد من الأمور المحبطة في أوساط الغافلين والغرباء.

الفكرة المعششة في عقل العربي هي أنك متواجد بينهم لمصالح ومنافع شخصية، وليس لمنفعتهم. حاكم الأمة الذي تمثله يرسلك إليهم ويدفع لك المبالغ الطائلة لتبقى بين أقوام غلاظٍ شداد لا يمتّون إلى الحضارة والمدنية بصلة، أو كما أخبروني، فإنه لا بدّ لي في أغلب الأحيان من أن أكون قد قتلت أحداً ما أو ارتكبت جريمة كبرى حتى أرتحِل عن وطني وأعيش بين العرب. مثل هذه الآراء من أولئك الذين تسعى

لخدمتهم تشكل مبعث إحباط كبير وتثبيط العزيمة، وليس العكس، وأحياناً ينزع المرء لترك هؤلاء الناس لتخيلاتهم السخيفة والذهاب إلى مكان آخر.

من بين حالات الإحباط الشديد التي عانيت منها، تلك التي مررت بها في أثناء عملي مع الفريق الطبي في الكَرَك، فعلى الرغم من أن العرب هناك كانوا مستعدين بما فيه الكفاية للجوء إلينا وقت الحاجة، فقد كنا نواجه صعوبة في حملهم على التذرّع بالصبر لبعض الوقت ريثما تظهر نتائج العلاج. إذ كان المفروض بإجراءاتنا الطبية والجراحية أن تعطي نتائج فورية على المريض، وكأنها لمسة نبيّ، وإلا فلا يحتاج المريض إلا إلى القليل من الإقناع كي يتخلى عن فكرة المعالجة من أساسها ويلجأ إلى إحدى العلاجات البلدية أو الشعبية التي قد تقترحها عليه إحدى النسوة في الجوار.

لقد كان الطبيب المحلي أو العربي يمثل أكبر عقبة في طريقنا، لأنه كان بلا شك غيوراً على مهنته.

وبالرغم من أن المواطنين أقرّوا بأن طريقتنا هي الأفضل وأن أدويتنا هي الأكثر فعالية، فقد كانوا يفضلون أحياناً أن يدفعوا للدجالين المحليين أتعاباً باهظة لبعض العلاجات والعقاقير الموضعية البدائية والمؤلمة، مفضلين إياها على علاجاتنا المجّانية غير المجربة والبطيئة المفعول.

لم يكونوا قادرين على إدراك وجوب تناول بعض الدواء والعقاقير عن طريق الفم لعلاج صداع أو ألم في الرأس. لماذا لا نتصرف كما يتصرف الطبيب الشعبي ونستخدم المكواة المُحمّاة أو كأس الحجامة على موضع الألم لإزالته؟ ما نفع السوائل التي نتناولها كدواء إذا ما كانت الحمى في جسم الإنسان أمراً عصياً على الفهم. فالكيّ بالنار وفصد الدّم أو الحجامة، مع بعض العقاقير الخطيرة، هي علاجات لكل الأوجاع عند العرب. وإذا قمت بغسل الجرح وتعريضه للهواء أو تجفيفه فهذا ضرب من جنون، بل حتى خطيئة، من جانبي. فهم سوف يضعون عليه جبيرة أو ضماداً مكوناً من بعض القاذورات ويمنعون عنه الهواء، وبذلك يزيدون الطين بلة. ومن النادر أن تتاح للمريض فرصة للراحة والهدوء، بل على العكس من ذلك، إذ سرعان ما تغدو غرفة

المريض أو خيمته محجّة للرجال والنساء والأطفال الذين يشكلون مصدراً للكثير من الصخب والضجة. أعرف العديد من الأشخاص الذين كان بوسعهم البقاء على قيد الحياة لو أنهم استجابوا لنصيحتي، وتحضرني باستمرار إحدى الحالات على وجه الخصوص، حتى أثناء الكتابة.

فعند ظهيرة أحد الأيام، وفي أثناء تناولي لوجبة طعامي، أتاني أحدهم راكضاً إلى غرفتي وهو يلهث صارخاً «تعال – اركض – أسرع؛ هناك رجل يتخبّط بدمه في الخارج!».. قفزت وأخذت حقيبة الطوارئ وتبعت الرسول دون معطف أو سترة. كان هنالك في أقصى المدينة رجل ملقى في وسط الطريق بين حشد من الناس وسط بركة من الدماء. فقد هاجمه شخص من الخلف طلباً للثأر، حيث كانت بطنه مبقورة وأمعاؤه ناتئة خارج البطن. جلست أعمل بمفردي، دون أن يتجرأ أحد على التدخل، خشية أن يموت هذا الشخص المسكين وتقع عليهم الملامة. ثم عمدت إلى تقطيب الجرح البليغ الغائر بحذر شديد، بعد أن أعدت الأجزاء الناتئة من الأمعاء إلى مكانها. وقد أبلى الشخص المصاب بلاءً حسناً وتجاوز عتبة الخطر. وفور انتهائي من عملي، حملوه على بساط إلى بيت قريب، حيث كان من المفروض أن يبقى هناك. أقنعت الرجال بالابتعاد عنه وتركه ينام ويهدأ، وحيث أنني أعطيته بعض المسكنات، فقد وعدتهم بالعودة خلال ساعة من الزمن للاطمئنان إلى حاله.

عندما رجعت، وجدت الدار مقفلة. ولدى استفساري عن الأمر، أخبرني البعض بأن أصحاب البيت قد خرجوا إلى خيامهم بعد أن أعانوا الرجل الجريح على الوقوف والانتقال إلى منزل آخر.

وعندما قصدت المنزل المذكور وجدت المكان مكتظاً بالخلق وصاحبنا المسكين في غاية من التعب والإعياء، ومع ذلك فقد كان محافظاً على بقائه مستيقظاً ليتكلم مع هؤلاء الأصدقاء المزعومين. عنّفتهم بشدة، آمراً إياهم بالخروج فوراً، مقرراً البقاء معه بنفسي.

سرعان ما أخلد إلى النوم ورقد بهدوء لساعتين؛ ولدى استيقاظه تركته في عهدة إحدى النساء وتوجّهت إلى بيت آخر، واعداً إياه بالعودة، وربما نقله إلى غرفتي كي

يلقى رعاية جيدة. وعندما رجعت عند المغيب، دُهِشتُ لعدم وجود مريضي في البيت الـذي تركتـه فيه. فأخبرتني المرأة ببرود شـديد قائلة: «لقد خشـينا أن يموت، ولا نريد لذلك أن يحدث في بيتنا. ستجده في بيت آخر».

انطلقت أبحث عنه ووجدته من جديد، ولكن حاله كانت متردّية إلى درجة لا تسمح بتحريكه. أخبروني أنه لم يكن قادراً على السير، لذلك فقد وضعوه على حمار. وجدت بأن هذا المسـكين كان منهكاً للغاية، فمكثت معه إلى أن مات بعد ثلاث سـاعات. لقد صـدق من قال بـأن «أماكن الأرض المظلمة مليئة بمواطن القسـوة». رجعت إلى بيتي محبطاً يائساً، ولكني تعلمت درساً لا يُنسى.

في مناسـبة أخرى جرى اسـتدعائي لعيادة شـاب يعاني من حرارة شـديدة. كان الطبيب المحلـي والمـرأة قد فعلا ما بوسـعهما، ولكن من دون جدوى. ذهبت واسـتمعت لكل ما لديهـم، ثـم أخبرتهم بوجوب الكف عـن معالجته، كيما أقوم بما أسـتطيع القيام به. وافقوا على طلبي، وسار كل شيء على ما يرام لبضعة أيام، لكن المريض لم يتعافَ تماماً كما كانوا يتوقعون. وفي صباح أحد الأيام ذهبت كالمعتاد، ولكنهم استقبلوني استقبالاً بارداً.

خمّنـت أن مكروهـاً مـا قد حـدث، لذلـك، أعطيتهم الـدواء وغـادرت. وبعد فترة قصيرة عدت وفاجأتهم بزيارة غير متوقعة، وقبل أن أصل إلى الباب سمعت صرخات الألم، لذا تريثت لدقيقة ثم تسللت خلسة صوب الباب واختلست نظرة إلى ما بداخله، فرأيـت مريضـي ممسـوكاً من قبل ثلاثة أو أربعـة رجال، بينما عكف آخـرون على كيِّهِ بحديدةٍ محمّاة على عموده الفقري كانت تجعله يصرخ من الألم. كان الرجال والنساء منهمكين جداً في فعلتهم القاسية لدرجة أنهم لم يتنبهوا إلى وجودي، وعندما تكلمت، فوجئـوا بوجـودي، لكنهم لـم يخجلوا من فعلتهـم، وكانت حجتهـم أن «لديه ألماً في ظهـره، ونحن نحاول إزالته». تركتهم لبضعة أيـام، ثم عدت إليهم مرة أخرى لمعالجة ظهره والحمّى، حيث تعافى الشاب وظل ممتناً لي على الدوام.

وفي مناسـبة أخرى أحضروا لي طفلاً رضيعاً لعلاجه «لأنه كان يبكي»؛ كانوا قد أعطوه شـيئاً مـا، لإرضاء الأم أكثر من أيّ شـيء آخر – لأن من عادة الأطفـال الصغار البكاء – ثم

مضوا لحالهم، ولم نسمع عنهم شيئاً بعد ذلك. وبعد بضعة أيام كنت في خيام شيخنا، فطلبوا مني عيادة طفلٍ رضيع كانوا قد أحضروه إلي. لدى كشفي على الطفل، وجدت فتحة الشرج متسلّخة ومسودّة. وعندما سألتهم عما فعلوه به حتى وصل إلى هذه الحالة، أجابوا «كان يبكي، لذلك دلكناه بالمرهم الذي كنتَ قد أعطيتَه للشيخ ليدهن به ركبته، لكنه لم ينفع». قبل وقت مضى، كنت أعطيت الشيخ مرهم اليود لركبته المتورمة، فاعتقدوا أن ما هو مفيد لذلك مفيد لبكاء الرضيع. لا حاجة للقول بأن قبراً صغيراً كان نتيجة مثل هذه المعالجة المتهوّرة. كان لهذه الحادثة تأثير مفيد بالنسبة لي، فقد ثنت همّتي عن إعطاء الأدوية أو العقاقير إلى مثل هؤلاء، ممن يجهلون كيفية استعمالها.

تجربة مماثلة مع عائلة أخرى جعلت صبرنا ينفد بعد أن فعلنا ما بوسعنا لخدمتهم. فقد كان هناك رجل ينظف مسدسه المُعمَّر مع ابنته الصغيرة البالغة من العمر سبع سنوات الجالسة بجانبه عندما خرجت طلقة فجأة مخترقة فخذ الفتاة الصغيرة. استنجدوا بنا، ولبّيناهم بكل طيب خاطر حيث كلفنا إحدى مساعداتنا بعيادتها مرتين يومياً لتضميد الجرح وتقديم كل ماهو ضروري للفتاة الصغيرة. وفي صباح أحد الأيام ذهبت كالمعتاد لتغيير الضمادات، ولكن زيارة العصر أظهرت حالة مختلفة، حيث أنها وجدت بأن كل الضمادات الجديدة كانت قد انتزعت، ووضع بدلاً منها لصوقاً من نفايات مختلفة تثير الاشمئزاز. كانت إحدى النسوة المفترض بأنها على قدر من الذكاء والفطنة، قد أسدت لهم هذه النصيحة مقابل مبلغ من المال.

تحدثنا مع الأهل بشأن فعلتهم الحمقاء، ولكن من دون جدوى. وبصبر وأناة قمنا بنزع لصاقة القذارة ونظفنا مكان الجرح، ثم ضمّدناه مرة أخرى. على مدى بضعة أيام سار كل شيء على ما يرام، قبل أن ينقلب كل شيء رأساً على عقب. فقد تم إقحام عظمة إصبع داخل الجرح، حيث أنه من المفروض أن تتسبب بشفاء إعجازي، الأمر الذي سبب للطفلة الصغيرة ألماً مبرحاً واضطررنا إلى فتح الجرح مرة أخرى. وهنا أيضا ذهبت كل جهود الرعاية والعناية بالمريض على مدى الأسابيع الماضية أدراج الرياح. كانت الحجة «بأن الطبيب المحلي قال بأنه يوجد دم وقيح داخل الجرح

وعليـه أن يخرجـه»، فصدقوه وتصرفوا وفقـاً لذلك. لقد كنا محبطين جـداً لدرجة أننا رفضنـا أن نعالـج هذه الحالة مرة أخرى، إلا إذا دفعوا لنا مقابل الضمادات والمشـاكل التـي سـببوها؛ ولكن الطفلة أصبحـت عرجاء نتيجة ذلك الهجوم علـى الجرح بعظمة السلامية. سنكتفي بذكر حالة واحدة أخرى، وهي على الرغم من كونها محبطة ومثبطة، فقد أفضت بنا لكسـب بعض الصداقات الحميمة في النهاية من بين هؤلاء الذين كانوا يشـكلون بالنسـبة لنا مصدر المعاناة والعرقلة الأكبر. كان شـيوخنا قد ذهبوا في حملة غزو، وأثناء إحدى المناوشـات أصيب الابن الأكبر لشيخنا وولي عهده لزعامة القبيلة إصابة بليغة في رأسه، حيث تعرّضت فروة رأسه لجرح غائر نتيجة ضربة بالسيف.

جرى استدعائي لرؤية المصاب في خيمته في مضرب الخيام التي تبعد عن الكَرَك حوالي ثلاث ساعات ركوباً، حيث وجدت جرحاً مقززاً محشواً عن آخره بمسحوق البن والطحين «لإبعاد البرودة»، فبدا وكأنه جبيرة من الإسـمنت. ولكني تمكنت بشـيء من الصبر والتأني مـن إزالتهـا بالتدريج، الأمر الذي جوبه باعتراض المشـاهدين المهتميـن. وبعد أن انتهيت مما تمكنت من فعله خلال الأيام القليلة من وجودي هناك، كان بوسـعي في نهاية المطاف أن أترك المريض، واعداً إياهم بالعودة في اليوم الثالث للاطمئنان عليه. وعدوني بأنهم لن يتدخلوا بأي شكل من الأشكال بالضمادات التي وضعتها.

وفـي صباح اليوم الثالث خرجت في جو عاصـف مثلج لأوفي بالوعد الذي قطعته لأهـل المريـض. وصلت إلـى الخيمة وعقلت جوادي، ثم انسـللت إلـى الداخل قبل أن يتنبـه إلـى وجودي أحد؛ ويا لهول مـا رأيت! كان الطبيب المحلـي واقفاً عند رأس مريضـي منهمـكاً في وضـع لصاقة على الجـرح مصنوعة من روث حمـار وبول بقرة! وقفـت متأملاً هذا الجنون دون أن ينبس أحد ببنت شـفة. فحصـت المريض، وبهدوء أزلـت اللصاقة عن رأسـه وألقيت بها في النار، ثم طلبت مـن الطبيب الدجال الخروج فـي الحـال، فامتثل لأمري دون أن يتفوّه بأي كلمة. وبعـد ذلك أخبروني بأن دوائي لم يُشـف الرجـل وأنهم قاموا باسـتدعاء طبيب آخر دفعوا له خمـس مجيديات (ما يعادل أربعة دولارات ونصف) لعلاجه المفترض.



المستر فوردر أثناء جلوسه مع العرب

لا وجود للكراسي في خيام العرب أو بيوتهم، وهي عملياً غير معروفة. طريقة الجلوس المريحة والمعتادة بالنسبة للعرب تتمثل بالتربّع بالقعود على الأرض فوق سيقانهم المطوية بينما تغطي العباءة الفضفاضة أية نواحٍ من الجسم قد تسبب الإحراج عند الجلوس بهذه الوضعية. والعباءات الواسعة والفضفاضة لأهل الشرق مناسبة تماماً لمثل هٰذه الوضعيات من الجلوس المريح.

تظاهـرت بأني أهـمّ بركوب حصاني لمغادرتهم، ولكنهم توسـلوا إليّ بالبقاء لفعل شـيء ما. وجدت بـأن الدجّال قام بحـرق كل الضمادات واللصاقـات والمراهم التي تركتها؛ لذا فعلت ما بوسعي فعله، حيث أنني قمت بتطهير الجرح مرة أخرى من قذارة اليوميـن الماضييـن. كرروا معي هذه الفعلة ثلاث مـرات، ولكنني ربحت على المدى البعيـد وبـات المصاب قـادراً على الوقـوف والحركة مـن جديد. لقد أعجبهم السـير خلال العاصفة الثلجية، وذلك لأني لم أنكث عهدي بالذهاب في صباح اليوم الثالث. فشفاء الشيخ الشاب كان يُعزى لرعايتي ومعالجتي الحكيمة، والكثيرون من أفراد تلك العائلة باتوا يكنّون لنا كل مودة واحترام.

كان كل مـا سـبق من أحداث مرتبطاً بأنـاس من أنصاف الحضـر، وكانوا من بعض النواحـي في حالـة يرثى لها لجهلهم وطريقـة تعاملهم مع أولئك الذيـن يريدون منهم المسـاعدة ويسـعون وراء صداقتهم، ولكن الوقت قد حان لتحمّل الأعباء الأكثر ثقلاً من أولئك المفترض بهم أن يكونوا متحضرين والمصنّفين بمصاف الأمم الأوروبية.



الفصل العاشر

تحت رحمة القتلة وقطاع الطرق والبحار الهائجة

ليس مقدراً لكل مبشر مواجهة الصعوبات والمخاطر والمحن. فالبعض، وفي خلال سنوات طويلة من الحرث الدؤوب والمتأني أو بذر الحَب في أراض جديدة، عليه أن يتحمّل أموراً لا علم له ولا خبرة بمن سيقوم بعملية حصادها. فالمخاطر والمحن التي تحمَّلها ماكاي من أوغندة Mackay أو جون پاتون John Paton في جزر البحر الجنوبي، أعقبها مواسم حصاد وفيرة لأولئك الذين جاؤوا من بعدهم. والعاملون في إرسالية الكَرَك التبشيرية في مؤاب لم يُستدعوا لتحمل صنوف المتاعب والمذلة التي تعرض لها أولئك الذين افتتحوا تلك البعثة التبشيرية بمواجهة الخطر والتعب والحرمان. ما هو مدى صحة مقولات الكتب المقدسة بخصوص العمل في الوقت الحاضر والعديد من العاملين. «إنسان يزرع وآخر يحصد. لقد أرسلتك لتجني دون أن تتجشم أيّ عناء؛ ورجال آخرون كدوا واجتهدوا وأنت كسبت ثمار عملهم». طوبى لأولئك الذين يعملون بجد؛ «فكلاهما، الزارع والحاصد، سيبتهجان سوية».

لسوء الحظ، ينسى الحاصد أحياناً السنوات الطويلة من الجهود المضنية للحرث والبذر قبل أن يبدأ بجمع السنابل في حزم. «لذلك أعط لكل شخص ما يستحقه وعامل باحترام من هو جدير بالاحترام» وأغدق المديح على من هو أهل للمديح. لا بدّ لحياة الرّواد والمستكشفين، سواء كانت تبشيرية أو غير ذلك، أن تكون محفوفة بالمخاطر والمحن والإرهاق، فالفرق بين الصنفين هو أن المستكشف أو العالم أو الصياد بشكل

عـام يذهب معتمداً على سـلاحه الناري أو خبرته المكتسـبة بالنـاس والأرض لإنجاز مـا يريـد أن ينجـزه. بينما يتوجب على المبشـر، إن لم يكن يمتلك السـلاح أو الخبرة، أن يعتمـد فقـط على الله من أجـل الحماية والهداية في كل الظـروف. إن الرجل الذي يمتلك أسـلحة نارية سـيجد نفسـه منقاداً بقوة لوضع ثقته في هذه الأسـلحة عند وقوع الخطـر، ويضعُفُ بالتالي إيمانُهُ بالله، كمـا أن إراقة الدم عند العرب تعني عداوة دائمة وغياباً قسرياً طويل الأمد عن الناس والبلد الذي وقعت فيه إراقة الدم.

لـم يُكتـب هذا الفصـل لاسـتدرار العطف أو الشـفقة، وإنمـا لتعريف القـارئ بأن هنالك رباً يقدّر ويدبر وأن حياة المبشـر أيضاً ليسـت عبارة عن سلسلةٍ غير منقطعة من المسـرّات. لقد كانت المرة الأولى التي تعهدتنـي فيها العناية الإلهية بالحفظ والرعاية وعـززت إيمانـي بالله الحـي القيوم بعد وصولي إلـى مؤاب. ففي صبـاح أحد الأيام، وخـلال مداواتي للمرضى المجتمعين أمام بابي، أتى عندي شـخص ضخم الجسـم، وهو ابن أحد الشيوخ.

شق الرجل طريقه بين الحشد واتجه صوب خزانة الأدوية خاصتي مطالباً بها كحقٍ مكتسـب. لقد كانت بالنسـبة له عديمة الفائدة، لكنه كان يعرف أنها ثمينة جداً بالنسـبة لـي، لأنـه بدونها لا أسـتطيع مداواة الناس، وسـتنقطع عنـي الإعانات الكثيـرة لملكة إنكلتـرا وسـأتعرض لخسـائر جمة. رفـض الرجل التخلي عـن الخزانـة إلا إذا أعطيته النقـود. وهو لم يطالـب بالخزانة فقط، بـل دخل البيت وتربع علـى الأرض قائلاً «لن أبـرح هذا المـكان حتى أحصل على المال». جلس لبضع سـاعات، رغم المحاولات العديـدة التي جـرت لإقناعه بالرحيل، فقـد كان مصراً على عدم التزحـزح من مكانه. وفي غمرة الأخذ والرّد، لاحظت بأن مفتاح الباب كان في الجهة الخارجية من القفل، لـذا فقـد نهضت متجهـاً إلى الباب، قاطعاً مسـافة الأربـع الخطوات بوثبـة واحدة، ثم أغلقـت البـاب خلفي وأقفلته بالمفتاح، مبقياً زائري غيـر المرغوب فيه قيد الاحتجاز. حينئذٍ بدأ بالصراخ وركل الباب طالباً بفتحه، لكنني ذهبت بعيداً تاركاً إياه في الداخل. توجهت إلى المدينة واهتديت إلى والد السـجين وآخرين من شيوخنا وأبنائهم، حيث

وجدتهم جالسين في حلقة دائرية تحت أشعة الشمس. ذهبت ووقفت وسط الحلقة ثم أخبرتهم بما حدث، وكيف أنني أحتجز السجين عبد الله في بيتي، فضحكوا؛ لكنهم كانوا مستائين من تصرف الشاب. مع ذلك، فقد طلبوا مني إخلاء سبيله متعهّدين بألا يزعجني مرة أخرى.

طلبت بأن يذهب معي اثنان أو ثلاثة منهم لإخراجه، فوافقوا؛ ثم انبرى ثلاثة منهم وطلبوا مني اللحاق بهم. أعطيت أحدهم المفتاح وطلبت منه فتح الباب، فقام بفتحه ثم دخل. وفجأة خرج السجين من الداخل بقفزة واحدة، ليس للقائي، كما كان يتوقع، وإنما ليرتمي في أحضان أصحابه من الشيوخ. أرغى الشاب وأزبد وأقسم بأغلظ الأيمان أنه عندما يلتقيني في المرة القادمة فسوف يقتلني. وخشيةً مني بأنه قد أخذ شيئاً ما معه من غرفتي خلال احتجازي له، فقد طلبت منهم تفتيشه. تحسسوا ملابسه ولم يجدوا شيئاً؛ ولكنني لاحظت بأنه لم يحرك إحدى ذراعيه بحرية، فأمسكت بها ورفعتها قبل أن يتنبه إلى ما كنت أرمي إليه، فسقطت ساعتي الصغيرة من تحت ملابسه، حيث أنه كان يخفيها تحت إبطه، معتقداً أن أحداً لن يتنبه إليها. وفي النهاية، مضوا به بعيداً وتركوني وحيداً وصدى تهديداته لازال يتردّد في أذني. لم أسمع عنه أيّ خبر لمدة ثلاثة أسابيع، رغم سماعي من الآخرين عن تصميمه على إيذائي.

في صباح أحد الأيام كنت متجهاً وحدي إلى أحد مضارب الخيام لعلاج رجل جريح، عندما لمحت على البعد فارساً قادماً باتجاهي عبر السهول. بدأ يخبُّ باعتدال، ثم انطلق يعدو بأقصى سرعته. وعندما اقترب مني أكثر، رأيت أمامي سجيني الذي احتجزته منذ ثلاثة أسابيع.

كان مسلحاً برمح طويل، وعندما كان مندفعاً باتجاهي، استلّ مسدساً عن جنبه وصوبه نحوي ضاحكاً وهم يقول: «لقد هيأ لي الله الفرصة، وسوف أقتلك الآن وأرمي بجثتك في إحدى الحفر دون أن يعرف أحدٌ بمكانك أو بما حلّ بك». فأجبته: «إذا لم يعرف أحد، فإن الله سيعرف بذلك وسوف يعاقبك». وعلى الفور خفض الذراع التي تحمل السلاح الفتاك قائلاً: «لم أقابل رجلاً مثلك قط.. لو كنت أحد رجالنا، إذاً لكنت

ميتـاً الآن. لمـاذا أنت لسـت خائفـاً؟» فأجبته: «أنا أثـق بالله الحامي مـن كل مكروه»، «ولذلك لا تسـتطيع أن تفعل شـيئاً». فقال «لا» «عندما قلتَ بأن الله سـيعرف، خارت كل قـواي». ثم سـألني بعد ذلك عن وجهتـي، وعندما أعلمته بها، أصـرّ على مرافقتي كيـلا يصيبني أيّ مكروه. وفي صباح اليوم التالي عاد معي أيضاً إلى منزلي، ومنذ ذلك الوقت أصبحنا صديقين حميمين، وكنت ألجأ إليه أحيانا طلباً للمسـاعدة في الأوقات الصعبة أو عند الحاجة.

وبعد أشهر قليلة خضت تجربة أخرى مختلفة، هذه المرة في الليل. كنت في طريقي للكشـف على صحة زعيم إحدى القرى التي تبعد حوالي ست ساعات ركوباً. وجدته يعاني من جراح بليغة ناجمة عن إصابته بطلقات نارية على يد بعض شـيوخ الكَرَك من الشباب نتيجة خلاف سابق على بعض الخراف.

بعد الرعاية والعناية الفائقة التي أوليتها للرجل المصاب على مدى ثمانية أيام، بات بمقـدوري العـودة إلى منزلي فـي الكَـرَك. كان هنالك طريقان للمـكان الذي كنت قد ذهبـت إليـه، أحدهما مقفر موحش يمـر عبر كتلٍ من الصخور الضخمـة المتداعية من أطراف الوادي. سـبق أن صحبني أحدهم عبر هذا الطريق من قبل، لكني عدت وحيداً من طريق آخر.

وعنـد وصولـي إلـى غرفتـي سـألتني زميلتي فـي العمل، وهي شـابة كانـت تعيش فـي البيت المجـاور، إن كنت قد تعرّضت لأيّـة مضايقات على الطريـق، فأجبتها «لا؛ لمـاذا؟» فأخبرتني بـأن الرجال الثلاثة الذيـن حاولوا قتل الزعيم الـذي كنت أعتني به كانـوا مختبئين بيـن الصخور على الطريق بهدف إطلاق النـار علي لدى عودتي. كانوا مستائين جداً لأني أعنت الرجل المصاب على استعادة عافيته، ومن هنا كان تصميمهم علـى قتلي. ولكني بسـلوكي للطريق الآخـر، فقد تمكنت من النجـاة منهم. آويت إلى فراشـي في تلك الليلة ونمت في غرفتي وحيداً. وعند حوالي منتصف الليل استيقظت علـى صوت قرع على الباب. سـألت عن الطارق، وماذا يريـد؛ لأن من غير المعتاد أن يزعجني أحد بهذه الطريقة. فكان الجواب: «افتح الباب وإلا سـنحطمه وندخل، هيا،

بسرعة». فسألتهم من الداخل: «من أنتم وماذا تريدون؟» لكني حصلت على نفس الرّد مرة أخرى.

نهضت وأوقدت المصباح وارتديت ملابسي، ثم ذهبت لأفتح الباب. ومن دون أية شكليات دخل علي ثلاثة رجال، وجوههم مقنعة بمناديل تظهر أعينهم فقط. أغلقوا الباب وراءهم ثم قالوا لي: «لقد جئنا لنقتلك». فتقدمت منهم كل على حدة ونزعت المناديل عن وجوههم، ثم تعرفت إليهم قائلاً: «أنت بدر، وأنت محمود، وأنت سلامة»، ثلاثةٌ من أقسى وأشرس الرجال وأكثرهم دموية في قبيلتنا. دهشوا لفعلتي هذه وتعرفي إليهم. طلبت إليهم الجلوس، ثم أججت النار في الموقد في وسط الغرفة والتي سرعان ما توقدت واضطرمت. وبينما كنت أقوم بذلك وأعد القليل من الشاي، كنت أرمقهم بنظراتي خلسة. كانوا يحملون الخناجر والمسدسات المحشوة بالكامل، حسبما تبين لي لاحقاً، ثم حملوني على الجلوس معهم والإجابة عن أسئلتهم: «لماذا ذهبت إلى أعدائنا؟» «أين كان الرجل المصاب؟» «كيف عالجته؟» «هل سيتعافى؟» وأسئلة من هذا القبيل، والتي أجبت عنها كلها. وبعد ذلك أخبروني عن سبب محاولتهم قتل الرجل وكيف هاجموه وأطلقوا عليه النار، وكم كانوا غاضبين عندما علموا بأنني ذهبت لتطبيبه ومداواته. قالوا لي بأنهم انتظروا عودتي لمدة خمسة أيام، وأنهم كانوا عازمين على إطلاق النار علي من خلف الصخور.

ولدى سماعهم بخبر عودتي، قصدوا المدينة من دون علم أحد وقدموا عندي في الليل بنية قتلي. قالوا لي: «سيجدونك ميتاً هنا في الصباح؛ ونكون قد ابتعدنا عن المدينة، ولن يعرف أحد من القاتل». أخبرتهم بأني لست أخشى الموت، ولكن إذا لم يرهم أحد، فالله سيعرف كل شيء عن فعلتهم، فهو علام الغيوب. استعرضوا أمامي خناجرهم ومسدساتهم، فأخبرتهم بوجوب قتلي بسرعة، أو المضي لحالهم وتركي وشأني. كانوا يتصرفون ببطء ويتكلمون مع بعضهم بصوت خافت، وفي النهاية قالوا لي: «إذا أعطيت كل واحد منا عشرة مجيديات (حوالي عشرة دولارات) فلن نؤذيك». ولكني أخبرتهم على الفور بأنني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل قط. عندها، خفضوا

المبلـغ، وعندما رأوا بأني مازلت رافضـاً، بدؤوا بإطلاق التهديدات. ظللت حازماً في موقفي، وتشاوروا مرة أخرى، حيث خلصوا في النهاية إلى مطالبتهم لي برؤية الفانوس السـحري، كونهم سمعوا عنه ولا بدّ أن يروه بأنفسهم. أخبرتهم عن المشكلة المتعلقة بإخراج الشاشـة والفانوس، لكنهم كانوا مصرّين، فما كان مني إلا أن أخرجتها وقمت بتعليقها وإضاءتها وإطلاعهم على الصور. كانوا مسـرورين إلى حدّ كبير برؤية الصور ومواضيع الكتاب المقدس وتعليقاتي عليها بكل دقة وصدق.

بعـد مشـاهدتهم لحوالي عشـرين صورة، طلبـوا منـي أن أريهم تلـك «التي تموج وتضطرب» يقصدون الكروموتـروپ The chromotrope، فوضعتها وجعلتها تدور داخلاً وخارجاً وداخلاً وخارجاً، حيث كانوا في غاية السرور. وخلال التفات أحدهم لرؤيـة المصباح، لاحظ بزوغ الفجر وأخبر الآخريـن، فقالوا بأنه يجب عليهم أن ينهوا ذلك العرض على الفور، وإلا فسيراهم الناس خلال مغادرتهم، ويطالبونهم بالتعريف عن شخصياتهم وتبرير وجودهم في الخارج في مثل هذا الوقت المبكر. طلبوا مني أن أعدهـم بعدم التوجه مرة أخرى إلى أعدائهم، ولكنني رفضت، فطلبوا مني أن أعطيهم عهداً بألا أخبر أحداً عما فعلوه في تلك الليلة؛ ونزولاً عند رجائهم، استجبت لطلبهم، ثـم مضوا لحال سـبيلهم تاركينـي أتأمل أحداث الليلـة والعناية الإلهية المدهشـة التي وفّرت لي الحماية والمؤازرة.

وفي حادثة أخرى، كنت جالساً مع اثنتين من عاملاتنا في غرفة الجلوس بعد انتهاء عمـل اليـوم، عندما فُتح البـاب بقوة ومن دون سـابق إنذار، ودخل علينا شـاب يدعى فَـلاح، وهـو الابن الوحيـد لأبيه، أحد كبار شـيوخ المنطقـة. كان هذا الشـاب معروفاً بجرأته وإقدامه، وهو ما حدا به لدخول بيت فيه فتاتان عازبتان.



البدويات بنات الصحراء

هؤلاء النسـوة يمثلن بالضبط الملايين من النسـاء اللاتي يعشـن في الخيام في عزلة الصحراء. عباءاتهن الفضفاضة مصنوعة من قطعة واحدة من القطن الأزرق. عدد لا يذكر من النسـاء ينتعلن الأحذية أو حتى الصنادل، ومعظمهن من المدخنات. وهن يؤمن بالعديـد مـن الخرافات حول «العين الحاسـدة» الأمر الذي جعل من الصعب علي أن ألتقـط لهن صوراً. لقد كانت مكرمة عظيمة بالنسبة للسيد فوردر السماح له بتصوير هؤلاء النسوة.

تصدّيت له قبل أن يتوغل أكثر داخل البيت وأمرته بالرحيل، لكنه سخر مني ورفض المغـادرة. وعندمـا وجدته معانداً، أمسـكت به من قفـاه، وقبل أن يتنبـه لذلك، دفعت بـه، ليس فقط خـارج المنزل، وإنما خارج البوابة الخارجية أيضـاً. إنّ معاملتي له بهذه الطريقـة قد جرحت كرامتـه، فبدأ بالصيـاح والتهديد بالويل والثبـور وعظائم الأمور. ولـدى سـماعه لصوت الصيـاح والجلبة، حضر ابـن صاحب البيت مـن غرفته القريبة محـاولاً تهدئة الشـاب، مخبراً إيـاه كم تختلـف عاداتنا عنهم وغير ذلـك من مثل هذه الأمور. لكنه أرغى وأزبد وأسرع إلى أحد البيوت المجاورة ثم عاد ومعه بندقية. وبعد أن لقّمها بطلقة حية ووضع أخرى في يد ابن صاحب البيت تأكيداً على ما قاله – وهي عـادة شـائعة فيمـا بينهم – أقسـم على أنه لن يغمـض له جفن أو يـذوق أيّ طعام حتى يقتلنـي. ثم اسـتدعى إبراهيم ومحمّد وآخرين ليشـهدوا على قسـمه الـذي أخذه على نفسـه. في هذه الأثناء، كان الكثير من الناس قد تجمعوا على صوت الصراخ والجدال وأتوا ليسـتطلعوا الخبر. كنت في الداخل مع النسـاء، ولـم نكـن ندري بالأحداث التي كانـت تجري في الخارج. كنا نـؤدّي الصلاة في وقتها، وبعدهـا خرجت للذهاب إلى غرفتـي. كان الشـاب الصغير متخذاً موقعه فوق السـطح، ولكنه لـم يرني أثناء مروري إلى غرفتي.

توجهت إلى سـريري، ولكن خياله فوق السطح مازال في خاطري من خلال القرع المتواصـل من عقب بندقيته فوق أرض السـطح. ظل متيقظـاً طوال الليل، إلى أن طلع النهار. وأثناء اجتماع الناس عند بابي من أجل العلاج، ولدى سـماعهم القصة، راعهم مـا يجري، وقلقـوا كثيراً على حياتي. نهضت وتناولت فطوري، ثم شـرعت بمعايناتي الطبيـة الاعتياديـة، مخالفاً رغبـات أبناء المنطقة. كان الشـاب الموجود على السـطح يصرخ ويتوعد بشـتى أنواع الوعيد والتهديد. تحاملت على نفسـي قدر المسـتطاع، ثم خرجت وصعدت إليه مباشـرة، قائلاً: «إذا كنت تريدني، فها أنذا، افعل بي ما بدا لك، وإلا فانصـرف مـن هنا». فخنع وتصاغر ولم ينبس ببنت شـفة. كنت مصراً على رحيله عن السـطح وتركي أعود لعملي. وبعد شـيء من التردّد، نزل، فلحقت به. وفور نزوله

قال لي «سوف أصيبك بالرصاصة عندما ألتقي بك لوحدك». عندها قام بعض من الوجهاء من أهل المنطقة بتهدئته لبعض الوقت ببعض القهوة المرة، لكنه كان مصراً على قراره بإيذائي بسبب قسمه والرصاصة التي أعطاها لابن صاحب البيت كضمان لقسمه، والتي رفض أن يستردّها، على الرغم من حث الآخرين له على فعل ذلك. التقيت هذا الشاب في ظروف مغايرة ومحزنة للغاية والتي يجدر بي أن أرويها للقارئ، تصديقاً للمثل العربي: «إن جبلاً لن يلتقي مع جبل قط، ولكن إنساناً قد يلتقي إنساناً آخر». يعلمنا هذا المثل أن من الأفضل لنا عند الافتراق أن نكون أصدقاءً، وليس أعداء.

كانت هنالك حفلة عرس مُقامة في إحدى مضارب الخيام التي تبعد حوالي أربع ساعات ركوباً شمال الكَرَك، وقد دعي جميع شيوخ القبيلة الشبان للمشاركة في الاحتفالات. وكما هو متعارف عليه فإن الشباب في مثل هذه المناسبات يقومون ببعض الألعاب البهلوانية على جيادهم ويتسابقون ويتصارعون، ويبدو بأن الخيول تستمتع بهذه الألعاب بقدر ما يستمتع الفرسان. وفي أثناء عرضٍ لقتالٍ صوري، أصابت طلقة طائشة صديقي المزعج الذي جمعني به القدر قبل بضعة أسابيع بينما كان يخطر بحصانه مسرعاً عبر وابلٍ من النيران المتقاطعة، حيث اخترقت الرصاصة الرُّغامى. حُمل المصاب إلى إحدى الخيام ثم أرسل إلي أحد الفرسان، حيث أن اسم الرجل المصاب أبقي طي الكتمان. وأثناء وصولنا إلى المخيم، أخذوني إلى الخيمة لأرى فلاحاً ممدّداً على الأرض وهو بحاجة إلى عناية فائقة. كانت كلماته الأولى التي تلفظ بها بصعوبة هي «كيف رضيتَ بالمجيء بعد الطريقة التي عاملتُك بها؟» فكان جوابي على طريقتهم: «عفا الله عما سلف، وما فات قد مات».

فعلت ما بوسعي من أجله على مدى خمسة أيام بلياليها. وفي عصر أحد الأيام كان متكئاً على يدي وكنت أطعمه قليلاً من الحليب عندما سقط على صدري فجأة وأسلم الروح. والخطب الجلل هو تلك الحالة من الذعر التي سادت بين الحشود المتعاطفة في الخيمة، حيث بدأت النسوة بالصراخ والعويل وتمزيق الملابس، بينما

انكبّ الأقرباء المقربين على الجسد يعانقونه ويقبلونه والرجال يفركون الأيدي من الحزن أو يقصّون شعورهم كإشارة على الحزن الكبير.

وفجأة انطلقت صرخة «الثأر يارجال!»، حيث انتفض الرجال وتناولوا بنادقهم ثم امتطوا جيادهم وانطلقوا لا يلوون على شيء باتجاه مضارب القوم الذين ينتمي إليهم الشاب الذي أصابت رصاصة بندقيته ابن الزعيم وتسبّبت بموته. لا وجود عند العرب لما يسمى بالقتل الخطأ أو القتل غير المقصود، فالعين بالعين والسن بالسن، مهما كانت الأسباب. انتهزت هذه الفرصة لمغادرة المكان على متن الحصان الوحيد المتبقي، حيث كنت أول من أوصل الأخبار السيئة للمدينة. قال لي أحدهم في تلك الليلة «لقد أقسم فَلاح على إعطائك الرصاصة، ولكنه نال واحدة بنفسه؛ إنه أمر الله ولكل امرئٍ نصيبه الذي قُدّر له في هذه الحياة». وفي صباح اليوم التالي جلبوا الجثة لدفنها، وكان مشهداً لا يُنسى أبداً.

لاستكمال هذه الحادثة لا بدّ من التنويه بأن القاتل المفترض عندما رأى الخيالة المسلحين قادمين باتجاه الخيام، استنتج ما حدث، ولاذ بحماية زعيم القبيلة، فنجا بروحه.

إضافة إلى عقوبة النفي فيما بعد لمدة سنتين وخسارة كل ممتلكاته، فقد استولى أقارب القتيل على جميع ممتلكاته الموضوعة تحت الحصانة لقاء خسارة ابنهم الفقيد.

من الحوادث الأخرى التي نجوتُ منها بأعجوبة، حادثة جرت بطريقة مغايرة وفي ظروف مختلفة جداً. كنت في القدس في طريق عودتي إلى الكَرَك، وكان علي أن أسلك طريق الخليل باتجاه الطرف الجنوبي للبحر الميت، وهو طريق يتجنّبه الركبان عادة لسببين: قلة المياه، وخطر اللصوص وقطّاع الطرق، لأن الطريق عبر أريحا ومادَبا كان تحت سيطرة إحدى القبائل العربية المعادية لكل قبائل الكَرَك. كان بصحبتي ثلاثة من العرب، أحدهم عجوز يدعى سالم، سافر معي كثيراً وأثبت دائماً بأنه رجل وفاء وإخلاص وأدين له بحياتي في هذه المناسبة، دون أن نستثني بالطبع العناية الإلهية الحكيمة.

كنا نسير على امتداد الساحل الشرقي للبحر الميت عندما وصلنا إلى جدول صغير حيث قررنا التخييم نظراً لأن الشمس كانت على وشك الغروب. كان المكان صخرياً جداً ونحن بشكل عام لا نختار مثل هذه الأماكن، مفضلين أراضي العراء ما أمكن، لأننا بذلك نستطيع أن نرى أيّ شخص أو أيّ شيء يقترب منا.

نظراً لانعدام وجود أيّة مصادر مياه أمامنا، كان علينا المكوث، وإلا سيقتلنا الظمأ. تناولنا عشاءنا وعلقنا المخالي على رؤوس الجياد، ولكن لاحظنا بأنها لم تتناول شيئاً. قال لي سالم العجوز: «الدّواب متململة ومحجمة عن تناول طعامها». مرّ الوقت، ومازالت جيادنا الصبورة محجمة عن تناول الطعام، لكنها كانت في حالة لافتة من التململ والهياج. وبأذانها المنتصبة ورؤوسها المشرئبة بدت وكأنها تتشوف أمراً ما، ثم بدأت تتلفت، طوراً إلى اليمين وطوراً إلى الشمال. أدرك العربي العجوز الخبير بشؤون الخيل من تصرفاتها أن هنالك أحداً ما على مقربة منا، وقد لمحته الجياد يتحرك هنا وهناك، على الرغم من العتمة. كان هذا الأمر هو السبب في تململها وهياجها وإحجامها عن الطعام. حزمنا أمرنا جميعاً على استطلاع الأمر، لكني كنت مرهقاً من سفر يوم طويل، لدرجة أنني سرعان ما أخلدت للنوم أسفل إحدى الصخور الكبيرة.

كان الوقت حوالي منتصف الليل، وكنت بين النوم واليقظة، عندما شرعت الجياد بالصهيل دفعة واحدة وبشكل متزامن تقريباً، بفارق لحظات بين جواد وآخر. عندئذ قال سالم العجوز: «هيّا، انهض بسرعة». نهضت مذعوراً لأرى ثلاثة رجال يفرّون تحت جنح الظلام لا يلوون على شيء. كانوا قد تسللوا إلينا متخفين وراء ستار من الصخور الضخمة، معتقدين بلا شك أننا كنا جميعاً نائمين.

ولكن الجياد لمحت الأقرب إليها ونبّهت سالماً، الذي لمح بدوره الرجل الأكثر قرباً واقفاً فوقي وبيديه حجر ضخم كان يتهيأ لإسقاطه على رأسي في أية لحظة بهدف قتلي. وبما أنني قفزت بسرعة، فقد أخطأتني الصخرة ولم تصبني بأي أذى، ثم انسلّ الرجال هاربين عندما تبيّن لهم بأن أمرهم قد انكشف.

وبعدها سكنت الدواب وهدأت وتناولت طعامها. أما العجوز سالم فلم يغمض له

جفن. قال لنا بأن اللصوص ربما يعودون قبيل الفجر تحت جنح العتمة، ظناً منهم بأننا مرهقون من السهر والترقب، لذلك علينا أن نكون متهيئين لهم». وكما توقعنا، فقد جاؤوا مرة أخرى في الوقت المرتقب، ولكن النار الموقدة أعطتهم إنذاراً بوجودنا. وعند الفجر حمّلنا الدواب وواصلنا مسيرنا. لم نعرف أبداً من كان أولئك اللصوص، أو من أين أتوا أو أين ذهبوا. كنا ممتنين لنجاتنا منهم وقدّمنا لجيادنا وجبات إضافية مكافأة لها على إنذارنا بوجود أعداء. وفي صباح اليوم نفسه التقينا بعصبة من الأشرار المتهورين الذين يفوقوننا عدة وعدداً، حيث قاموا باستباحة متاعنا بعد أن أشبعونا ضرباً ولكماً، نالني منه بعض الكدمات والرضوض الناجمة عن ضربات الهراوات الغليظة، لكوني اعترضت على ما يفعلونه.

كل ما واجهناه من محن وأخطار وما كتب لنا من نجاة وخلاص في المرات السابقة كان على اليابسة، باستثناء حادثة واحدة سأرويها لكم حدثت لنا على سطح الماء – ليس في المحيط الأطلسي ولا البحر الأبيض المتوسط، بل في البحر المالح التاريخي، المعروف بالبحر الميت. من ناحية أخرى، فقد حدت بنا ذكرياتنا لنسقط اسم «الميت» ونستبدله بـ «الحيّ». حدث ذلك في سنة 1895 إذا لم تخني الذاكرة. كنت قادماً من الكَرَك باتجاه القدس لاصطحاب زوجتي ورضيعي ذي الأربعة الأشهر. كان من المقرّر، وفق جدول الرحلات، أن نبحر على متن قارب شراعي كبير كان متجهاً، حسبما تكون الريح مؤاتية، إلى أقرب نقطة في الطريق إلى أريحا شمالاً ومؤاب شرقاً. بسلوك هذا الطريق يمكن اختصار زمن الرحلة إلى الكَرَك ثلاثة أيام، وبقدر أقل من العناء.

كان من المقرّر للقارب أن ينطلق مع غروب الشمس، واتخذنا كل الترتيبات على هذا الأساس. لذلك، قمت بإرسال حوائجنا الثقيلة على البغال، على أن يلاقي بعض أبناء الكَرَك القارب عند الجانب الشرقي وينقلونا إلى المدينة. كان بصحبتنا صديقان بغرض القيام بزيارة إلى الكَرَك، إضافة إلى طفلي وزوجتي وأنا. وصلنا نقطة الانطلاق على الشاطئ في الوقت المحدد، وشاهدنا أمتعتنا القليلة توضع في القارب، ومن ثم اتخذنا أماكننا.



السواحل الشواطئ الشمالية للبحر الميت

تظهر هـذه الصورة القارب الوحيد على البحر الميت. كان القارب عائداً للتو من رحلة شـاقة في البحيرة حينما التقطت الصورة. يظهر الزبد مدى قوة البحر التي ترتطم بها الأمواج على الشاطئ الحَصَوي.



العرب يستمتعون بتناول وجبة جماعية

يقضي العرفُ عند العرب أن يقدَّم الطعام في طبقٍ كبير. يدعو الزعيم الضيوف ليجلسـوا معه لتناول الطعام، لكنه لا ينضمّ إليهم، فهو يعدّه شرفاً له أن يخدمهم، وفي غياب الملاعق والشوك، على الأيدي أن تتكفل بالمهمة.

كان القارب محملاً بالعوارض الحديدية والأخشاب من أجل الحكومة في الكَرَك. هبّ علينا نسيم منعش من جهة الشمال أبحرنا معه على بركة الله. سار كل شيء على ما يرام لمدة خمس ساعات. طلع البدر، وأضاء الكون، وأدركنا بأننا بتنا قاب قوسين أو أدنى من هدفنا. لكن وتيرة الرياح قد ازدادت حدة، وكنا منطلقين بسرعة لا بأس بها. كان ملاحانا الاثنان، كما هي حال العرب الأقحاح، يغطان في نوم عميق، في وقت كان يجدر بهما أن يكونا في أقصى درجات التركيز. وفجأة توقف القارب، ثم مال على جانب واحد، وبدأت الأمواج بالتدفق إلى الداخل حيث بللتنا بالكامل قبل أن نتهيأ لهذا الوضع. ولقد تبلّل الرضيع المسكين أيضاً مثل الآخرين. أيقظ التوقف المفاجئ الرجل الموكل بإدارة الدفة، ثم سرعان ما تبينا بأننا قد انجرفنا إلى شط رملي. كنا منطلقين بسرعة كبيرة أدت إلى انغراس مقدمة القارب بعمق داخل الرمال، حيث بات من المتعذّر تحريكه. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والربع والقمر بدراً. حاول الرجال تحريك القارب بدفعه إلى الخلف؛ ثم نزلنا إلى الماء الذي وصل عمقه إلى مستوى الصدر ودفعنا بكل ما أوتينا من قوة، ولكن من دون جدوى. رمينا بالجسور والعوارض الحديدية إلى الماء ومن بعدها عوارض الخشب الكبيرة، ولكن القارب لم يتزحزح. بدأ الطفل يبكي من أجل الحليب، وكان عليه أن يقنع به بارداً، حيث كان من المستحيل لأيّ موقد كحول أن يبقى مشتعلاً للحظة واحدة في هذا الجو العاصف الماطر.

في هذه الأثناء، بدأ القارب يميل أكثر فأكثر إلى جهة واحدة، لذلك عمدنا إلى اعتلاء الجانب الأكثر ارتفاعاً عن الماء. قدّرنا بأننا كنا قريبين من اليابسة، نظراً لوجود نبات القصب بالقرب منا. نزلنا إلى المياه وانطلقنا سباحة باتجاه اليابسة، حيث سرعان ما وجدنا بأن الطين كان كثيفاً والمياه تزداد عمقاً كلما اقتربتُ من القصب. لذلك رجعت إلى القارب بانتظار بزوغ الفجر. بدأنا بإطلاق الصرخات والنداءات إلى أن بُحّت أصواتنا آملين أن نلفت انتباه أيّ عربي قد يصادف وجوده بالقرب من المكان، ولكن دونما جدوى. وبعد العديد من المحاولات والتوسلات لإبراهيم ومحمّد من أجل العون، قال اثنان من ملاحينا بأنهما

سيذهبان سباحة في محاولة لطلب النجدة. ثم انطلقا بعيداً تاركينا لوحدنا إلى ما بعد طلوع الفجر. وبعدها لمحناهم على البعد عند الشاطئ وهم يتقدمون باتجاهنا يتبعهم أصدقاؤنا العرب من أصحاب النخوة والمروءة الذين كانوا ينتظروننا على الشاطئ بناءً على طلبنا. كانوا قد سمعوا نداءاتنا المتكررة في الليل، ولكنهم ظنوا بأنه صراخ العرب المجاورين الذين يحاولون إبعاد الخنازير البرية عن الحبوب والحقول، لذلك لم يستجيبوا لنداءاتنا. قمت بجولة واحدة نحو اليابسة سائراً عبر ماء البحر والطين لمسافة ثلاثمئة ياردة، وبعد أن باتت لدي فكرة عن الطريق، عدت إلى القارب وأخذت الطفل ثم حملته إلى اليابسة، رافعاً إياه عالياً فوق مستوى الماء.

يبدو أن طفلي الرضيع قد استمتع بالرحلة أكثر مني، حيث أودعته بأمان عند أحد أبناء العرب على الشاطئ ريثما أعود إلى السفينة الجانحة. اضطرت زوجتي وصديقتنا للنزول إلى المياه، حيث تسببت تنانيرهن المشبعة بالماء بصعوبة التقدم وبطء الحركة، ولكن بمساعدة أصدقائنا العرب من أصحاب المروءة، تمكنتا في النهاية من الوصول إلى اليابسة واللجوء إلى الخيمة الموجودة بالقرب من المكان. في خلال جولة أو اثنتين ذهاباً وإياباً إلى القارب تمكنا من جلب حقائبنا المبللة بالمياه المالحة لـ «البحر الحي» إلى اليابسة. ظل القارب متمترساً في مكانه لبعض الوقت، لكن في النهاية تمكن العرب من أبناء المنطقة من تحريره بفضل تضافر جهودهم. كان رجالنا على قدر كبير من اللباقة وحسن التقدير، إلى درجة أنهم أعدوا لنا قدراً كبيراً من حساء الدجاج بالأرز وإبريق شاي لذيذ، احتسينا منه كمية لا بأس بها. أخذ البعض على عاتقهم غسيل ملابسنا بماء الجدول العذب القريب، وأثناء ذلك توارت النساء في الخيمة ريثما تجفّ ملابسهن تماماً. تجوّلت خلسة في أنحاء المكان مرتدياً سروال صديقي، ريثما يجف سروالي. ولحسن الحظ كان الموقع الذي نزلنا فيه في السهل دافئاً جداً، وإلا لانعكس ذلك سلباً على صحتنا بعد كل ما تعرضنا له في الليل من رياح وأمواج. فقد كنا ممتنين لنجاتنا بحياتنا على الرغم من خسارتنا لكل شيء تقريباً.



الفصل الحادي عشر

تغيرات غير مرتقبة ومزيد من المضايقات

مرت السنوات الثلاث الأولى من حياتي بين العرب مرور السّحاب؛ وعلى الرغم من أن تلك الفترة لم تكن تخلو من المثبطات والمعوقات والفواجع، فقد أمكن التصدّي لهذه المنغصات بالمثابرة على السير قُدماً وتجاوز الإساءات وإنشاء صداقات متينة، حيث بدا أن كل الأمور كانت تسير سيراً حسناً وتبشّر بمستقبل واعد.

التقيت خلال إحدى زياراتي القصيرة لمدينة القدس بزوجتي الثانية، حيث كان قد مضى بضع سنوات على وجودها في تلك البلاد وكانت قد ألفت لسان أهلها. كانت أهدافنا واحدة، ألا وهي خلاص الناس. فعدنا سوية إلى مؤاب Moab حيث عاشت معي إلى أن أرغمتنا الظروف على الرجوع إلى القدس. ويعود فضل الكثير ممّا هو مدون في هذه الصفحات إلى استعدادها للمكوث في البيت ورغبتها في ذهابي إلى أماكن مجهولة كيما يتهيأ لي طريق الرّب في الصحراء. دعنا لا نسمح لعبارات الشكر والإعجاب من جانب واحد أن تكون بأي حال من الأحوال نتيجة قراءة هذا الكتاب، بل ليستذكر الجميع بأنه «طالما كان عهده هو النزول إلى ميدان المعركة، فسيكون دوره التريّث والانتظار داخل داره».



المسز فوردر زوجة الكاتب

المسز فوردر امرأة اسكتلندية تعيش في المشرق منذ سنوات عديدة وتتكلم اللغة العربية، وهي محبوبة جداً من قبل العرب إذ أنها معروفة بالنسبة لهم. منذ عشر سنوات غيّر العرب اسمها إلى «أم جريُس» يعني أم جورج، تكريماً لابنها الأول جورج، وهي متفانية جداً في الوقوف إلى جانب زوجها في عمله بين العرب.

المكوث في البيت لأسابيع وأشهر دون أية أخبار أمرٌ أكثرُ مشقةً بكثير من الغياب الفعلي والقلق والترقب، والذي تفاقم وطأته الإشاعاتُ والأقاويلُ حول قطّاع الطرق والمجرمين.

كانت وتيرة العمل قائمة على قدم وساق في الأبنية الجديدة، التي كانت محطّ إعجاب ودهشة أهل الكَرَك Kerak؛ وكان العمل في المدرسة والمستشفى والكنيسة يسير على قدم وساق بوتيرة منتظمة ودرجة مشجعة من النجاح.

وفي أحد الأيام تناهى إلى مسامعنا إشاعات عن الجيش التركي القادم للسيطرة على إقليمنا وإنشاء عاصمةٍ مدنية تتمركز فيها حامية عسكرية داخل المدينة التي كنا نقطن فيها بالذات. أحزنتنا هذه الأنباء لأننا كنا ندرك بأن مجيء الأتراك كان يعني معارضة عملنا وعرقلته، ويعني كذلك القهر والاضطهاد وفرض الضرائب المرهقة وإراقة دماء الأهلين. ولم يطل بنا الأمر كي نشاهد ونعايش حدوث كل هذه الأمور.

لم يكد يمضي سوى أسابيع قليلة على هذه الإشاعة حتى بدأ آلاف الجنود بإقامة معسكرات لهم في السهول قبالة بلدتنا الجبلية. فقد جرى نصب بطاريات مدفعية الميدان فوق قمم التلال المشرفة على المدينة وجرى إعداد كل الخطط اللازمة لاحتلال المكان.

تملكت الناسَ حالةٌ من الذعر والقلق وفرّ الأطفال والنسوة إلى المخيمات أو الجبال على الجانب الغربي من بلدة الكَرَك باتجاه البحر الميت. استعدّ الرجال للذود عن مدينتهم وبيوتهم ومواجهة الجيش الغازي حال محاولته دخول المكان.

أُبلغنا بوجوب المغادرة في الحال، لكننا آثرنا البقاء أسبوعاً كاملاً؛ وفي كل يوم كانت القوات الغازية تحاول تسلق المنحدرات الجانبية لتلك البلدة المُؤابية. جرى صدّ الغزاة وردهم عن المكان بفضل جلاميد الحجارة الضخمة التي جرى دحرجتها من فوق من قبل الأهالي ورصاصات أولئك الذين كانوا يحملون بنادق. أخيراً، وعن طرق الرشوة والوعد بالأموال الطائلة والهدايا النفيسة، سمح أعيان مؤاب ووجهائها

للقائد التركي المخادع بالدخول، مصدقين إياه عندما قال: «سنمكث لمدة ثلاثة أشهر فقط». ومع أزيز الرصاص من فوق رؤوسنا في كل ساعة من ساعات النهار وبطاريات مدفعية الميدان قبالتنا فوق قمم التلال المشرفة على المدينة وجيش متعصّب مسعور يتلهف للسيطرة، بدأنا في خضم ظروف كهذه بخوض تجربة ناظم المزامير: «الربّ هو نوري وخلاصي؛ فمن غيرَهُ أخافُ وأخشى؟ الرّب هو حولي وقوتي، فمن ذا الذي يخيفني بعد ذلك؟... مهما حشد لي الناس، فلن يزيدني ذلك إلا إيماناً؛ ومهما اشتدت الخطوب من حولي، فإن إيماني بالله لن يتزعزع».

لن يمحو الزمن من ذاكرتنا أبداً ذكرى ذلك اليوم الأليم الذي دخل فيه الجيش التركي مدينة الكَرَك في نوفمبر من عام 1893. ومنذ ذلك التاريخ وبعد ثلاث سنوات أخرى من العرقلة والمعارضة والإذلال، أُرغمنا أخيراً على الانسلاخ عن أصدقائنا العرب الحميمين وعن الأرض التي كانت قد أضحت أمّنا، بالتبني، وبفضل كرامة موتانا الذين وُوروا ثراها، كما كان أصدقاؤنا العرب يذكروننا دائماً.

كان الرجل الذي جرى تعيينه حاكماً للإقليم الجديد قائداً سابقاً للمجازر في أرمينيا، ومكافأةً له على نجاحاته على تلك الصعد، فقد تمت ترقيته لهذا المنصب الرفيع. تسلّم القائد الجديد مقر إقامته في دار كاهن طائفة الرّوم وقام بتحويل مدرسة البنين إلى دار للمحكمة. وفي اليوم الذي أعقب وصوله طلب حضورنا، ثم أبلغني أنه منذ ذلك التاريخ فما بعد بوجوب وقف العمل بالمدرسة والمستشفى.

قال لي: «أنت موضع محبّة وتقدير كل هؤلاء الناس، وطالما أنني قد جئتُ من أجل السلطان التركي فعليك أن ترحل. إذا أنا لم أستطع تأليب الناس عليك وإبعادهم عنك، فسأمنعك عنهم بالقوة والإكراه».

جرى نشر قوة من العسكر حول مكان إقامتنا للحؤول دون قدوم الناس إلينا؛ وإذا ما صدف أن تسنّى للبعض الوصول إلينا وضُبط أثناء المغادرة، كان يصار إلى اعتقاله وزجه في السجن وتغريمه بمبالغ باهظة.

عمد أعيان ووجهاء المدينة إلى الاحتجاج لدى الحاكم، ولكن من دون جدوى. وقد جرى نقاشهم معه على النحو التالي: «لقد حرمتنا من العون والمدد الذي كان أصدقاؤنا يمنّون به علينا أوقات المرض أو الشدّة، وأغلقت المدارس التي كان أبناؤنا يتلقون العلم فيها، ومنعت أصدقاءنا من زيارتنا، دون أن تقدّم لنا شيئاً في مقابل ما كان الإنكليز يقدمونه لنا».

أما الرجال الذين كانوا قائمين على الأبنية الجديدة تحت إشرافي، فقد جرى طردهم من عملهم مرة بعد مرة من قبل العسكر الذين كانوا يلهبون ظهور العمال الأبرياء بجلدات سياطهم الأليمة.

التقيتُ الحاكم مرات عديدة طالباً منه أن يعيد لي أدواتي وأن يمنح العمال حرية العمل لدي. فكان يقول لي في كل مرة: «لو كنت عربياً، أو أحد أتباعنا بالذات، لكنت أمرت بقتلك منذ وقت بعيد، لأن أحداً لم يسبق له أن كلّمني أو تعامل معي بالطريقة التي كلمتني وتعاملت معي بها».

كان عليه في كل مرة أن ينزل عند رغباتي، ولكن بعد سلسلة من المقابلات العاصفة التي كانت تتطلب أكبر قدر ممكن من اللباقة والكياسة والأناة والحكمة.

لا زلت أذكر جيداً إحدى المناسبات التي أفلحتُ فيها في حمل هذا الطاغية على الامتثال لطلباتي. فقد تمّ إبلاغي في أحد الأيام بأن أفضل رجالي، «الصّديق الوفي» Old Faithful كما كنت ألقبه، قد زُجّ به في السجن دون أيّ سبب واضح، وقد توّسل إلي والده العجوز للعمل على إطلاق سراحه، مؤكداً لي عدم وجود أيّ سبب لسجن ولده وصديقي. توجهت إلى الحاكم في الحال واستوضحته عن سبب اعتقال الرجل والزجّ به في السجن، فأجابني بأن السبب هو قوله بأنه سيعتنق المسيحية وبأنه سيواظب على الحضور لمنزلنا وإحضار البيض والحليب لنا. وهذان التصريحان كلاهما كانا زائفين وجرى تلفيقهما من قبل بعض خصوم «صديقي الوفي».

أخبرت الحاكم بأن التهم كانت باطلة وبأنه لم يسبق لي رؤية الرجل لأكثر من شهر،

وأنني كنت أسعى لإطلاق سراحه في الحال. فما كان من القائد التركي المتحجّر القلب والمخادع إلا أن أطلق ضحكة ازدراء واحتقار، وقال: «أنت موضع محبة كل هؤلاء العرب، الذي لا يكفّون عن كيل المديح والثناء عليك أمامي كل يوم، معتبرين إياك بمثابة أبٍ لهم. لقد حاولتُ إبعاد هؤلاء الناس عنك وثنيهم عن التعلق بك، لكنني سأرغمهم الآن على قطع علاقتهم بك، والرجل الذي هو الآن في السجن سيكون بمثابة قدوة وتحذير للبقيّة، لأنني سأعامل الجميع على هذا النحو، ولن يهدأ لي بال حتى أرغمك على الرحيل عن هذه البلاد. لن أطلق سراح الرجل، وليبق في السجن لردح من الزمن كي يكون عبرة للآخرين، فلا يجرؤ أحد منهم على عصيان أوامري».

وأمام حشد من الأعراب والوجهاء والعسكر بقيت مصرّاً على رأيي. وعندما يئست من إذعانه لرجائي، قلت له: «لن أبرح غرفتك التي أجلس فيها الآن حتى يُطلقَ سراحُ هذا الرجل ويسلَّمَ إلي». بقيت لساعات جالساً هناك وهو يطلب مني المغادرة مرة بعد مرة، مؤكداً لي أن لا جدوى من انتظاري. وحان وقت العشاء وأنا لا أزال هناك؛ وحان وقت النوم وأنا مستعد للمبيت هناك. على ذلك المسؤول أن يفهم بأن موقفي في مثل هذه الحالات لا يمكن أن يتزعزع، وأن على أحدنا أن يتنازل للآخر، وأن أحد الإثنين ينبغي له ألا يكون الكاتب.

قاربت الساعةُ العاشرة ليلاً ورغب الحاكم في الخلود للنوم، لكنه لم يكن قادراً على الذهاب وتركي وحيداً في غرفته. أخيراً، نجح سلاحُ الإقناع، بعد رفضٍ أخيرٍ، في حمل الحاكم على إصدار أوامره لأحد العسكر بإطلاق سراح الرجل. عندها، طلبت بأن يؤتى به من السجن ويُسلم إلي بحيث نغادر المكان معاً. وهكذا تم إحضار صديقي العربي من غياهب السجن الكائن في تلك القلعة المؤابية بالقرب من المدينة، حيث غادرنا معاً الغرفة الرسمية لذاك الحاكم الذي لم يكن مسروراً البتة لانتصار الحق وشعوره بالمذلة أمام الناس.

هل يُدهش القارئ لكوني أمتلك العديد من الأصدقاء في بلاد العرب؟ النذر اليسير منهم كانوا في الحقيقة الأصدقاء الذين ارتبط معهم إسماعيل المسكين بعرى صداقة

حقيقيـة فـي حياته، وهم، على غرار بقيـة الناس في البلدان الأخـرى، يقدّرون اللطف والكياسة ويتجاوبون معها.

في صباح اليوم التالي جرى استدعائي للقاء المسؤول الغاضب الذي خاطبني قائلاً: «أيها المستر فوردر Forder، إذا كان أفراد جماعتك غير فخورين بك، فهم محقون في ذلك؛ إذ لم يسـبق لأيّ شـخص قط أن قابلني بالطريقة التي قابلتني بها. يؤسـفني أنك رجل إنكليزي، فأنت تصلح أكثر كرجل تركي. البارحة كسبت الجولة، لكني سأكسب أخرى اليوم، كونه لن يهدأ لي بال حتى أحملك على الرحيل عن هذه البلاد».

ثـم تلت فترة من المحاكمـات والإذلال والاضطهاد والترقّـب والقلق قلائل كانوا قادريـن علـى تحملها. لقد لفق ذلك الحاكـم اتهاماتٍ باطلةً في حقـي وحق جماعتي وقنصلنا في دمشق.

كان العسـكر يتعقبون كل حركة وكل سـكنة تصدر عني وعن زوجتي، حيثما حللنا وحيثما نزلنا؛ وكانت أبوابنا موضوعةً تحت الحراسة منذ بزوغ الفجر وحتى آخر الليل، ولم يكن يُسـمح لأيّ كان أن يأتينا بطعام أو بأشـياء أخرى يبيعنا إياها. وكانت الرسائل تصلنا تباعاً بأننا ما لم نبرح المكان في غضون سـاعات معدودة، فإن العسـكر سـيأتي لإخراجنـا بالقـوة وتحطيم منزلنا. لم نعـر بالاً لكل ذلك؛ بل «فوضنـا أمرنا لله، وعليه توكلنا، فهو من يهدينا سبيل الرّشاد».

قـد نحتاج لمجلد بحالـه للتحدث بالتفصيل عن صنوف المعانـاة التي لقيناها على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات على يد ذاك الحاكم التركي، ولكن يجب عدم التطرّق إليـه على هـذه الصفحات. يكفـي القول بأنه تمادى فـي تصرفاته إلى درجـة أنه تفوق على نفسه. وأخيراً ونتيجة لشكاوانا المتكررة وطلبات قنصلنا النشيط في دمشق، تمّت إزاحتـه وإنقاص رتبته، الأمر الذي بعث السـرور والبهجة فـي نفوس الأهالي والعديد من صغار الموظفين.

كنتُ طوال هذه الفترة من العرقلة والإحباط أتحرك شـيئاً فشـيئاً على صعيد الأبنية

الجديدة. وهكذا، وفي الوقت الذي أزيح فيه الطاغية المستبد، كانت هنالك خمسة منازل فسيحة على أتمّ الاستعداد لبدء عملنا، وجميعها فوق مستوى الأرض، بنوافذ وأعمدة هوائية للتهوية وأرضيات مبلطة، وكذلك مستوصف وغرفة استشارات وقاعة اجتماعات كبيرة، يجتمع فيها الناس اليوم للاستماع إلى الرسالة الإنجيلية قبل أن تتم معالجتهم من قبل المبشّر الطبي.

مع رحيل الحاكم توقفت العرقلة والإجراءات القاسية وأخذت تباشير الأيام السعيدة تلوح في الأفق.

لم يكن مجيء الأتراك إلى مؤاب مجرد مرحلة كارثية لنا وحسب، وإنما للعرب أيضاً. مصيبتان اثنتان أعقبتا مجيء القوات الغازية تمثلتا بكارثة الجراد التي أفضت إلى ما يشبه المجاعة في أنحاء البلاد. وفي خضمّ هذه الحالة من الشك والحيرة والارتباك وقعت بعض الأحداث الطريفة المسلية لتكسر رتابة الأوضاع السائدة.

ففي إحدى المناسبات كنا قد وجهنا الدعوة لعدد كبير من النساء والأطفال للمشاركة في وجبة ساخنة. استجاب المدعوون والمدعوات للدعوة بكل سرور، على الرّغم من أوامر الحاكم التي كانت تحظر على أيّ كان دخولَ المساكن التي كنا نقيم فيها.

وفي الوقت الذي كانوا فيه منشغلين بتناول الطعام، سُمعَ قرعٌ صاخب على الباب المقفل. كان الواقفون في الخارج مجموعة من العسكر الذين أرسلوا لاعتقال النسوة والأطفال الذين كانوا يسكتون غلواء جوعهم على حسابنا، والزجّ بهم في السجن. رفضت السماح للعسكر بالدخول، وهكذا قرّروا التريث بانتظار انصراف الضيوف المذعورين المساكين.

وعند انتهاء الوليمة، قمت بمساعدة النسوة والأطفال على المغادرة عن طريق سلّم يفضي إلى أسطح المبنى. وتمكن العديد منهم من المغادرة دون أن يتنبه إليه أحد، إلا أن آخر من تبقى منهم ضُبطوا وهم يهمّون بالمغادرة، حيث لحق بهم العسكر وجرى اعتقالهم.

لـم تمتثل بنات مـؤاب للأوامر بالاصطفاف في رتل أحادي والسـير إلى السـجن. بل عمدن عوضاً عن ذلك إلى الجلوس في الشـارع قائلاتٍ للعسـكر بتهكم: «إذا كنتم تريدوننا في السجن، فاحملونا إليه، وإلا فلن نصل إلى هناك».

في الوقت الذي كان يجري فيه حدوث هذا المشهد الفاقع، أمام بهجة ودهشة حتى أكثـر العرب وقـاراً واتزاناً، كنت أجري لقـاءً عاصفاً مع الحاكم فـي غرفته. وما يبعث على السـخرية أنـي كنت أهزأ منـه بكلمات وعبـارات مثل: «حكومة السـلطان كانت تتصرف بشـكل سـيء في الحقيقـة، عندما لـم يجد ممثلوهـا ما يفعلونه أكثـر من الزجّ بالنسـاء والأطفال في السـجن عقاباً لهم على تسـكين غائلة جوعهم. هل وصل الأمر بكم إلى حد سـجن النسـاء في بلادٍ وإمبراطوريةٍ تُعدّ النسـاء فيها إلى حدّ ما متحرراتٍ من تدخل الرجال؟».

مثل هـذه المناظرات والنقاشـات جرت بالفعل وصدرت الأوامـر بوجوب تحرير النساء والأطفال وعدم التعرّض لهم مرة أخرى.

ومثـل هذه المحاكمـات والتجارب التي كانت تجري لفتـرات غير محدّدة دون أن يدري بها أحد، لها تأثيرها على الطبيعة البشرية.

شـعرنا بالإجهاد الحادّ المزمن، وغمرتنا السـعادة بعد خلاصنـا منه. ولـم يكد أحد فصول المعاناة ينقضي حتى جاء فصل آخر من ناحية غير متوقعة.

لقد كنا نسـتمدّ العون لبعض الوقت من قبل الجمعية الرسـولية للكنيسـة الأسـقفية البروتستانتية Episcopal Church Missionary Society التي كنا نعمل معها بمودة وبطريقة مناسبة، عندما أثير السؤال المتعلق بوضعنا ومكانتنا الطائفية.

كنت قد تربّيت وتدربت في الكنيسـة الإصلاحية الوِسـليّة[1] الميثودية Wesleyan

(1) الكنيسة الوِسليّة Wesleyan Church نشأت في عام 1843 على يد كاهن يدعى جون وِسلي John Wesley وهو مؤسس الكنيسة الميثوديّة إحدى فروع الكنيسة البروتستانتية، فنشأت من تعاليمه الكنيسة الميثوديّة الوِسليّة Wesleyan Methodist Church.

Methodist Church وبتّ الآن موظفاً لدى الكنيسة الرسمية في إنكلترا State Church of England.

كل شيء كان على ما يرام بالنسبة لاستمراري كمبشّر لتلك الطائفة باستثناء نقطة واحدة، وهي أنه لم يسبق لي أن مُنِحتُ الحقَّ الديني للتثبيت، فالعوائق الشعائرية والدينية استثنت تثبيتي رسمياً كمبشر للجماعة الأسقفية البروتستانتية Episcopal Society.

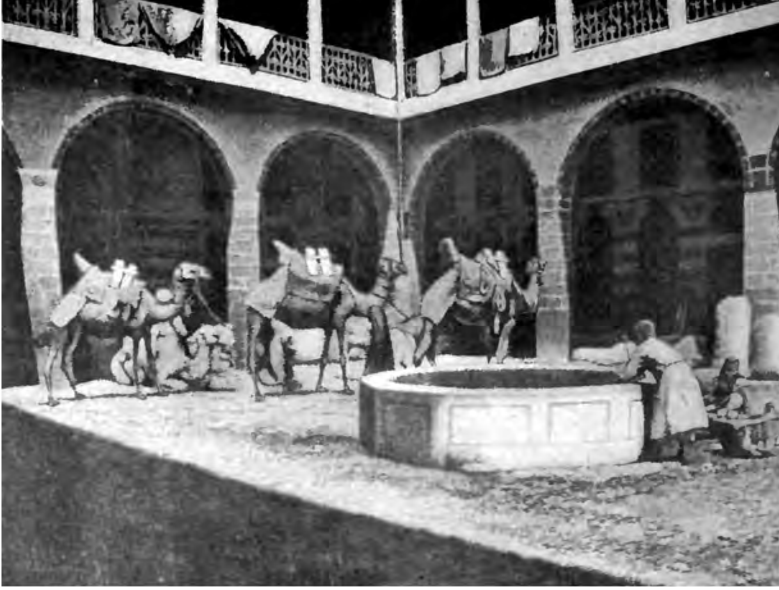
وهكذا، وجدت نفسي أمام خيارين لا ثالث لهما: الأول، أن أكون مثبتاً وأغدو أسقفياً أصيلاً متمتعاً بكامل حقوقه وأبقى حيث أنا. والثاني: أن أبقي على معتقدات وتعاليم أيامي الأولى والتزامي الأخلاقي، وأقطع علاقتي بالجماعة التي كنت أخدمها.

كان الإغراء بالبقاء قوياً، لكن الغلبة كانت للعامل الأخلاقي. رفضي لأن أصبح أسقفياً كان يعني عملياً بدء الحياة مرة أخرى، لكن الله منحني الشجاعة والهداية للوقوف إلى جانب قناعاتي.

وهكذا، فبعد عدّة أشهر رحلنا عن الأرض والأحبة، وكلاهما كان في سويداء القلب منا وكنا على استعداد للتضحية بأرواحنا في سبيلهم. لقد كان الفراق أليماً، فالناس لم تستوعب أبداً السبب الذي حدا بنا لفراقهم مفسحين المجال أمام آخرين ليحلوا محلنا.

لقد شاء الله ألا يحسّوا مطلقاً بمشاعر الغيرة التي تمنع الناس الذين يمجّدون اسم الربّ من التوحد تحت ذلك الاسم!

مع بزوغ فجر أحد الأيام غادرنا بهدوء موطننا الجبلي في مؤاب مدفوعين خارجاً، ليس على يد الأعراب أنصاف الحضر أو الأتراك المتشدّدين والمتعصبين، وإنما على يد أولئك الذين قدَّموا المتطلبات الشعائرية والاحتفالية والطائفية على المؤهلات الحقيقية والجدارة، ورغبة أولئك الراغبين بالتضحية بحياتهم في سبيل الخير.



خان شرقي

توجد هذه الملاجئ المؤقتة في جميع المدن الشرقية. يمكن أن يأوي إليه الانسان والحيوان ويحصل على الشراب بمبلغ حوالي ستة سنتات لليلة الواحدة. والسبيل الموجود في وسط الفناء المسيّج هو مورد المياه العذبة.



صانع القهوة

القهوة هي المشروب الوحيد للعرب، بعد تحميص البذور يسحقونها بواسطة هاون كبير، والزعيم دائماً يشرب أولاً ثم يقدمها للضيوف. لا يضاف إليها الحليب أو السكر، ولا يُسمح للنساء بصنعها.

غـادرتُ الكَـرَك Kerak مقتنعـاً بأنـي لم أدّخر جهـداً في تقديم ما بوسـعي تقديمه لـكل شـخص حاولـت خدمته، سـواء أبنـاء مؤاب فـي مدينتهـم، أو البـدو الرُّحّل في صحرائهم.

العامل المشجع كان على الأقل معرفة أن أولئك الذين أفارقهم اليوم كانوا مقتنعين بالطريقة التي كنت أخدمهم بها، حتى تكرّموا علي بالتقدير التالي:

«لقد عمل السيد آرتشيبولد فوردر Archibald Forder في مهمة تبشيرية في إقليم الكَرَك شرق الأردن لمدة خمس سنوات ونصف، ثلاث منها كانت مكرّسة للعمل فيما يتصل بشؤون الجماعة التبشيرية للكنيسة Missionary Society. إن السيد آرتشيبولد فوردر مسـيحيٌّ مخلص للغاية وعامل نشيط، والوضع الحالي الواعد لعمل الإرسالية في الكَرَك يدين بكثير من الفضل لحماسته ومبادراته المكللة بالرّعاية الإلهية.

«كان العمـل خلال السـنتين أو الثلاث الأولى من عمل المسـتر فـوردر في الكَرَك شـاقاً ومحفوفاً بالمخاطـر نتيجة الطبيعة الفجَّة وغير المتحضـرة للناس. لقد كانوا في ذلك الوقت خارجين عن سيطرة حتى الحكومة التركية، وكل واحد منهم يتصرّف على هواه وحسبما يراه مناسباً.

والفضـل الأعظم يعود للسـيد فـوردر وللباقة والكياسـة التي كان يتعامـل بهما مع الناس، وهو ما سخَّرهُ الإله لفتح الأبواب أمام نشر رسالة الله بطرق لا حصر لها.

يؤسـفنا جميعاً خسارة المسـتر فوردر كأحد أفراد بعثتنا التبشيرية، لكننا نتضرّع إلى الـرّب أن يعهد إليه بأسـرع ما يمكن بمهمة جليلة أخرى مـن المهام الإلهية ويَمُنَّ عليه ببركات فوق بركاته يوم كان في الكَرَك.

حيثما كانت مهمة المستر فوردر فإن بعثة C.M.S. التبشيرية في فلسطين C.M.S. Palestine ستعدّه على الدوام واحداً من أفرادها.

“J. R. Longley Hall”

«في 17 فبراير 1897».

وهكذا ولأسباب طائفية فقط دُفِعَ بمجموعةٍ من العمّال المهرة والمتمرّسين من ذوي الخبرات المتميزة والقدرة العالية على التأقلم إلى مهمة من أشق المهام وأصعبها. لكن الاحتمالات الأكبر لم يحن أوانها بعد، رغم أن السبل والوسائل لازالت مطلوبة لتكوين قضية ناجحة منها بالشكل الملائم.



الفصل الثاني عشر

نحو مناطق جديدة، بين قوم من المتشدّدين

بعـد مغادرتنـا الكَرَك رجعنا إلى القدس وبدأنا بإعداد خطط للمسـتقبل. كان أمامنا عددٌ من المسائل الحساسة والهامة التي علينا مواجهتها والإجابة عنها.

هل سيتأثر العرب جرّاء مغادرتنا مؤاب؟

هـل سـنمرّ بأوامر الرّب حـول «كل العالـم» و «كل مخلوق» مرور الكـرام دون أن نعيرها اهتماماً، مع إدراكنا لحاجة جزيرة العرب وأهلها؟

هـل يجدر بنا أن نسـمح لأفعال وتصرفات أولئك الذين أسـدينا لهـم خدماتنا بثنينا عن المضي قدماً لتبليغ كلمة الرّب؟

ليس هنالك إلا جواب واحد لكل هذه الأسئلة – ألا وهو «كلا».

كانـت رغبتـي تتمثل بالمضي قدمـاً بما أوتيت من خبرات وإلمام باللغة. وسـرعان ما اسـتجاب الرّب لدعواتي وصبـري، وانفتحت الأبواب وتقاطـر المدد لتمكيني من شق طريقي نحو مناطق جديدة والوصول إلى شعوب وقبائل لم يسبق لها أن تلقت أيّ وعظ أو تبشير.

للوهلـة الأولى، شـدّ انتباهي تلك المناطق القريبة من القدس التي لم يسـبق لها أن عرفـت أيّة بعثات تبشـيرية من قبل، وسـوف أتطـرّق في هذا الفصل إلـى الحديث عن الزيارات التي قمت بها إلى هذه المناطق.

قد يتساءل البعض لماذا لم أبق في مؤاب وأقوم بعمل مستقل وسط الناس الذين عرفتهم جيداً. فكرنا بهذا الاحتمال، لكننا تخلينا عنه أخيراً، لأننا رأينا، كما العديد من صفوة أصدقائنا، أن مهمّة مغايرة ستثير في أوساط الناس البسطاء الكثير من التساؤلات التي يصعب الإجابة عنها، كما أننا لن نقدم على القيام بأي عمل قد يخربه العرب، علماً أن هنالك بين البروتستانت خلافات طائفية حادّة بما فيه الكفاية لحمل أحد أجنحة الكنيسة لمعاملة الجناح الآخر كما سبق وأن عوملتُ.

ولكن بالعودة إلى قصتي، فقد أمضيت ثلاثة أسابيع بين القرى وحول جبل الشيخ (حرمون) Hermon ومع البدو في فلاة بئر السّبع Beersheba.

للمرة الأولى في رحلاتي بين العرب كنت أستخدم خيمة؛ وكان أحد الأصدقاء قد أعطاني بعض المال لهذا الغرض، كما أنني ومن خلال بعض الأعمال البسيطة التي كنت أقوم بها بنفسي في أوقات فراغي تمكنت من جمع المبلغ المطلوب لشرائها.

لقد قدّمت لي تلك الخيمة خدمات جمة وكانت بمثابة نعمة كبرى بالنسبة لي. لقد شكلتْ مكاناً لأولئك الراغبين بزيارتي، لدرجة أنها باتت وعلى الدوام محجّةً دائمة لحشود المؤمنين وطالبي الهداية.

لا شك بأن الحياة داخل خيمة في هذه الأرض حياةٌ قاسية – النوم على الأرض، دائماً تحت أشعة الشمس الحارقة، وبعيداً عن الأصدقاء، ما خلا العرب.

غالباً ما كنت أشعر بالتعب والإعياء وأتوق إلى الفراش الوثير وأسباب الراحة المنزلية. لكنها كانت الطريقة الوحيدة للوصول إلى هؤلاء الناس؛ لذلك فأنا ممتنّ للعافية والقوة واللغة التي مكنتني من التفاهم مع الناس.

غادرتُ الخليل Hebron صباح أحد الأيام حوالي التاسعة، أمتعتي على بغل وأنا على حمار، ومالك الحيوانات ماشياً. وبعد حوالي أربع ساعات من صعود تلةٍ ونزول وادٍ وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى الدّوايمة[1] Dawimee.

---

(1) قرية ذات أصول كنعانية قديمة تبعد عن مدينة الخليل نحو 27 كم، عرفت بالدّوايمة في القرن

لدى وصولنا سألتُ عن بيت الضيافة، ثم ذهبنا إلى هناك ووجدت الكثير من الرجال فيها. وبعد أن جلستُ قُدّم إليّ بعض القهوة دون أن يحتفي بي أحد وتبيّن لي أني أمام قَدَر عسير عليّ التعامل معه.

وبعد حوالي الساعة سنحت لي الفرصة للتحدث عن الخطيئة، ممّا قادني إلى الحديث عن يسوع. وفي الحال قال لي أحدهم: «هل تعلم بأنك تبشّر في مسجدنا، وأنت نصراني كافر، وواحد من المشركين؟ قبل مجرّد مدّة وجيزة قتلنا اثنين من اليهود هنا، وأنت وحيد هنا بكل ما في الكلمة من معنى!» ثم نهضوا وخرجوا جميعاً وهم في غاية الغضب.

كنت مستغرقاً بالتفكير فيما ينبغي لي فعله، عندما دخل علي رجل وطلب مني مرافقته إلى منزله لقضاء ليلتي عنده. «الناس أشرار للغاية هنا»، خاطبني قائلاً؛ وهكذا ذهبت معه. أنزلني في أحد أركان باحة الدار، وحين أزف موعد الغروب تناولتُ عشائي.

بعدها حضر مضيفي وعمُّه وجلسا معي، ثم بدأت أحدثهما عن يسوع المخلّص.

أصغيا إلي بانتباه شديد لمدة ساعتين وطرحا علي العديد من الأسئلة. استمرّ حديثنا حتى وقت متأخر من الليل. قالا لي: «لم نكن نعرف هذه الأمور من قبل على الإطلاق، والآن لا عذر لنا. لقد سَرَّنا قدومُك، لا سبيل للخلاص سوى يسوع»[(1)].

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي اضطجعتُ في وضعيّة توحي بأني كنت نائماً وسمعتهما يخبران الآخرين عن كل ما أخبرتهما إياه، وهكذا لم تكن زيارتي بلا جدوى.

غادرتُ ضحى ذلك اليوم وأنا مسرور كون البعض كان على الأقل راغباً بسماعي.

الرابع عشر الميلادي نسبة إلى ذريّة رجل صالح أقام بها يدعى علي بن عبد الدّايم بن أحمد الغماري، الذي يرجع نسبه إلى العالم الجليل عبد السّلام بن مشيش.

(1) يا لذكاء فوردر الشديد، هل ينتظر من القارئ أن يصدقه بكل هذه البساطة؟

وبعد مسير ما يقرب من ساعتين ونصف لمحتُ شخصاً داخل أحد الكهوف قرب الطريق. ونظراً لأن الوقت كان وقت الظهيرة والجو قائظ الحرارة، فقد قصدته.

استقبلني الرجل بالترحاب ودعاني للدخول، ثم قدّم إليّ طعاماً وخبزاً وبعض الزيت والماء الآسن. بعد ذلك بوقت قصير حضر رجلان آخران كانا ينزلان معه في نفس الكهف. كانا هناك يقومان بأعمال الحصاد. بدأت أحدثهم عن يسوع، وأصغيا طويلاً لحديثي. ثم أخبرني أحدهما بأنه قادر على القراءة، وتمنّى لو أن بحوزتي كتاباً أعطيه إياه. وهكذا قدمت إليه نسخة من إنجيل متى وتركته يقرأه على أصحابه. من هنا وصلت إلى أحد مضارب البدو الرُّحّل حيث أقمت خيمتي؛ وسرعان ما تحلّق حولي حشدٌ من الناس يحدّقون بي باستغراب. ونظراً للجلبة التي كانوا يحدثونها، فقد أغلقت باب خيمتي وتوجهت إلى خيمة الضيوف. ولم تسنح لي أية فرصة خلال النهار للحديث عن يسوع.

ذلك أنّ القوم كان لديهم بعض الزوار، وكانوا منشغلين بتسوية بعض الأمور، لذلك اكتفيت بتناول وجبة عشاء قوامها البصل والماء، وبعد ذلك وعندما هدأت الأمور قمت وتربّعت على الأرض وسط اثني عشر أو أربعة عشر شخصاً.

وعلى اعتبارها كانت ليلة قمراء، فقد أمكنني تبيّن ملامحهم جميعاً بشكل واضح. وعندما أفصحت لهم عن رغبتي بالتحدث إليهم، طلبوا مني الشروع بالحديث على الفور وعدم التردّد في ذلك. وعندما وصلت إلى المقطع الذي يتحدّث عن موت يسوع، بدأ أحد الرجال بالعزف على الرّبابة، لكن الآخرين طلبوا إليه التوقف عن ذلك في الحال كيما يتسنّى لهم سماعي بوضوح.

وهكذا، هنا أيضاً، تحدثت إليهم حتى وقت متأخر من الليل ووافقوني بأن كل ما أخبرتهم إياه كان جيداً وصحيحاً[1].

---

(1) بمجرّد جلسة لمدة ساعات والاستماع إلى رجل غريب لا يجيد العربيّة، سيغيّر الناس قناعاتهم وتراث آبائهم وأجدادهم؟ أرى أن الناس استمعوا إلى كلامه كفاصل من سير الأنبياء، فأثنوا عليه ممّا جعله يظنّ أنهم قد تبنّو فكره الثيولوجي بالكامل! أيّ ساذج هو.

في اليوم التالي توجهت إلى بئر السبع، موطن الآباء القدامى ومخيّمهم المفضل. آلاف البدو يتجمعون هناك من كافة أرجاء الصحراء الرملية لتأمين الماء لقطعان أغنامهم وإبلهم.

لا تزال بئر السبع مثلما كانت عليه أيام سيدنا إبراهيم. والآبار السبعة التي حفرها «أبو المؤمنين» The Father of the Faithful ما زالت على حالها، ولا يزال الماء يستخرج من بعضها.

في أثناء أولى زياراتي إلى هناك، أشار بدوي عجوز جاهل أسمر ونصف عارٍ إلى أحد الآبار باعتزاز وأخبرني مغتبطاً بأن أباهم إبراهيم كان قد حفرها وسقى قطعانه منها.

الحجارة القديمة التي أبلتها الحبال وخلفت فيها أخاديد غائرة من كثرة الاحتكاك، كانت بمثابة شهادة دامغة على قدم عهد هذه الملاذات المانحة للحياة في هذه الصحراء القاحلة والمنعزلة المعروفة بالنقب Negeb.



سحب المياه في بئر السّبع

مرفاع بدائي يديره الجمل لسحب المياه من الآبار في بئر السّبع. وهذه الإنشاءات حديثة تماماً على الرغم من أن المياه يجري سحبها من البئر منذ قرون. وجميع أشغال الخشب من صنع النجارين المحليين.



بئر هاجَر في صحراء بئر السّبع

يعتقد العرب بأن هذه هي بئر المياه التي أخذت منها هاجر لتسقي إسماعيل (GEN. 21:19) وقد سبّبت حبال الرعيان تآكل الحجر وتكوين ثغرات فيها أثناء سحبهم للماء، ممّا يثبت قدم هذا البئر. ويبلغ قطر الفتحة حوالي عشرة أقدام وعمقها مئة قدم.

لـم يكن من الصعب استـدراج هـؤلاء الأعراب إلـى نقاش حول الدين، وبالنسـبة لأولئـك القادريـن على القراءة، فقد وزعت عليهم نسـخاً من الكتـاب المقدس مرفقة بدعاء علَّ القاريء يستمد منها العون.

في حالات كثيرة لا بدّ من مواجهة الجهلة والسفهاء ومداراتهم وأخذهم بالحُسنى، وقـد وقع لي العديد من الحـوادث المنغّصة التي كان يمكن أن يكون لها عواقب أليمة لولا تقدير العناية الإلهية التي تحيل نقمة العبد وغضبه إلى نعمة ورضا تغدقها عليه.

لـم أكتـفِ بزيـارة بئر السـبع وحسـب، بل أوغلـت أبعد من ذلـك إلى تلـك البقعة الموحشـة في عمق الصحراء. لقد اسـتوعبت أكثر من أيّ وقت مضى قصة الولد الذي أصبح رامي سـهام archer وسـكن تلك البرية بالذات. وقد تضاعفت مصداقية القصة وإثارتها عندما وقفت أمام البئر المكشوّفة في الصحراء واستمعت من أحد رعاة البدو إلى قصة إسـماعيل Ishmael وأمـه المحزونة هاجر Hagar، التـي لازال البئر يحمل اسمها.

لم يسـتقِ هـؤلاء البدوالرحل هذه الحقائـق التاريخية من أيّـة مصادرمكتوبة، وإنما وصلت إليهم بالتواتر جيلاً بعد جيل مع قدر طفيف من التحوير.

مُنعـتُ من المكـوث طويلاً قرب بئر هاجر، كيلا يؤدي وجـودي إلى جفاف الماء. وكانـت البنـادق والهـراوات جاهـزة للاسـتخدام فـي حال إصـراري علـى المكوث طويلاً.

سـاقتني الأقدار للقاء أحد شـيوخ القبائل الكرام، حيث رافقته إلى مضاربه المكونة من حوالي مئتي خيمة أو مايسـمى «بيت شـعر» House of hair. لقد كان رجاله قوماً جلفاً غلاظاً وعرين، ولولا كرم مضيفي وطيبته لكنت رحلت لتوّي عن هذا المكان.

مكثـت لعـدة أيـام مع هـؤلاء الناس فـي فلاة بئر السـبع، ثم أقنعت شـيخ العشـيرة بمرافقتي إلى موقع قـادش Kadesh–Barnea التاريخي. بعض الرجال الذين راعهم وجـود أجنبي في هذا المكان حاولوا منعـي من المتابعة، لكن وليَّ أمري المؤقت كان

لديـه من الحظـوة والنفوذ في تلك الأماكن مـا يكفي لإيصالي بأمان إلـى الواحة ذات الصلة الوثيقة بـ «تيه بني إسرائيل» wanderings of the Israelites.

لـم يلق وجودي فـي قـادش Kadesh–Barnea القديمـة ارتياحاً مـن جانب أبناء المنطقة المؤمنين بالخرافات الذين التقيتهم هناك والذين عارضوا هذا الوجود بشـدة. جلّهم كان من الرعاة الذين يخشـون «العين اللائمة» أو عين السـوء والحسد، ومجيء أيّ شخص ذي صفات غامضة إلى مناطقهم قد يتسبب بجفاف الينابيع وبوار الأرض. كانت البنادق مُعَمَّرة كتحذيرٍ لي في حال أقدمتُ على أيّ من ألاعيبي الساحرة؛ ولكن لـم يكـن هنالك ثمة من مناسـبة لاسـتخدامها، حيث أنـه لم يبدر منـي أيّ تصرف يثير الرّيبة.

لكن تسرّب قطرة من الشاي البارد من قارورة كنت أحملها وسقوطها على الأرض قـرب أحـد الينابيع أثار قدراً كبيـراً من الريبة والانفعال لأني كنـت بالتأكيد أحاول منع تدفـق الماء، الأمر الـذي كان يعني الكثير بالنسـبة لأولئك الجهلـة المنعزلين من أبناء الصحراء.

انهال التعنيف والكلام الجارح بحرّية وبلا ضوابط على صديقي العربي، الذي رأى أن من الصواب الرحيل عن المكان وترك جيرانه الجهلة بانتظار مصيبة ما تنزل بهم في أعقاب زيارتنا.

لكـن ما أثار دهشـة واسـتغراب أولئك الرّعاع أن أيَّة نُذر شـر لم تتـأتَ عن قدومي وتلحق الأذى بينابيعهم أوقطعانهم أو أنفسهم، الأمر الذي حدا بهم إلى استقبالي بقدر أكبر من الكرم والترحاب في زياراتي التالية.

لم تشـدّ اهتمامـي أرض آباء الأنبياء وحسـب، بل أيضاً تلك البقـاع جنوب مؤاب، المنتهية في مدينة البتراء (پِترا) المحفورة في الصخر، بوديانها وشعابها الضيقة الشديدة الانحدار، وآثارها الرائعة التي ظللتها الطبيعة بألوان وأشكال أخاذة تأسر الألباب.

قلائـل أولئـك الذين سـبروا أغـوار هـذه الأماكـن النائيـة المنعزلـة. فالطبيعة غير

المتحضرة لأبناء البدو والغياب الظاهر لأيّ عون بشـري وقت الحاجة دفعا بالكثيرين إلـى الإحجام عـن المغامرة بزيارة هـذه المدينة المحفورة بالصخر والزاخرة بالسّـحر والإثارة.

لقـد مكنتني معرفتي بالأرض وسـكانها من القيام بعـدة زيارات إلى هناك، خرجت منها بنتائج طيبة.

ففـي أول زيارة لي تعلمت من مجموعة من المتعصبين الجهلة أنني كنت في أرضٍ محروسةٍ بغيرة وحمية ذاكرةٍ وفطرةٍ دينية مقدسة، وأن وجودَ شخصٍ مسيحي فيها أمرٌ غير مرحّب به وغير مستحب.

من خلال التحقيق والاسـتقصاء المتأني والدبلوماسي، علمت من عرب البتراء أن مـا يسـمونه بقبر هـارون Tomb of Aaron يقع على قمة جبل هـور Mount Hor في مكان ليس ببعيد.

ومـن خلال الاسـتنتاج الدقيق والمتأنـي علمت منهم تاريخ وأصـل الكاهن الأكبر الأول لبني إسرائيل والفصل الأخير المأساوي المتصل بحياته.

بعد اسـتماعي لهـم، تلوت عليهـم مقاطع من الكتـاب المقدس حول هـارون وما يتصـل بموتـه فوق جبل هور Hor فـي إدوم Edom كما هي مدوّنة في الأسـفار .XX 23–29 من أسفار النبي موسى.



الضريح المقام على قبر هارون في إدوم

على قمة جبل هور في إدوم، على مسافة ثمانية أيام إلى الجنوب من القدس، يقع قبرهارون أول كاهن كبير لدى بني إسرائيل. والنّصب الذي يبدو واضحاً يقوم على القبر القديم الموجود في داخل كهف بالأسفل. والعرب يعدّونه واحداً من أهم مزاراتهم المقدسة، ويقصدونه لتقديم الأضاحي وطلب العون مـن النبـيّ. والحروف العبريّة تدلّ على أن اليهود في زمن مضى كانت ملكية القبر. ولقد زار المسـتر فوردر هـذا المكان أربع مرات، وهذه الصورة نادرة للغاية.

كانوا في غاية الاهتمام، وأكدوا لي أن القبر القديم فوق قمة الجبل هو تحت حراستهم وأنه لازال سليماً وآمناً من أيّ خطر أو أذى.

أعربت لهم عن رغبتي بزيارة مكان على هذا القدر من الأهمية، لكن الحميَّة والعصبية الدينية طغت على ما سواها، حيث أكدوا لي أن أيّ محاولة من جانبي لتسلق الجبل والاقتراب من القبر ستكلفني حياتي.

لقد كانوا مستعدين لحماية المثوى الأخير والأبدي لهارون حتى لو اضطرهم ذلك إلى قتلي.

لم يسبق لأيّ مسيحي قط أن اقترب من المكان، إذ أن مثل هذا الفعل سيثير سخط المتوفى ويستجلب الخراب والكوارث على المنطقة برمتها.

لقد توصلت إلى قناعة راسخة مفادها أنه بوجود مثل هؤلاء الجهلة المتهوّرين من أعراب البتراء والانتشار السريع للأسلحة النارية، فإن أية محاولة للقيام بزيارة قسرية قد تنتهي بكارثة. وهكذا غادرتُ تلك البقاع مكرهاً حزيناً، وإنما أكثر حكمة.

لكن الخبرة والإحساس الأفضل والمعرفة الأعمق بهؤلاء العرب هناك مكنتني منذ ذلك الحين من تسلق الجبل الوعر والاطلاع بأم العين ودون أدنى شك على القبر العتيق والحقيقي لهارون أخي موسى.

أعتبر نفسي محظوظاً كوني أول من نجح بالتقاط صور فوتوغرافية لهذا المزار الهام المحروس والمحفوظ بعناية في هذه الأصقاع الصخرية النائية من جبل سعير Mount Seir.

جرى القيام بالعديد من الرحلات من وقت لآخر إلى أماكن لم تطأها قدم بشر من قبل، وزيارات مثمرة للغاية تمّ القيام بها برفقة أبناء المدن والقرى أو البدو. ولا بدّ من تكريس أكثر من مجلد لوصف وتأريخ ما جرى معي من أحداث خلال الزيارات الأولى لأماكن جديدة.

مع ذلك، فإن قصب السبق لن يكون في النهاية إلا للصبر والمثابرة، وأولئك الذين

كابروا وعاندوا وآثروا الجفاء في البداية، باتوا اليوم في صفي وإلى جانبي.

ستبرز لنا الفصول التالية أحداثاً ومواقف أكثر إثارة كلّلتها العناية الإلهية أكثر ممّا هو مدون في هذه الصفحات. وأنا هنا أدين بخلاصي ونجاتي من كل المواقف والأخطار المحدقة التي ألمّت بي إلى الواحد الأحد الذي لا ينقض عهداً ولا يخلف ميعاداً، أوليس هو القائل:

«فلتعلم يا ابن آدم أني معك وملازمك على الدّوام حتى إلى نهاية العالم».



الفصل الثالث عشر

جزيرة العرب صحراء البحر

لقد عزّز التنقل والتجوال الدائم بين الأعراب في البراري وفي المنطقة الممتدة جنوب وجنوب شرق القدس من درجة اهتمامي بالتعرّف إلى ماهو أبعد من ذلك. غالباً ما كنت أستمع من زائر عابر لأحد مضارب البدو أو البلدات إلى حكايات وأخبار عن مدن وبلدات ومضارب جزيرة العرب الممتدة عبر السهول الرملية التي غالباً ماكنت أتأملها خلال فترة وجودي في مؤاب. بعد أن أثار فضولي ذلك الاتساع الممتد جنوب شرق القدس، اتّقدت في نفسي الرغبة في استكشاف الصحراء والوقوف على الإمكانيات الميسّرة لشخص راغب بسبر أغوار تلك المناطق، وهو يجاهر بنفسه على أنه مسيحي.

والمؤلفات القليلة جداً التي كتبها رجال من أمثال پالغريف Palgrave أو داوتي Doughty أو بُرتون Burton حول جزيرة العرب لم تكن توحي أو تبشّر بالأمان لأيّ شخص اختلط بهؤلاء الأعراب أبناء شبه الجزيرة.

لكن ما شجعني على المضي قدماً في مهمتي أناسٌ مهتمون بالعمل التبشيري في المناطق المتعطشة لهكذا تبشير، وهكذا فقد أعددت العدّة للذهاب والوصول إن أمكن إلى عاصمة شبه الجزيرة، وهي مدينة يقال لها حائل Hayel، ولقاء الحاكم المستقل لتلك البلاد، عبد العزيز بن رشيد[1].

---

(1) هو الأمير عبد العزيز بن متعب بن عبد الله بن رشيد، سادس حكّام إمارة آل الرّشيد في حائل

آثـرت في هـذا الفصل إعطاء لمحـة موجزة عن البـلاد التي أنا بصـدد التوجه إليها بهدف تعريف القاريء بموقعها وتاريخها وأحوالها.

جزيرة العرب – الموقع

تعد شبه الجزيرة المعروفة هذه الأيام بجزيرة العرب واحدةً من أقدم مناطق العالم. وقبل نزول أبناء يعقوب Jacob إلى مصر بزمن بعيد كان أبناء إسـماعيل قد اسـتوطنوا هـذه الأرض التـي أقطعهـم إياها اللـه. وقد جرى تعييـن حدود جزيرة العـرب منذ أن ذكرها الكتاب المقدس في سفر التكوين، XXV. 18.

مما لاشك فيه أن فلسطين وسوريا وشبه جزيرة سيناء Sinaitic Peninsula كانت تشـكل قبـل قرون عديدة أجزاءً مهمة مـن جزيرة العرب. يتحدث إشـعيا Isaiah عنها بقوله «جزيرة البحر» (xxi.1)*.

وعندمـا ينظر إليهـا المرء على أنها أراض صحراوية بمعظمهـا، ومحاطة بالماء من جميـع جهاتهـا تقريباً، نسـتنتج أن نبي الله إشـعيا لم يجانب الصواب فـي وصفه لهذه البـلاد. تقع جزيرة العرب بين مصر وفارس، وعلى نطاق أوسـع، بيـن الهند وأوروبا، ولها شريط ساحلي بطول حوالي أربعة آلاف ميل.

يحدّ جزيرة العرب من الشرق الخليج العربي وخليج عُمان، ومن الجنوب المحيط الهندي، ومن الغرب البحر الأحمر وخليج العقبة، بينما تمتدّ شماليّها صحراء مترامية الأطراف[1] غير محدّدة المعالم نكاد لا نعرف لها حداً مميزاً.

بين 1897–1906. تولى الحكم بعد وفاة عمّه محمّد بن عبد الله الرّشيد، الذي لم يعقب ذكوراً، وتزوجت ابنته نورة من ابن أخيه عبد العزيز.

(1) هي صحراء النّفود وإلى منكبها الشرقي صحراء الدّهناء. وسنرى في هذا الكتاب أدناه كيف سيتوجّه المؤلف إلى الجوف بأكناف النّفود، لكنه لم يجاوز تلك الناحية.

تغطي جزيرة العرب مساحة من الأرض تقدّر بحوالي الألف ميل طولاً والسبعمئة ميل عرضاً. وهي أكبر من فرنسا بأربعة مرات وأكبر من الولايات المتحدة شرق المسيسيپي.

التقسيمات الجغرافية

تُقسم جزيرة العرب إلى ثلاثةِ أجزاءَ رئيسيةٍ وهي: العربيّة السّعيدة Arabia Felix في القسم الجنوبي الغربي من البلاد؛ والعربيّة الصّخريّة Arabia Petrea في طرفها الشمالي الغربي؛ والعربيّة الصّحراويّة Arabia Deserta، وتضم الصحارى الداخلية الكبرى والأراضي المرتفعة.

تقسم هذه الأجزاء الرئيسية الثلاث من جزيرة العرب إلى أقاليم تعرف باليَمَن، ومن ضمنها حضرموت وعُمان ونجران، إلى جانب بعض المناطق الأصغر، كالحجاز على الساحل الغربي الذي يضم ضمن حدوده المدينتين المكرمتين بالنسبة لأتباع محمّد: مكة، مسقط رأس نبيهم، والمدينة، المكان الذي توفي ودفن فيه؛ ونجد، المركز العظيم، الذي يمتد إلى أقصى الشمال وأقصى الشرق، متناهياً عند تخوم العراق والأحساء Arag and Hassa، وجبل شمَّر Jebel Shomer على الحدود الشاميّة والذي يشكل فعلياً جزءاً من نجد.



جزء من (السّيق) في العربية الصخريّة

تبعد العربية الصّخريّة عن جنوب القدس رحلة عشرة أيام، وتشتهر بمدينة بترا الرائعة المنحوتة في الصخر. يتم الدخول إلى هذه المدينة عبر خانق طويل يطلق عليه العرب اسم «السيق». ويتلوّن الصخر على الطرفين بعدة ألوان، وهو في عدّة مواضع مغطى بالسّرخس والنباتات المتسلقة. يبلغ طول الخانق حوالي ميل واحد وينتهي إلى واجهة هيكل مذهل منحوت في الصخر.

المدن الرئيسية

في اليَمَن هنالك صنعاء العاصمة والحُديدة الميناء الرئيسـي، إلى جانب العديد من البلدات الأصغر غير ذات شـأن. لا يمكن أن نطلق على عَدَن تسمية المدينة، رغم أنها مكان لا يستهان به، بل هي في الحقيقة قلعة تحرس الطريق إلى الهند.

تشـمل مدن الحجاز الرئيسية مكة والمدينة وأيضاً الطائف Tayf، التي لاتبعد كثيراً عن مكة. ميناء الحجاز هو جدّة، أما ينبُع Yambo فيُستخدم في فصول معيّنة من العام. وعاصمـة نَجـد هي حائل. أما الرّيـاض وعُنيزة وبُريدة والدِّرعيّة فهـي عبارة عن مراكز سكانية كبيرة تابعة لنجد وملحقة بها.

يضـمّ إقليم العـراق Arag العديد من المدن والبلدات وأهمهـا بغداد. أما الكويت والهفـوف Hofoof فتشـكلان الوجـه المشـرق للأحسـاء Hassa. وفـي كل هـذه التقسـيمات والأقاليـم تجد أعداداً لا تحصى من المدن والبلـدات التي يضيق المجال عن ذكرها جميعاً في هذا الكتاب.

السلطة والنفوذ الحكومي

هنالـك ثلاثُ قوى تتحكم بشـؤون جزيرة العرب وحركاتها. تقـع اليمن والحجاز والأحسـاء والعـراق بكاملها تقريباً تحـت إدارة الحكومة التركية وسـيطرتها، كما هي الحال بالنسبة للشطر الشرقي من شبه جزيرة سيناء.

بينما يقع سـاحل الخليج العربي وجزء لا بأس به من المناطق المحيطة بعَدَن تحت السـيطرة البريطانية؛ أما نَجد، البرّ الداخلي العظيم، فلها حاكمها الخاص المستقل عن أيّ من القوى العظمى، حتى جارته تركية.

وعلـى الرّغـم من محاولات عديدة لضم نجد إلى جانـب مصر بل حتى تركية، فإن تلك الهضبة المنبسـطة لازالت حرّة ومسـتقلة. وقد لا يطول الزمن حتى تحكمَ جزيرة

العـرب حكومـةٌ أكثرُ حزماً وتنوراً وتسـتخدمها كجسـر يربط بين الشـرق والغرب، ما يختصر المسافة المكانية والزمنية بينهما.

من ستكون تلك القوة وكيف سيكون حالها، هذا ما سنعرفه مستقبلاً[1].

السكان واللغة

فـي بلاد مغمـورة إلى هذا الحـد كجزيرة العرب لـم تعرف يوماً إحصاءً لسـكانها، يكون من الصعوبة بمكان حتى تقدير عدد سكانها على وجه التقريب.

ثمّـة تقديـرات متفاوتـة لعـدد سـكانها كانـت تجري من وقـت لآخر خـلال القرن الماضـي من قبل أولئك الذين أقدموا على سـبر أغوار هـذه البلاد. فقدّر البعض العدد الإجمالي لسكان جزيرة العرب بثمانية ملايين نسمة، والبعض الآخر قدر العدد بأربعة عشـر مليون نسـمة. لكن من المتفق عليه عموماً أن أحد عشـر مليونـاً هو رقم منصف للتقسيمات الثلاثة الكبرى التي تشتمل عليها جزيرة العرب.

وكائنـاً مـا كان عدد ملايين جزيرة العرب، فقد حققنـا بها الوعد المكرر أربع مرات والمتعلق بإسماعيل: «سيصبح أمةً عظيمة لا يحدّها حدّ ولا يحوطُها عدد».

واللغة التي يتحدثها كافة أبناء جزيرة العرب هي العربية، بلهجات ولكنات ومفردات مختلفة تبعاً لأقاليمها المختلفة. لكن أنقى أشكال اللغة العربية وأكثرها صفاءً نسمعها فـي نَجد، ولعل السـبب يعود إلى عزلتها وعدم اختلاطهـا باللغات الأخرى. والجدير

---

(1) صدق فوردر، ففي مطلع القرن العشرين ستقوم الدّولة السّعودية الثالثة، على يد عبد العزيز ابن عبد الرّحمن الفيصل آل سعود، وتتحوّل إلى مملكة. أمّا العراق والحجاز فسيستقلان عن تركية في عام 1918 م بعد قيام الثورة العربيّة الكبرى بقيادة شريف مكّة حسين بن علي ومؤازرة الإنكليز. وأما منطقة الخليج العربي فقد قامت فيها إمارات ودول مستقلة تحت الوصاية البريطانيّة منذ معاهدة الصّلح الدائم عام 1853 وستنال استقلالها الناجز في مطلع عقد الستينيات من القرن العشرين.

بالذكر أن اللغة العربية هي من أصعب اللغات على التعلم.

قبل الانطلاق نحو الميدان تلقى الكاتب معلومةً من قبل أحد علماء العربية المخضرمين تقول: «لقد درست العربية على مدى أكثر من أربعين عاماً، وها أنذا بالكاد بدأت أفهمها».

والآن اسمحوا لي أن أستشهد بما كتبه آيون كيث فالكونر Ion Keith Falconer من مصر بعد نيله درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف في اللغات السامية Semitic Languages Tripos من جامعة كامبردج واتباعه لدورة خاصة باللغة العربية في لايپتزيغ Leipzig:

«أنا أبلي بلاءً حسناً في اللغة العربية، لكنها لغةٌ صعبةٌ إلى درجة مروّعة».

وبعد خمس سنوات كتب من عَدَن قائلاً: «أنا أتعلم التحدّث بالعربية بشكل جيّد تماماً، ولكن سيمضي علي وقت طويل قبل أن أغدو قادراً على خوض حوارات حقيقية».

إن تحقيق تقدّم حقيقي على صعيد تعلم العربية يعني سنوات من الدأب المضني والاجتهاد الذي لا ينتهي. والعربية لأغراض التبشير لا يمكن تلقفها كيفما اتفق.

ديانات جزيرة العرب

لطالما كانت جزيرة العرب أرض العقائد والديانات، ولطالما كان لهذه الديانات والعقائد أتباعها ومعتنقوها خلال مراحل مختلفة من التاريخ، ومن ضمنها اليهودية والمسيحية الأولى، وحتى الوثنية التي أفسحت المجال أمام أكثر الممارسات الدينية قسوةً وانحطاطاً وبشاعة.

وعبدة النجوم والشمس والنار، جميعهم ناصروا معتقداتهم وأشكال عباداتهم وقرابينهم ودافعوا عنها في جزيرة العرب، لكنها ظلت بالنسبة لأنصار الصحراء العظام

بمثابة البوتقة التي جمعت أبناء «صحراء البحر» تحت لواء واحد، ودفعتهم في النهاية إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وبمحمّد رسول الله.

علـى مدى ألـف وثلاثمئة عام، لا يزال أبنـاء جزيرة العرب متمسـكين بقوة بتعاليم الفتى المكّي، وهم يُعرفون اليوم بالمسلمين أو المحمّديين.

وما زال آلاف اليهود يعيشون في اليمن والعراق وسواحل الخليج العربي محاطين بقدر من التسامح وحسن المعاملة من جانب المسلمين، إلى جانب الخدمات والجزية والمنافع التي ينالونها منهم من وقت لآخر.

لا يكِنُّ الفرعان الرئيسـيان لسـلالة إبراهيم فـي جزيرة العرب أيّة مـودة أو حتى احترام بعضهمـا للبعـض الآخـر، رغـم عُجبهم الشـديد بأنفسـهم وزهوهـم وتكبّرهم علـى أبناء عمومهم وعصبهم. وسنتطرّق في فصل آخر إلى وصف عقيدة الوقت الحاضر للعرب.

منتجات جزيرة العرب

لا يمكن توقع الكثير من مثل هذه الأرض القاحلة، ومع ذلك فهنالك سـفن بخارية تجاريـة مختلفة تمخر عباب البحر ناقلة شـحنات البضائع المختلفة لاسـتخدامها في بلاد أخرى.

تصـدّر اليَمَن كمياتٍ كبيرةً من البُنّ وجلود الحيوانات والسـنامكّي والبخور، بينما تصدّر شواطىء الخليج العربي والأراضي الداخلية المحاذية لها التّمور إلى كافة أنحاء المعمـورة. أما إقليم نجـد، الجوهرة الداخلية غير المسكتشـفة لجزيرة العرب، فتزوّد الجيش البريطاني بآلاف الجمال والخيول.

والمراكز السـكانية الكبرى في فلسـطين وسـوريا، وحتى مصر، لديها مواردها من اللحـوم، إذ تغذيهـا عشـرات الآلاف مـن رؤوس الغنـم والماعز التي تربـى في جبالِ وواحاتِ جزيرة العرب.

الحيوانات البرية والداجنة

نظراً لطبيعتها الصحراوية، ليس لدى جزيرة العرب الكثير لتقدمه على هذا الصعيد. تشتمل الحياة البرية لجزيرة العرب على تشكيلة من الحيوانات، منها الذئب والخنزير البري وابن آوى والضبع والثعلب والمها الوحشي (وهي بحجم الحمار) والغزال والأرنب. أما الحيوانات الداجنة، فهي رغم قلّتها تتمتع بأهمية كبيرة نظراً لمنافعها العظيمة.

تشمل الحيوانات الداجنة الجمال والخيول والبغال والحمير والبقر والغنم والماعز. أما الكلاب فهي متواجدة في كل مكان، وهي في الصحراء تقوم بمهام الحراسة والحماية والتنبيه لوجود أغراب. وهنالك أيضاً عدد من الطيور والزواحف، وهي عديمة الفائدة عموماً، باستثناء النَّعام.

وسائط النقل

لم تكن الطرقُ حتى عهدٍ قريب معروفةً في جزيرة العرب. حتى في أيامنا هذه، هنالك طريق واحدة فقد قيد الإنشاء. وهنالك سكة حديد يجري إنشاؤها بين دمشق ومكة برعاية الحكومة التركية، حيث جرى جمع الموارد المالية لها من كافة أرجاء العالم الإسلامي.

إذا ما قُدّر لهذا المشروع أن يُنجز بنجاح، فسيكون بمثابة معجزة من معجزات العصر الحديث، ويُسهم بلا أدنى شك في سبر أغوار تلك البلاد وانفتاحها على العالم ومساعدة الرحالة الباحثين والمستكشفين في الوصول إلى مكة.

لكن الزمن وحده كفيل بالإجابة على هذا السؤال: «هل سيُنجز هذا المشروع؟»[1].

---

(1) نعم، تمّ إنجازه في أيام السّلطان عبد الحميد الثاني، الذي كان أكبر مشجّع له، وكان المشروع يعرف بالخط الحديدي الحجازي Hicaz Demir Yolu وأنجز بالاستعانة بخبرات ألمانيّة. وتمّ افتتاحه رسمياً في عام 1908، لكنه لم يعمّر سوى عشرة أعوام فقط، إذ راح العقيد البريطاني

فـي الجبال، حيـث يمكن الحصول على المـاء مرة واحدة في اليـوم، يمكن اكتراء البغل أو الحصان أو الحمار للقيام برحلة لقاء دريهمات معدودة.

إذا ما رغب المرء في عبور الصحراء آخذاً ندرة الماء بعين الاعتبار، فالجمل، رغم افتقاره للحُسن والجاذبية، هوالضالة المنشودة.

بفضل خفّه الإسـفنجي وعنقه الطويل وبصره الحـاد، وقدرته على احتمال العطش لعشرة أيام، يعدّ الجمل حيواناً مجهزاً بشكل مثالي للرحلات الصحراوية. وإذا ماعومل بلطـف وعُلف بانتظام فسـيؤدي هذا الحيوان الصبـور والمظلوم إلى حدّ كبير خدمات جُلّى ويحمل راكبه مئات الأميال إلى أصقاع لم يكن بالغها إلا بشق النفس.

أمـا المركبات ذوات العجلات فهي غير معروفة عملياً في جزيرة العرب، باسـتثناء الشريط الساحلي.

ما الذي يجري إعداده للتبشير في جزيرة العرب؟ القليل فقط؛ لكنا نحمد الله على هذا القليل.

هنالـك بعثة تبشـيرية صغيرة فـي عَدَن تهتـم بالاحتياجـات الماديـة والبدنية لأبناء المنطقـة، كمـا أن تعاليـم الكتاب المقدس التبشـيرية تتلـى بإخلاص علـى الناس في مستوصف المدينة يومياً[1]. وهذا العبء يقع على عاتق رجل واحد هناك.

لورنس يدمّر خطوطه من الحجاز إلى العقبة ومعان، ولم يجر إصلاحه إلا بعد عقود طويلة. انظر حوله ما نشرناه في هذه السلسلة من رحلة البريطاني آرثر جون واڤل (1908) والألمانيّة دوروتيا فون لينكِه، أي الكونتيسة مالمينياتي (عام 1914).

(1) ينبغي الإشارة إلى أن الباب الذي حاول منه المبشّرون الإنكليز والأميركيّون دخول مجتمعات جزيرة العرب كان تحديداً إقامة المستوصفات والمشافي، وأكبر دليل على ذلك مشفى الإرساليّة الأميركيّة في البصرة (1891)، والبحرين (1893)، ومسقط (1913)، والكويت (1913). وكذلك عندما وضع الإنكليز موطئ قدم لهم رسميّاً في مسقط، قاموا هم أيضاً باستخدام الطبابة لصالحهم، فبعد المعاهدة التي أُبرمت ما بين ضابط المستعمرات الإنكليزي الكاپتن جون مالكوم John Malcolm وحاكم عُمان سلطان بن أحمد في عام 1800 م، تولّى طبيب جرّاح مسؤوليّة أوّل بعثة ديپلوماسيّة إلى مسقط. وكان في الوقت ذاته الطبيب الخاصّ للإمام.

هنالـك مقـرّ خاص بجزيرة العرب للبعثة التبشـيرية للكنيسـة الإصلاحية الهولندية فـي أميـركا The Dutch Reformed Church of America علـى جزر البحرين في الخليـج العربـي. وهنالك عدد من المحطـات على امتداد السـاحل، وهي، على غرار مثيلاتها، بانتظار الوقت الذي يتهيأ لها فيه المدد البشـري والمادي للانتقال إلى داخل البلاد. عجّل الله حلول هذا الوقت!

هذان المسعيان، إضافة لمسعى الكاتب، تمثلمعاً كل ما هو متيسر حالياً للتبشير في جزيرة العرب وخلاص إسماعيل[1].

يُعدّ المؤلف أول مبشـر مسـيحي يسـبر أغوار جزيرة العرب التي ستوافينا الفصول التالية بشرح مفصل عنها.

تحتاج جزيرة العرب على الفور إلى:

البعثة التبشيرية التمهيدية The Pioneer Missionary

البعثة التبشيرية الطبية The Medical Missionary

البعثة التبشيرية التبشيرية The Evangelizing Missionary

البعثة التبشيرية التعليمية The Teaching Missionary

هـل يبادر بعض قراء هـذه الصفحات إلى التبرع بالمال لمسـاعدة البعثة التبشـيرية في التبشـير بجزيـرة العـرب، مثلما يبادر أثريـاء نيويورك إلـى التبرع لتمويـل البعثات الاستكشـافية للقطب الشـمالي، مسـتجلبين الفضل والمفخرة والرفعة لبلادهم جراء مثل هذه الأعمال؟!

(1) وكأن بني إسماعيل كانوا مثلاً ضائعين! حقاً إن هذا المبشّر الشاب على قدر وافٍ من السّذاجة. من الواضح تماماً أنه لم يُتح له قراءة شيء من التراث الدّيني والعلمي والفلسفي والأدبي العظيم للإسلام، على غرار معاصره الأميركي ألكساندر رَسل وِب Alexander Russell Webb الذي اعتنق الإسلام في عام 1888 وراح ينشره في أميركا. انظر حوله كتاب: رحلات المغامر العربي الحاج عبد الله وليَمسون.

هل بوسعنا نحن أصحاب النفوس النيّرة

بفضل الحكمة الإلهية التي منّ الله بها علينا

أن ننكر على من يعمهون في عتمة الزيف والضلال

نورَ الهداية الذي يعينهم على تلمس سبيل الخلاص؟

بناء على تجربتي في جزيرة العرب، يبدو أن بوسعنا ذلك[1].



(1) وبناءً على تقييمٍ رحلات فوردر التبشيرية ومن بعده زويمر، من البديهي أن نقول إنّ فشلهما كان هائلاً ومدوّياً.

الفصل الرابع عشر

محاولات لدخول جزيرة العرب
تنتهي باعتقال وسجن وعظام مكسرة

لقد أسهم الفصل السابق في تعريف القارىء بجزيرة العرب، حيث أن رغبتي كانت بارتيادها وتهيئتها للعمليات التبشيرية. وكلما كانت رغبتي تزداد كانت المصاعب تتفاقم وتتراكم، وقد عمد أولئك المهتمون برحلاتي وعملي إلى ثنيي وبقوة على عدم الإقدام على القيام بهذه الرحلة لوحدي.

لقد كانت فكرة اصطحاب رفيق فكرةً صائبة؛ وقد تم طلب متطوعين لهذه المهمة، فانبرى لها اثنان من الشباب بادرا إلى عرض خدماتهما، وكل منهما يعتقد في قرارة نفسه أنه الفتى المناسب لهكذا مهمة.

وقد تمّ كما هو متوقع تأمين الموارد المالية لهذه الرحلة بشكل كامل، ولم يعد ينقصني سوى وصول الرفيق.

وانقضت الشهور وكانت الأعذار تتوالى الواحد تلو الآخر لتأخير الانطلاق. وفي نهاية المطاف قرّر المتطوعان كلاهما الإقلاع عن هذا المشروع جملة وتفصيلاً، الأول كونه آثر البقاء مع عروسه الجديدة، والثاني بسبب افتقاره إلى الإيمان والشجاعة اللازمة للقيام بمثل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، دون التعويل على مساعدة أحد.

منذ ذلك الحين وأنا ممتن لله على انسحاب الشابين من هذا المشروع، لأن الفصول

التالية ستكشف عن هول المصاعب والأخطار التي كانت بانتظارنا، والأرجح أن هذين المتطوعين كانا سيشكلان عائقاً أكثر منه عوناً لي في هذه المهمة.

الآن برز السؤال التالي: «هل كان من الصواب تأجيل الرحلة، أم كان من الأجدى الانطلاق بها وحدي؟».. فآثرتُ الخيار الثاني. وهكذا شرعت بالاستعداد للرحيل، وخلال فترة وجيزة كنت جاهزاً للانطلاق. نسخ الكتاب المقدس، حاجياتي الخاصة، بعض العقاقير العلاجية والملابس، جميعها جرى تحضيرها وحزمها استعداداً لبدء الرحلة.

وأخيراً، تمّ اكتراء الدواب والرجال لنقلي إلى تخوم الصحراء على الجانب الشرقي من القدس. وجهتي الأولى في هذه الرحلة كانت بلدةً تدعى مَعان Maan، وهي تتألف من بلدتين مزدوجتين عند الطرف الشمالي لصحراء جزيرة العرب، وهي تبعد حوالي مئتي ميل عن القدس، ومن تلك البلدة المزدوجة كنت متيقناً من العثور على أحد مضارب البدو أو الالتحاق بإحدى القوافل العابرة التي ستقلّني إلى أول امتدادات الصحراء التي يتوجّب على عبورها.

كانت بداية انطلاقي في هذه الرحلة حوالي نهاية العام 1899 برفقة ثلاثة رجال معروفين من قبلي. كانت حقائبي محمّلة على زوج من البغال؛ بينما خصّصتُ بغلاً ثالثاً لركوبي.

كان كل شيء على مدى أربعة أيام يسير على ما يرام. ثم طرأ ما أعاق تقدمنا، وكان أمراً متوقعاً.

كنا قد وصلنا إلى أحد مضارب البدو عند الطرف الشرقي لسهول مؤاب الشاسعة. الناس هناك كانوا قد شاهدوني من قبل، وفي الحقيقة، فقد سبق لي أن عالجتُ أحدهم بعد معركة شرسة مع إحدى القبائل المعادية. لذلك فقد استقبلتُ بحفاوةٍ بالغة وعوملت بأحسن ما تكون المعاملة كضيف معزّز مكرّم.

نهضتُ باكراً في صباح اليوم التالي وأنا على أتم الاستعداد للشروع في المرحلة

الثانية من رحلتي، لكن مُضيفيَّ أصروا على استبقائي لقضاء اليوم معهم، فوافقتهم.

قضيتُ شطراً من ذلك اليوم في خيمة الضيوف، حيث اجتمع العديد من الرجال للتسامر وشرب القهوة، لكنهم وافقوا بسرور على الاستماع إلي وأنا أقرأ لهم مقاطع من الكتاب المقدس وأحدثهم عن المخلص وحاجتهم لتكفيره عن آثامهم.

وجدت عدداً من الرجال القادرين على القراءة، حيث قمت بإهدائهم نسخاً من الكتاب المقدس وبعض النصوص الدينية التي تتلى أيام الصوم، فتقبلوها شاكرين.

لقد هيّأت لي الزيارات المتكررة إلى الخيام الفرصة للتحدث إلى الناس أو إسداء بعض النصائح اللطيفة للنسوة المنشغلات ببعض واجباتهن العديدة.

وحلّ المساء، وما إن انتهينا من تناول طعام العشاء وبدء التحضير لقهوة ما بعد العشاء، حتى تناهى إلى سمعنا وقع حوافر خيل على الأرض الصلبة، يخالطه صليل السلاسل وقعقعة السلاح.

انطلقت كلمة «العسكر» من شفاه عديدة. ولم يكادوا ينطقوا بهذه الكلمة حتى تقدم ستةٌ من جنود الخيالة الأتراك بإمرة ضابط وتوقفوا عند باب الخيمة الطويلة السوداء. وبعد أن ترجلوا وعقلوا جيادهم بحبال الخيمة أو أوتادها، دخلوا إلى الخيمة ثم سألوا بنبرة حادة: «أين هو ذاك الرّحالة الذي تستضيفونه هنا؟» ساد الصمت لبرهة، ولم يجرؤ أحد من أصدقائي المذعورين أن ينبس ببنت شفة. وحيث أنني كنت مرتدياً الزي التقليدي لأبناء المنطقة، لم يتنبه أحد لوجودي وسط الجمع.

نهضتُ وتوجهت إلى الضابط الفظّ وأخبرته بأني أنا الشخص الذي يستفسرون عنه، وسألته عمّا يريد مني. أخبرني أنه قد أُرسل لاعتقالي وأخذي إلى الحاكم التركي في مكان يبعد حولي ثلاثين ميلاً.

اقترح عليهم شيخ القبيلة أن يمضوا الليل هنا في مضاربه، لكنهم رفضوا، ثم طلبوا إحضار دوابي وأمتعتي، فأُحضِرت على الفور، وفي غضون دقائق كنا في طريقنا إلى الحاكم، أنا في وسط الجنود، والأمتعة والدواب في الخلف يقودها بعض الأعراب،

الذين أُرغموا على غير إرادة منهم على القيام بهذا المسير الليلي.

سرنا لحوالي ثلاث ساعات، لم نتفوّه خلالها سوى ببضع كلمات. في إحدى المرات، عمد الضابط الفظ إلى شتمي ونعتي بالكلب، كوني السبب وراء إرسالهم في هذه المهمة على جناح السرعة وتجشمهم هذا العناء لاعتقالي.

ثم تفوَّه بأشياءَ أخرى في أثناء مسيرنا كوني تماديت معه في الكلام ونبّهته إلى أن من غير اللائق ولا في صالحه أن ينعت رجلاً إنكليزياً بالكلب.

تلقى الرجل تعنيفي وتحذيري له على محمل الجدّ، وأعتقد بأنه بات أكثر تعقلاً وحذراً، أو على الأقل بات أكثر هدوءاً بالتأكيد.

في حوالي الساعة العاشرة لمحنا نيران المعسكر، ثم ترجلنا على الفور عند باب خيمة الزوار. كان الناس يعرفونني وأسفوا لرؤيتي قيد الاعتقال. ثم لم يتردّدوا في إخبار العسكر عن مساعدتي إياهم أوقات الشدة، حتى أن أحدهم شمّر عن ساعده ليريهم أثرَ جرح جراء طعنة رمح كان قد تلقاها وقمت بخياطته له.

أمضيت تلك الليلة في عهدة من أسروني، ثم أيقظوني صباح اليوم التالي لمتابعة المسير.

وبعد حوالي أربع ساعات وصلنا إلى المكان الذي كان العسكر قد قدموا منه. أخذوني إلى دار السّرايا وسلموني للضابط المناوب هناك. لم يجد فيَّ الضابطُ ذاكَ الصيدَ الثمين، وأخبرني بوجوب الرجوع إلى القدس تحت الحراسة حيث أن الأوامر تقضي بعدم السماح لأيّ رحالة بسلوك ذلك الطريق دون إذن خاص من القسطنطينية. مكثت أسبوعاً في تلك المدينة العربية، حيث تخلصت من معظم كتبي ثم أُرسلت إلى القدس تحت حراسة ثلاثة جنود.

رغم أن أولى محاولاتي انتهت بفشل واضح، إلا أنني اكتسبت منها قدراً لا بأس به من الخبرة والمعرفة التي أفدت منها فيما بعد، وقد صدق فيَّ القولُ بأنَّ رُبّ ضارة نافعة.

فـي أوائـل الربيـع التالي[1]، انطلقـت مرة أخرى، وهـذه المرة بصحبة أحد السـادة المحترمين[2] الذي كان ولأغراض البحث الجغرافي والعلمي في زيارة لإدوم Edom في طريقه إلى معان.

بمـا أنه كان قد اسـتحصل علـى إذن حكومي، فقـد وصلنا في الوقـت المحدد إلى المكان الذي كنت قد انطلقت باتجاهه في رحلتي السابقة ولم أفلح في الوصول إليه.

بعد بضعة أيام أمضيناها في معان، رجع صديقي من رحلته تاركاً إياي وحيداً، على أمل استكمال مسيري شرقاً.

هنا في معان أيضاً التقيت بأناس يعرفونني من خلال عمل جراحي أو مساعدة طبية كنت قد قدمتها لهم قبل سنوات عندما كنت في الكَرَك.

لا أحد يعرف قيمة البعثة الطبية كوسـيلة لاستكشـاف وسبر أغوار بلاد جديدة؛ هذا مثال من عدة أمثلة أخرى من بلاد أخرى. لا أحد يجدر به أن يستهين أو يستخف بعمل البعثة الطبية.

وضعـوا منـزلاً بتصرفـي أودعت فيـه كتبـي وحاجياتي. وكان سـريري عبـارة عن كيس ممدود على الأرض القاسـية، ودثاري في الليل لم يكن سـوى عباءتي التقليدية الفضفاضة.

كل شـيء سـار على مـا يرام في خلال الأيـام الثلاثة الأولى. ومقابل نسـخ الكتاب المقـدس كانوا يعطونني البيض والخبـز والفاكهة، وكنت أجلب الماء من ينبوع قريب لأغراض الشرب وغسيل الثياب.

فـي عصر اليوم الثالث، حضر أحد العسـكر إلى بـاب منزلي ومعه أمر بمثولي حالاً

(1) يقصد ربيع عام 1900 م.

(2) أظنـه يعنـي الآثـاري الأميـركي الشهيـر هـاورد كروسبـي بتلر Howard Crosby Butler (1872-1922) الذي قام بثلاث بعثات أثريّة في الصحراء السّورية وجنوبي بلاد الشام، وله مؤلفات عديدة مهمة.

أمام الحاكم المحلي. كان أحد الذين أسهموا بدور أساسي في مجزرة الأرمن قبل مدة، وقد كوفئ من قبل الحكومة التركية بتعيينه حاكماً لمعان.

ذهبت إليه، حيث بدأ بترويعي وإخافتي، ثم أمرني بمغادرة المكان خلال ساعة واحدة. أخبرته بأني مخوّل بالتواجد هناك بحكم القانون، وأبرزتُ له جواز سفري التركي. سخر من ذلك وقال أن بوسعه التصرف على هواه بصفته الحاكم هنا. ثم أمر بحجزي داخل إحدى الغرف الصغيرة حتى الصباح ريثما يتم إبعادي عن المكان تحت الحراسة.

وهكذا، فقد تم وضعي رهن الاحتجاز مع اثنين آخرين طيلة تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي حضر إلينا اثنان من العسكر ومعهما بغل لتحميل أمتعتي. أُمرتُ بالركوب، ثم قدّموا لي كسرتين من الخبز اليابس حيث جرى إبعادي عن معان تحت حراسة اثنين من العسكر، مديراً ظهري لجزيرة العرب للمرة الثانية، تملؤني العزيمة والتصميم أكثر من أيّ وقت مضى على عدم الاستسلام للفشل.

ولكوني جربت الطريق الجنوبي مرتين وفشلت في كلتا المحاولتين، فقد قررت أن أجرب الطريق الشمالي وأحاول الالتحاق بإحدى القوافل المتجهة إلى جزيرة العرب من دمشق.

بعد مكوثي لعدة أيام في البيت، مضيت في انطلاقة جديدة، في اتجاه آخر مغاير تماماً هذه المرة.

في اليوم الرابع من انطلاقتي، وبينما كنا نسير الهوينى في طريق متعرجة، انتاب الحصان الذي أمامي حالة من الهياج المفاجئ وشرع بالرّفس والركل، وقبل أن أتنبه لما حدث، وجدت نفسي ملقى على الأرض أسفل حصاني علي عند حافة المنحر الحاد وساقي اليسرى مكسورة.

بقيت ممدّداً هناك لعدة ساعات، بينما هرع أحد الرجال عائداً إلى أقرب نقطة مأهولة لتأمين طبيب. وبعد أن عاد الرجل حُملت إلى منزل الطبيب بساق مثبتة إلى دعامة خشبية.

كان العظم قد تشظّى بشدة، ما اضطرني إلى الاستلقاء في الفراش لأسابيع وساقي في الجبيرة. وأخيراً تم نقلي إلى بيتي في القدس ومن ثم أُبلغتُ بأني لن أتمكن من استخدام ساقي بعد اليوم كون العظم جُبّر بطريقة خاطئة. أملي الوحيد كان في الذهاب إلى المستشفى لإعادة فتح الساق وكسر العظم واستخراج بعض الشظايا ومن ثم إجادة تجبيره من جديد بالشكل المناسب.

فعلتُ ما أشير علي به، وفي غضون بضعة أسابيع كان بمقدوري التحركُ على عكازين. وبعد مدة بالاتكاء على عصا، ثم بات بإمكاني التحرك بحرية دون الاستعانة بشيء، الأمر الذي أشعرني بالسّرور والبهجة.

مرة أخرى تأخر دخولنا لجزيرة العرب، وكان قد جرى ما فيه الكفاية لتثبيط أيّة رغبة أو حماسة مزعومة لديّ للقيام بذلك، هذا إن كان مثل هذا الشيء له وجود أساساً، وفي مطلق الأحوال بالنسبة لحالتي أنا لم يكن له وجود.

لكن هذه المعوّقات وخيبات الأمل المتتالية جعلتني أكثر تصميماً على تنفيذ ما كنت عازماً على تنفيذه، لاعتقادي بأنها رغبة زرعها الإله في نفسي.

نصحني البعض بالتخلي عن هذه الفكرة من أساسها، لأن القدر بلا شك كان ضدّي في ذلك. لكني لم أكن أرى أن طريقي كانت سالكة في هذا الاتجاه، لأن هداية إسماعيل Ishmael وخلاص جزيرة العرب the Redemption of Arabia لا يمكن أن يبقى في خطر، ولا ينبغي لأيّ من هذين الأمرين أن يتم من دون عثرات وإخفاقات ومحاولات دؤوبة قدَّرها حكيمٌ لا يخطيء، يجعل للمتقي مخرجاً من حيث لا يحتسب.

كان يمكن للاعتقال والأسر أن يُحبطا من عزيمتي، والساق المكسورة أن تُفسَّر على أنها فأل سيء، لكن اليسر تمخّض من كل ذلك العسر بفضل المعاناة والمعرفة والإيمان الأشد رسوخاً والرؤية الأعمق، وعلى رأس ذلك كله بالنجاح الذي أسهم الكثيرون في التمهيد له والإيمان به ولو طال الزمن به ليتحقق.

كانت حلاوة النجاح ألذ طعماً ومشاعر الغبطة والسرور أقوى وأعمق، لأن ماتحقق تحقق بعد سلسـلة من المعوّقات وخيبات الأمل المريرة. والفصول القادمة ستخبركم عن أيام أفضل وعن وصولي إلى تخوم الصحراء.





امرأة مسيحية من مؤاب

هذه المرأة من سكان الكرك عاصمة مؤاب، وهي تنتمي إلى عائلة الشيخ هناك. قارنها بالنسوة الثلاث الواردة صورتهن أعلاه ترى الاختلاف واضحاً تماماً. وأسرتها مشهورة جداً بين العرب لحسن ضيافتها، وهذه المرأة وزوجها دائماً يكرمان المستر فوردر أثناء زيارته إلى بلدتهم، مقابل الخدمات التي أسداها لهما خلال مدّة الطويلة من المرض والمتاعب.

الفصل الخامس عشر

مغامرة رابعة تحملني إلى تخوم الصحراء

لـم تثبـط الإحباطات وخيبات الأمل السـابقة من عزيمتي إلـى الحد الذي يحملني علـى التخلي عـن فكرة الوصول إلـى إقليم وبلدة الجـوف Jowf، أهـم وأكبر بلدات شمال جزيرة العرب[1].

بالرغـم مـن المصاعـب والأخطـار والمعوّقـات التـي واجهتنـي والتـي يمكن أن تواجهنـي، فـإن توقعي لهـذه المصاعـب والأخطار والمعوقـات وتوجسـي منها قبل وقوعها كان كفيلاً بأن يؤدي إلى الإحباط.

العديـد مـن أصدقائي رأوا بأنّ قدر الله قد حان للقيام بمحاولة أخرى للوصول إلى مـا وراء مـؤاب وإدوم. كنا قد أملنا بأن مرافقاً رحّالـة كان، حتى آنذاك، في طريقه إلينا، لكننـا لم نحظ بأيّ متطوع. بالتالي، وبقدر من التردّد، سـمحت لـي جماعتي الصغيرة بالذهاب لوحدي.

في صباح يوم الخميس الثالث عشـر من ديسـمبر 1900، حضر عدد من الأصدقاء إلى منزلنا في القدس، وفي أثناء تلاوتنا للصلاة، سلَّم كلٌ منا الآخرَ لرعاية الله وحفظه، دون أن ندري كم سيطول بنا الفراق قبل أن نتحلّق ثانية حول العرش الإلهي. وفي هذه الأثناء، كان يجري تحميل زوج من خيول التحميل في الخارج.

---

(1) نحيل القارئ على رحلة الرحّالة الإيطالي كارلو غوارماني عام 1864، والرحّالة البريطانيّة الليدي آن بلَنت وزوجها عام 1879.

كانت أربعة حقائب من نسخ الإنجيل والنصوص المقدسة والمنشورات وبعض الاحتياجات الضرورية للرحلة، إضافة لمرافق واحد خلال الأيام القليلة الأولى من رحلتي، كافيةً لبدء التحرك في أول رحلة تبشيرية إلى جزيرة العرب من جهة الشمال.

رافقني عدد من الأصدقاء لمسافة قصيرة، ثم أزفت ساعة الوداع.

لم يكن من الصعب قول كلمة «وداعاً» للكبار، لكن الشعرة التي قصمت ظهر تجلّدي ومكابرتي جاءت من طفلي الصغير ذي الأعوام الأربع، الذي، لدى انحنائي إليه لتقبيله، قال لي بصوته الطفولي البريء: «هل سيطول غيابك عنا يا أبتي؟».

كان سؤالاً لا يمكن لأحد أن يجيب عليه. فالغيب في علم الله وحده.

امتطيتُ قمة أحد الحملين وانطلقت في طريقي متسائلاً متى سأكحّل عيني برؤية هؤلاء الأصدقاء والأحبّة ثانية، ومتفكراً طوال الطريق بمَ ستتأتى هذه الرحلة البسيطة الهادئة والمتواضعة صوب موطن ومسقط رأس الخصم العظيم المواجه للمسيحية، ألا وهو الإسلام.

سرعان ما خلّفتُ ورائي خارج أسوار المدينة تمثال السيد المسيح على الصليب وجبل الزيتون إلى جهة الشرق؛ ورمقتُ القدس بنظرة أخيرة من طريق بيت عَنيا Bethany ، ثم سرعان ما تجاوزت هذه القرية الصغيرة الوادعة بالذات، وصدى صرخات أطفالها الصغار من ورائي طلباً للبقشيش ما زال يتردّد في أذني.

وصلنا أسفل الوادي عند خان السامريِّ الطيب Good Samaritan's Inn، حيث التمسنا شربة ماء من ذاك الشاغل الوحيد لهذا النزل المُبجَّل الذي يتدبّر أمر حياته هنا من خلال بيعه لبعض المشروبات وتقديم فناجينَ من القهوة أُعدّت على عجل للعابرين.

سرعان ما وصلنا إلى أريحا Jericho، حيث استقبلنا صاحب فندق الأردن Jordan Hotel الطيب القلب بالترحاب. هنا التقيت بصديق الرحالة الودود الذي يرافقهم إلى الأرض المقدسة، سعادة قنصل الولايات المتحدة في القدس سِلاه ميريل[1] Selah

(1) سِلاه ميريل (1837–1909) قسّ بروتستانتي أميركي ومُربٍّ وعالم آثار يتبع الجمعيّة الأميركية

Merill، الذي كان هناك مع أختيه لقضاء فترة من الراحة والاستجمام في مدينة أريحا ذات الجو الهادئ والهواء العليل.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، انطلقنا مجدداً سالكين طريقاً عبر سهول الأردن وعبرنا نهر الأردن إلى السهول المقابلة في طريقنا نحو جبال جلعاد Gilead.

حوالي المساء وصلنا إلى إحدى القرى الشركسية عند رأس وادي السّير Wady Seir، وعبثاً حاولنا إيجاد ملاذ يقينا العاصفة المرتقبة. لكن أبناء الشركس في تلك المناطق لا يكنّون أيّة مودة للغرباء، وأخذوا يصدّوننا ويردوننا عن أبوابهم الواحد تلو الآخر، إلى أن قرّرنا أخيراً قضاء ليلتنا في العراء، حتى لو اقتضى منا ذلك السهر والترقب طوال الليل.

لاستكشاف فلسطين American Palestine Exploration Society، كما كان ديپلوماسياً وشغل منصب قنصل الولايات المتحدة في القدس بين 1882–1885 ثم 1891–1893 ثم 1898–1907. قام بحفريات أثريّة في القدس الشريف في أسوار المدينة، وفي موقع الجُلجُلة فيها. أما اسمه Selah فليس مأخوذاً عن العربية (صلاح)، بل هو عبارة عبريّة ترد في التّوراة في سفر المزامير خصوصاً، ومعناها: فتفكّر.



الجُلجُة خارج السّور

التل الموجود على اليسار هو الجُلجُلة أي موضع الجمجمة. وعلى اليمين السّور الشمالي للقدس. هذا الطريق يؤدي إلى أريحا ولقد اجتازه المستر فوردر عندما حاول الدخول إلى جزيرة العرب.



برج قديم وقلعة في صلخد

هـذه البقايا الأثرية العتيقة من العصر الحجري تقع على حافة الصحراء جنوب شـرقي دمشـق. ويـرد أدناه في الكتاب كيف اجتاز المستر فوردر بهذا المكان في الضباب. والحاجز التركي يمنع للمسافرين المعاصرين من زيارة هذه الآثار المهمّة.

هنالك عند أطراف القرية التقينا بامرأةٍ صرخت في وجهنا مستفسـرة بطريقة عفوية تفتقـر إلـى اللباقـة: «إلـى اين أنتـم ذاهبون في مثـل هذا الوقـت؛ نحـن الآن في وقت الغروب وسـرعان ماسيرخي الليل بسدوله». فأجبناها بقولنا: «لقد جهدنا للعثور على غرفـة لمبيت الأغراب، لكن كل الأبواب أغلقت فـي وجهنا». فكان جوابها: «إن بيتي مفتوح للجميع، هيا، هلموا معي لقضاء ليلتكم معنا».

وهكذا وبعد أن أجبناها إلى دعوتها وأطعنا أوامرها، سـرعان ما ألفينا أنفسـنا داخل تلك الفسحة الضيقة المحدودة المساحة التي يُطلقُ عليها اسم الدّار. كذلك سرعان ما تبين لنا أننا لسنا الوحيدين بين تلك الجدران الأربعة. فقد اتسعت إحدى أركان المنزل ليس فقط لزوج الأحصنة خاصتنا، وإنما لحاجيات صاحبة البيت أيضاً في الممرّ الذي تسلكه دوابها: بغل وحماران وزوج من ثيران الحراثة وبعض الخراف والماعز، إضافة لمجموعة الديوك والدجاج الاعتيادية. أضف إلى ذلك مضيفنا ومضيفتنا وأربعة أطفال صغار لـم يمسَّ جلدَهُمُ الماءُ منذ أمد بعيد، اكتملت بهم الحلقة.

لا حاجـة بـي للتطـرّق إلى ذكـر تلك المجموعـة التي لا تعـدّ ولا تحصى مـن الوثابين jumpers الذين ما برحوا بجهودهم الملحة في تناول الطعام بنهم يذكرونني بوجودهم.

قُدّمـت لنـا وجبة العشـاء المكونة من الخبز والبيـض المقلي واعتـذروا عن تقديم القهوة لعدم توفرها. بعدها جلسـنا نتجاذب أطراف حديثٍ، سـرعان ما انتقلتُ به إلى وجهـة دينية. وبعد أن قدّمـت لهم الكتاب المقدس أمضينا وقتاً فـي القراءة والتحدث عـن الخـلاص Salvation، مـا أثار اهتمـام، بل أنا متيّقـن مما أقول، أسـهم في الخير الأبدي لهؤلاء الناس البسطاء[1].

وبعـد أن أخـذ التعب منا كل مأخذ، اسـتلقينا على الأرض الطينيـة مدثرين بعباءاتنا التقليدية في محاولة منا لأخذ قسط من الراحة، ولكن أنّى لنا ذلك.

فـي وقت مبكر من صباح اليوم التالي كنا نهمّ بالتحرك. عرضت علينا المرأة الطيبة

(1) يلقي فوردر الكلام جزافاً وكأن علينا أن نصدّق أنه نجح في مهمته الفاشلة.

أن تقدّم لنا ربطة من الخبز الطازج لو تريثنا قليلاً ريثما تنتهي من خبزه، وهو مافعلناه.

بعد يومين وصلنا إلى بلدة السلط Es–Salt ثم راموت جلعاد Ramoth–Gilead... ومن ثم جرش Gerash في طريقنا إلى إزرع Edrei في باشان Bashan.

التقيت في طريقي عدداً من أصدقائي من أبناء الكَرَك في طريق عودتهم من دمشق حيث كانوا قد أرغموا على الذهاب يحملون بضائع للحكومة التركية.

اليوم التالي، وهو اليوم السادس على انطلاقتنا، بدأ غائماً وعاصفاً، لكننا تابعنا مسيرنا على أمل تحسن الطقس. كان قد مضى على مسيرنا نحو أربع ساعات في وجه رياح شرقية باردة عندما بدأت تمطر، ثم بدأ تساقط البَرَد وسرعان ما أخذنا نقطر ماءً.

الملاذ الوحيد الذي تراءى أمامنا كان مدينة بصرى الأثرية، إحدى كبريات مدن باشان، بقلعتها الضخمة وآثارها الرائعة. كان قصدنا تجنّب هذا المكان وتحاشي احتمالات القبض علينا من قبل المسؤولين الأتراك وإعادتنا إلى الوطن تحت الحراسة كما في المرات السابقة في الجنوب. على أية حال، ومع استمرار العاصفة، وجدنا أنفسنا مرغمين على دخول البلدة.

قررنا اللجوء إلى بيت الضيافة في أبعد أحياء المدينة عن القلعة، مكان تمركز العسكر والضباط. ولكن أنت تريد وأنا أريد، والله يفعل مايريد، لكي يبرهن للإنسان بأنه وحده صاحب الأمر وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

دخلنا المدينة من جهتها الشمالية، نتخبط بين البيوت الخربة والجدران المتداعية. فقصدنا أول بيت صادفناه في طريقنا، لنجد أن ردهة الضيافة كانت مليئة عن آخرها. مضينا صعوداً ونزولاً في الأزقة الضيقة الموحلة، على أمل العثور على مأوى، لكن الجواب ذاته كان يتناهى إلى مسامعنا في كل مرة: «لم يتبق لدينا موطئ قدم بسبب العاصفة المفاجئة، عليكم أن تبحثوا في مكان آخر».

أخبرنا أحد الرجال بأنه قد قدم لتوّه من بيت الحاكم وأن دار الضيافة الكبيرة هناك خالية تماماً. فغادرنا المكان ثانية وطفقنا نسوق الدواب أمامنا عبر زقاق طويلة ضيقة

عندما التقينا وجهاً لوجه برجل يبدو من لباسه أنه من أبناء الحكومة.

توقف الرجل وسألنا من نكون ومن أين قدمنا وأين وجهتنا، فأجبناه على كل أسئلته. وبمجرد أن عرف بأننا كنا نبحث عن مأوى، قال لنا: «لاعليكم، اتبعوني وسأجد لكم ولدوابكم مأوى في منزل الحاكم».

لم يكن بوسعنا إلا الإذعان لعرضه واللحاق به. وخلال دقائق قليلة كنا داخل الباحة الكبيرة لدار الحاكم عند عتبة باب غرفة الضيافة.

رحّب بنا الخدم، في غياب سيدهم، ثم نقلوا أمتعتنا إلى الغرفة الكبيرة؛ أما دوابنا فأُخذت إلى الإصطبل.

كان موقد الحطب الكبير وسط الغرفة ينشر الحرارة في أنحاء المكان. جلسنا نلتمس الدفء لأنفسنا قرب النار، ممتنين لهذا الملجأ الذي وقانا وطأة البرد القارس والمطر في الخارج. كان موظف الحكومة الذي أتى بنا إلى هنا قد مضى لحال سبيله وتركنا هنا.

أشغلتُ الرجالَ القلائل بالحديث، وسرَّني معرفة أن الحاكم لم يكن تركياً، بل عربياً من أبناء المنطقة. كان ذلك أمراً مشجعاً، حيث أنني كنت أتطلع إلى معاملة أفضل من مثل هذا الشخص، أكثر منه من حاكم غريب عن الوطن.

وبعد قليل رجع موظف الحكومة وهو بكامل لباسه ومتقلداً سيفه، للدلالة على سموّ مرتبته.

وما هي لحظات حتى بادرني قائلاً: «إنّ عملي كمفتش يقتضي مني تفحص كافة الحقائب والأمتعة التي أُحضرت إلى هذا المكان؛ هيا انهض وافتح حقائبك لكي أطلع على محتوياتها». كان ردّي عليه مقتضباً، وإنما لاذعاً: «أبداً، فهذا ليس مركز جمارك». في البدء، سلك معي سبيل الإقناع، ثم لجأ إلى التهديد والوعيد لحملي على فتح الحقائب. لكن لم يكن لدي سوى جواب واحد وهو: «كلا». وأخيرا قال لي: «إذا لم تفتح حقائبك فأنا سأفعل». قلت له: «هيا إذاً، ماذا تنتظر».

كنت قد أخبرته عن محتويات الحقائب، لكنه اتهمني بالكذب. قال لي: «فيها بنادق

وبارود، بهدف تسليح العرب وحملهم على الانتفاضة في وجه الحكومة». مع ذلك، فقد كان الرجل من التعقل بحيث أنه لم يقدم على لمس حاجياتي، ثم حاول سلوك سبيل الحسنى من جديد. وأخيراً قلت له: «لدي شرطان قبل أن أفتح الحقائب للتفتيش. الأول، أن تأتيني من القنصل البريطاني، وأيضاً من الحاكم التركي في دمشق – التي تبعد مسيرة ثلاثة أيام – بأوامرَ خطيةٍ بوجوب القيام بذلك، أو، ثانياً، أن ترافقني إلى دمشق؛ وهناك، وبحضور القنصل البريطاني، أقوم بفتح الحقائب، إذا ما أمر بذلك، كي تتولى تفتيشها». عندها غادر المفتش المكان متوجهاً حسب زعمه للقاء الرئيس المسؤول.

وبعد أن انتهينا من تناولنا طعام العشاء، حضر الرئيس المسؤول ليجتمع بنا. فطرح علي العديد من الأسئلة التي أجبته عليها؛ ثم طلب الاطلاع على جواز سفري التركي، فقدمته له. وبعد تفحّص جواز السفر أعاده إلي قائلاً بأن كل شيء كان على مايرام. أخبرني بعدها أن أوامر الحكومة تقضي بعدم السماح لأيّ أوروبي بارتياد تلك المناطق، وأن لديه أوامر بإبعاد كل من يحاول دخولها تحت الحراسة. «ولكن»، قال لي «كونك تبدو عليك ملامح العرب، وأنك ذاهب إلى دمشق، فبحفظ الله ورعايته».

لم يكن لديه أدنى فكرة حول كم سيستغرق مني ذلك، أو ما هي المسافات التي يتوجّب علي قطعها لبلوغ دمشق.

جلسنا لنتحدث. أخبرتُه عن المفتش المتطفل، فطلب مني ألا ألقي إليه بالاً. عندها تدخل طالباً أن يُمنحَ الإذنَ من قبل الرئيس المسؤول هنا – يقصد مُضيفي – لفتح الحقائب. فكان الجواب: «هذا الرجل هو ضيفي الليلة، وعليه فلن أسمح لك بلمسه أو لمس حقائبه طالما هو في بيتي. غداً صباحاً عندما يبرح منزلي بوسعك أن تفعل مايحلو لك، ولكن طالما هو تحت حمايتي، فلن أسمح لأحد بالتدخل في شؤونه أو لمس أمتعته؛ فنحن نحترم ونحمي كل من يلوذ بنا أو يدوس بساطنا».

بعدها، غادر الرجل ولم أعرف عنه شيئاً بعد ذلك. ثم أخرجتُ العهد الجديد وجلسنا حتى العاشرة والنصف نتسامر ونتحدث عن يسوع. وعندما همّ بالانسحاب إلى جناحه، قدّمتُ له نسخة بالعربية من العهد الجديد، فتقبلها شاكراً.

استيقظنا صباح اليوم التالي على نهار غائم وضبابي. قرّرنا أن نشدّ الرِّحال آملين بتحسن الطقس. وعندما أشرفنا على ظاهر المدينة ويمّمنا وجوهنا شرقاً، وجهة سيرنا المقصودة، تراءت لنا على البعد، على مسافة تقرب من عشرين ميلاً، قلعةُ صلخَد Sulkhad العريقة والذائعة الصيت. كانت رغبتنا أن نتجاوز ذلك المكان ونبيت ليلتنا في عرمان[1] Orman، إحدى البلدات الدرزية الكبيرة، حيث كان علي أن أتخلى عن مرافقي ودوابي كي يعودوا إلى القدس.

كان طريقنا يمتد عبر سهل فسيح منبسط في درب ضيقة صخرية وعرة تفرضها طبيعة الأرض.

حوالي الظهيرة، وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى الغصم El-Ghusm؛ كان علينا أن نمرّ من وسطها. لفت انتباهي هنا عدد من الأبواب الأثرية الجميلة التي هي عبارة عن مسطحات صلدة من البازلت تدور حول خوابير (مفصلات) من الحجر ذاته متوضعة داخل تجاويف أونقرات. كنت محظوظاً لتمكني من التقاط عدد من الصور الجميلة لهذه الأبواب الحجرية.

بعد مغادرتنا لهذا المكان، تلبّدت السماء بالغيوم وبدأت عاصفة أخرى بالهبوب. الرياح والمطر والبَرَد جعل من المستحيل بالنسبة لنا أن نرفع رؤوسنا ونتطلع إلى الأمام. حتى دوابنا لوت أعناقها بعكس الريح وانحرفت عن مسارها؛ وسرعان ما تبيّن لنا بأننا قد ضللنا الطريق.

تبيّنت من البوصلة التي كنت أحملها بأننا كنا متجهين جنوباً بدل الاتجاه شرقاً. حاولنا أن نسلك طريقاً شرقاً مرة أخرى، ولكن من غير طائل. واظبنا على محاولاتنا على مدى ساعات ولكن دون أن نحقق أيّ تقدم. ثم تكاثف الضباب إلى أن حجب عنا مرأى القلعة الأثرية التي كان علينا أن نمرّ بها. كنا نرتجف من البرد والبلل، ثم تراءى لنا أننا قد نُرغمُ على قضاء ليلتنا في العراء لأن الليل كان قد بدأ بإرخاء سدوله علينا.

(1) عرمان قرية معروفة تقع إلى الشرق من مدينة السّويداء، أي من قرى المقرن الشرقي. يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر 1380 متراً.



الأبواب الحجرية في باشان

هذه البقايا المثيرة للعصر الحجري توجد في شرقي الأردن في ديرة الدروز. وهذه الأبواب عبارة عن الواح من البازلت الأسود، تتمفصل على محور منقور بفتحات في العتبات العلوية والسفلية. وعندما تُدق فهي ترنّ بوضوح كالجرس. وبعض الأبواب التي ما زالت قيد الاستعمال يبلغ طولها تسعة أقدام وعرضها ستة. ومع الأسف يجري تدمير هذه الآثار القديمة لتحلّ محلّها تجهيزات أحدث.

في هذه اللحظة لمح مرافقي، محمّد، دخاناً يتصاعد على البُعد. كم كانت سعادتنا غامرة بذلك، حيث سرعان ما ترجلنا عن الدواب ميمّمين شطر ذلك المكان.

تبيّنا بأن الدّخان كان يتصاعد من قرية صغيرة تتألف من حوالي ثلاثين بيتاً. قصدنا أول تلك البيوت ولقينا ترحاباً حاراً من قبل شاغليه. لم نكن قد اخترنا المكان لجماله وجاذبيته؛ وإنما نظراً للظروف التي كنا فيها. لقد كان من دواعي سرورنا إيجاد ملاذ يُؤوينا، كائناً ما كان.

جرى نقل أمتعتنا إلى الداخل وركنها في إحدى زوايا الدار. ثم دُعينا إلى الجلوس فوق بعض الحصائر العتيقة حول الموقد. تمّ إحضار بعض الوقود العضوي المكون من روث الحيوانات المجفف[1]، ثم جرت محاولة لإشعال النار، لكن حصيلتها كانت دخاناً أكثر منه لهباً أو حرارة، ممّا أسال دموعاً منهمرةً من مآقٍ تتلوى ألماً، لا من حرقة الفراق، وإنما من سفع الدخان الخانق.

قدموا لنا بعضَ الخبز ونوعاً من الشراب اللزج يقال له «دبس» نغمس فيه الخبز. ولقد جعل الجوع القارص وجبتنا مقبولة ومستساغة. عندما سألنا عن المكان الذي نحن فيه تبيّن لنا أننا على مسافة ساعتين تقريباً من الطريق الذي كنا نسلكه، وعلى مسافة ما يقرب من ساعتين ونصف ركوباً من القلعة. اقتراحي كان أن نمرّ بالقلعة مع الغسق لكي نتحاشى رقابة العسكر التركي المتمركز هناك. ولكن خططي تم التخلي عنها مجدّداً لكي أتعلم من تجاربي بأني إذا «ماسلمت أمري لله وتوكلت عليه فسيهديني للطريق القويم».

هذا ما تعلمته في اليوم التالي.

بعد العشاء اجتمع رجال تلك القرية الصغيرة التي كنا فيها والتي كان اسمها المُنيذرة[2] Moonaythree للتسامر واحتساء القهوة معنا. سرعان ما انكشفت طبيعة

(1) يسمّى ذلك الوقود في اللهجة المحليّة: الجلّة.

(2) من قرى المقرن الجنوبي جنوبي مدينة السّويداء على سفوح سلسلة جبل العرب.

مهمتي للجميع، ولم أتوان عن تقديم نسخ الكتاب المقدس والنصوص الدينية. بعض الرجال كان قادراً على القراءة، وما أثار دهشتي، القراءة بحكمة وتدبُّر. ابتاع مني بعض الرجال عدداً من النسخ ودفعوا لي ثمنها، تيناً مجففاً وطحيناً أو بيضاً. وعندما حان وقت النوم، ادَّثرتُ بعباءة شخص آخر نظراً لأن عباءتي كانت مبللة ومعلقة كي تجف وسط الدخان، ثم تكوّرت فوق الأرض الصلبة. وعلى الرغم من الصحبة المتواضعة والبرد وتيارات الهواء، فإنني سرعان ما استسلمتُ لرقاد لذيذ في حضن الطبيعة الهانيء.

سوف يستنتج القارئ من هذه التوثيقات أن العمل التبشيري ليس بالعمل السهل ولا المريح على الإطلاق. ليستذكر قارئ هذه الصفحات بشكل يومي رجال الله هؤلاء الذي يمثلون كنيسة الوطن بسبرهم أغوار مجاهل جديدة ومخالطة أقوام جدد لكي يتعرّف عددٌ منهم على الأقل إلى مخلصهم من الخطيئة.

في صباح اليوم التالي، ساق إليّ القدرُ رجلاً دفعته العاصفة إلينا، وأقام في منزلٍ لا يبعد عنا كثيراً. كان قد سمع عن الكتب التي بحوزتي وأراد الحصول على بعض منها كي يحملها إلى بلدته التي تبعد عنا مسافة قليلة إلى الشمال الشرقي.

قدّمت له ثماني نسخ، ستةً من العهد الجديد واثنتين من العهد القديم – وقدّمت له أيضاً مجموعة متنوعة من النصوص والمنشورات الدينية. وقد وصلتني بعد بضعة أشهر أنباءٌ عن الانطباع الطيب الذي خلّفته هذه الكتب والنصوص في نفوس قارئيها وأنها كانت تُقرأ بقدر كبير من الاهتمام[1].

حيث أن الطقس كان جميلاً، لم نمكث طويلاً؛ وبعد أن تلقينا بعض الإرشادات المتعلقة بكيفية استعادة طريقنا، انطلقنا في رحلتنا برعاية الله وحفظه.

بعد خروجنا من حالة الإحباط التي استحوذت علينا الليلة الماضية، تراءت أمامنا القلعة الأثرية، نقطةُ علامنا بالأمس. كنت متيقناً من أننا إذا ما أفلحنا في تخطي القلعة،

(1) مجرّد كلام لا دليل عليه ويخالف ما هو متوقع من مجتمع محافظ على دينه.

فلـن تواجهنـا أيّة معوقـات من جانـب الحكومة، لأن نفوذها وسـلطتها مـا وراء ذلك المـكان محـدودة للغاية. لكن المهم في الأمر هو المرور دون أن يلحظنا أحد، وحيث أن الطريـق كان يمر أسـفل القلعة، فقد بدا أن من المسـتحيل المـرور دون أن يتنبّه إلينا أحد.

كان بوسـعنا رؤية العسـكر وهم يتحرّكون جيئة وذهاباً فوق أسـوار القلعة، وعندما اقتربنـا أكثـر مـن الجهة الشـمالية بتنـا أكثر انكشـافاً لأعيـن الحرس اليقظـة، حيث أن الحراسـة كانت مشدّدة للغاية في ذلك الموقع. تملّك مرافقي خوفٌ شديد وأيقن أنهم سـيقبضون عليـه لامحالـة ويعيدونه من حيث أتـى. حاولت أن أشـجعه بتذكيره كيف نجونا من الاعتقال في بصرى ومؤكداً له بأن الله معنا.

وما أن بتنا على مسـافة قريبة للغاية من التلة المؤدية إلى القلعة، حتى ظلّلتنا غمامةٌ كثيفة من الضباب، وهو أمر غير مألوف إطلاقاً في تلك الأنحاء.

وهكـذا، وتحـت جُنح الضبـاب الكثيف مضينا في طريقنا إلـى أن وصلنا إلى عقدة متشـعّبة من المسـالك تقود إلى اتجاهات مختلفة. لو كان الجو صحواً لتبيّنت طريقي بسهولة، كونه سبق لي المرور بهذه المناطق من قبل.

سـلكنا الاتجـاه الخطـأ، وسـرعان مـا ضللنا الطريـق، لكننا لـم نكـن قادرين على تصحيح مسـارنا بسـبب الضباب الكثيف. قلت لمحمّد: «ليت الضباب ينقشع للحظةٍ فقط، فأتبين موقع القلعة وأحدّد وجهتنا الصحيحة».

لم أكد أتفوه بهذه الكلمات حتى انقشـع الضباب للحظات، ما مكنني من اسـتراق نظـرةٍ عاجلـة على القلعـة كانت كافية لتحديـد موقعها في الزاوية الشـمالية الشـرقية. ترجلـت عـن حصاني وقفلت به راجعاً حيث سـرعان ماتعرفت إلى المسـار الصحيح مرة أخرى.

وهكذا، وتحت أسـتار الضباب الكثيف، مضينا وعبرنـا وألقينا التحية على حارس لم نره ولم يرنا أمام دار السّـرايا، إلى أن وجدنا أنفسـنا نضرب بأمان في الأرض العراء

خارج حدود المدينة وقلعتها. وبعد خمس دقائق على تجاوزنا المكان، انقشع الضباب وسطعت الشمس وأمكننا رؤية القلعة والمنزل الذي كان يؤوي مندوبي حكومةٍ معارضة لكافة الحركات التبشيرية.

لقد تعرّفت من خلال هذا الخلاص المُبين الثاني إلى أن يد الله كانت معي، ممّا شجعني على المضيّ قدماً وأنا على يقين من أن الله سيكلأ هذه الرحلة باتجاه جزيرة العرب بعين الحفظ والرعاية.

بعد انقضاء ساعة على مرورنا بهذا المكان، وصلنا إلى بلدة عرمان[1] Orman الدّرزية المتوضعة عند تخوم السهول الرملية الممتدة باتجاه إقليم الجوف Jowf. كانت هذه هي المرحلة الأولى من رحلتنا، وعلى الرغم من العثرات والعراقيل التي واجهتنا في بعض مراحلها، فإنني كنت أشعر بأن يد الله كانت دائماً إلى جانبي، ممّا ولد في نفسي الإيمان بأن المرحلة التالية من رحلتنا ستكلّل بالتوفيق بمشيئته وتقديره.

نزلنا في غرفة كبيرة للضيافة عند أطراف البلدة. مضيفونا كانوا ثلاثة أشقاء، جميعهم تعاملوا معي بلطف وتهذيب. لقد صدق معي هنا المثل العربي القائل: «لا يمكن لجبلٍ أن يلتقي جبلاً قط، ولكن يمكن لإنسانٍ أن يلتقي أخاه الإنسان». أحد الأخوة كانَ يعرفني، كوننا سبق أن التقينا في دمشق قبل سنتين.

جرى ترتيب أمتعتي في مكان بعيد عن الأنظار، وجرى إعداد كل شيء بطريقة تشعرني وكأنني في بيتي. وهكذا، وفي العشرين من ديسمبر تسلمت مكان إقامتي بين هؤلاء الناس الغرباء الدروز، بعقيدتهم الباطنية.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، غادرني محمّد آخذاً معه الجياد. رجاني أن أعود معه إلى القدس، مذكراً إياي بالأخطار والمشاقّ التي سيتوجب علي تحمّلها إذا ما ذهبت أبعد من ذلك.

شعرت بعد رحيل محمّد بأن رباطاً آخر من الأربطة قد انقطع، الأمر الذي كان له أن

---

(1) ذكرناها أعلاه، قرية من قرى المقرن الشرقي، إلى الشرق من مدينة السّويداء.

يحول بيني وبين تحقيق حلم العمر.

تملّكتني رغبة شـديدة بالتخلي عن المشـروع من أساسه والعودة من حيث قدمت، لكن فكرة الوعود في المزمور Psalm cxxi 71 جعلتني أحزم أمري بالمضي قدماً. لم يكن لدي أدنى فكرة عما ماهو مخبأ لي في علم الغيب؛ لنترك ذلك للفصل التالي.





الشيوخ الدروز

يعيش الدروز في جنوب شرقي دمشق، دينهم باطني وهم يتعبّدون في الليل. من حيث العادات واالتقاليد هم كالبدو، وعمائمهم البيضاء تميّزهم عن العرب. وهذان الاثنان استضافا المستر فوردر في طريقه إلى الجزيرة.



الاستعداد لنقل بيت الشعر

ينتقل البدو كل بضعة أيام، وأعمال نقض الخيم ونصبها تقوم بها النساء. لاحظ الطفل المعلق على حامل ثلاثي القوام بينما تستعد الأم للرحيل. والصباح الباكر هو الوقت الذي يُتخذ عادةً لنقل المضارب.

الفصل السادس عشر

تجربتي في الصحراء بين الدروز والعرب

لقد وفرت لي إقامتي المطولة في عرمان فرصة جيدة لممارسة العمل التبشيري بين أناس لم يسبق لأيّ مبشر، على حد علمي، أن زارهم من قبل، ولم يسبق لأيّ نسخة من الكتاب المقدس أن وصلت إليهم، وإن حدث ذلك، فإن أحداً لم يعد منها على عين ولا أثر.

أمضيت أيامي القليلة الأولى في زيارات كنت أقوم بها للناس في بيوتهم. استوضحت منهم عن نسخ الكتاب المقدس، ولكني لم أقع لها على أثر. كانت لديّ الفرصة بشكل يومي للاجتماع بالناس والتحدث إليهم عن الخلاص والمخلص.

كنت أمضي ساعتين عادة بعد العشاء مع الضيوف الوافدين للمبيت. كان الجميع يصغي بانتباه شديد إلى كل ما أقول، ولطالما كانت هذه الاجتماعات المسائية تفضي أحياناً إلى بيع عدد من الأناجيل والنصوص الدينية، التي كانت تُحمل إلى أماكن مختلفة على يد أصحابها عند ارتحالهم إلى مواطنهم في اليوم التالي.

في عرمان بالذات تركت خمسين نسخة من العهد الجديد حيث بيع العديد منها لشبان يافعين يجيدون القراءة تماماً[1].

كان أحد الأصدقاء المخلصين قد أرسل لي من إنكلترا قبل فترة خمسين نسخة عن

(1) والسبب الوحيد في ذلك هو انعدام الكتب والمطبوعات في الأرياف آنذاك.

حياة يوسف Joseph وإنجيل يوحنا Gospel of John مجموعة معاً في مجلد واحد، وقد وجدتها مفيدة للغاية وموضع تقبّل بالغ بين هؤلاء الناس.

في أحد الأيام قمت بزيارة أحد البيوت فوجدت كاهناً من الرّوم جالساً على الأرض قرب النار. استدرجته إلى الحديث، وسرعان ما تبينت بأنه على غرار المئات من أمثاله جاهل تماماً بمسألة الخلاص عن طريق الإيمان بالمسيح؛ كما أخبرني بأنه لم يسبق له أن اقتنى إنجيلاً قط.

وبما أنه كان يجيد القراءة، فقد قدمت له نسخة عربية من النسخ الإضافية ذات النوعية الجيدة من الإنجيل التي أعطاني إياها أصدقائي في أمريكا. تقبلها بعد تردّد شديد، لاعتقاده بأنه غير جدير بمثل هذا التكريم. شاهدته في اليوم التالي في طريقه إلى القرية التي يعيش فيها ويمارس فيها واجباته الدينية يحمل معه هديته التي حظي بها مؤخراً ملفوفة داخل منديل ومحفوظة داخل عبّه.

كانت الأيام التي قضيتها في عرمان أياماً صعبة ومضنية. لقد كان الجو ممطراً أو مثلجاً معظم الوقت والطرقات تموج بالوحل، أو الوحل الممتزج بالجليد. الوقود الوحيد كان الوقود العضوي المعدّ من روث الحيوانات المجفف[1]. وكم كنت أفضّل تحمل البرد القارس على سحابة الدخان الكثيف الخانق برائحته النتنة المنبعث من كتلة الروث المحترقة وسط الغرفة.

كان عليَّ في أثناء الليل افتراشُ الأرض القاسية ولا شيء تحتي سوى حصيرة بالية، مدثراً بغطاء يعجّ بشتى أنواع الهوام، وغنيّ عن القول أنني لم أستعمله إلا في الليلة الأولى.

لقد كان الناس في غاية اللطف في دعوتي لبيوتهم لتناول وجبةٍ من الطعام المكوّن في الغالب من حبات الفول الكبيرة البيضاء المسلوقة والمدمّسة بالزيت أو السمن العربي المُساح. هذه الوجبات التي دائماً ما كانت تقدم ساخنة كانت مستساغة تماماً

(1) أي الجلّة كما أسلفنا من قبل.

وتمدني بالدفئ والحرارة، وكم كنت ممتناً لله على هذه النعمة.

ونظـراً لافتقـار المـكان لأيـة دكاكين أو محـال تجارية، لم يكن بوسـعي شـراء أية أطعمة، ونادراً ما يقدم العرب على بيع الطعام لضيف أو غريب.

لن أنسى ما حييت مناسبة عيد الميلاد التي أمضيتها في ذلك المكان. فقد شهد ذلك اليـوم هطولاتٍ ثلجية كثيفة أعقبتها أمطار غزيرة، ممّا أحال المكان برمته إلى بركة من الوحـل. كان البـرد قارسـاً، ونظراً لتعـذّر تأمين أيّ نـوع من أنواع الوقود بسـبب الثلج والمطـر، كان علـيّ أن أقعـد طوال النهار صابـراً على البرد والرطوبة. وبما أن أسـطح المنـازل كانت مكونة من الطين فقط، فقد كان المطر يتسـرب منها بسـهولة إلى داخل البيـت. وعلى هـذه الحال أمضينا يـوم عيد الميـلاد، فقد كان المطر يقطـر من حوالي ثمانيـة مواضـع في السـقف وكان مـن المتعذر العثور علـى أيّة بقعة جافـة حتى داخل المنزل.

بُعيد قدومي لعرمان بوقت قصير شرعت بطرح أسئلة تتعلق بإمكانية بلوغي المكان التالي الذي كنت أريد الوصول إليه – وهو موقع على الخارطة باسم كاف Kaf.

قـدّرتُ بأنها مسـيرة حوالي سـتة أيام باتجـاه الجنوب الشـرقي، والأراضي الواقعة بينهمـا كانـت أرضاً قاحلة جرداء وخطرة جداً على المسـافر نظراً لوجود عصابات من قطاع الطرق تجوب المكان على الدوام بحثاً عن أيّ عابر سبيل.

لم يكن أهالي عرمان معتادين كثيراً على اسـم «كاف» Kaf. وقد لفت نظري شـيء مشـترك في كل أحاديثهم ألا وهو اسـم القريتيـن[1] "Kurrey–ya–tayn"، أو أحياناً كانـوا يتحدثون عنهما باسـم ديرة الملـح "Deree–el–milh" حيـث أن مهنة عرب ذلـك المـكان كان جمع الملح الـذي يبيعونـه للقوافل القادمة بغـرض الحصول على هذه السلعة.

عندمـا أفصحـت لهم عن رغبتـي بزيارة منطقـة كاف، هزّ الناس رؤوسـهم وقالوا:

(1) بل الصّواب: القريّات، أو قريّات الملح.

«لا تفعل، فعرب تلك المنطقة قوم أشـرار؛ عندما نذهب إلى هناك بأعداد كبيرة لاندع البنـادق تبارح أيدينا مطلقـاً». ونظراً لكوني من النوع الملحاح من البشـر، فقد أكّد لي مضيفي بأنه سيحاول أن يعثر لي على بدوي ينقلني إلى هناك.

كان مثـل هؤلاء الجوّالين يتـردّدون إلى عرمان من وقت لآخر، وتحت إغراء المال يقومون بنقل المسـافرين عبر الصحراء؛ ونظراً لمعرفتهـم الوثيقة بأماكن تواجد عرب الصحراء، فقد كانوا مؤهلين تماماً للعمل كأدلاء وإيصال زبونهم بأمان إلى كاف[1].

أسـعفنا الحـظ في العثور علـى اثنين أوثلاثة مـن هؤلاء الرجال، ولكـن بمجرد أن عرفوا بأن المسافر المقصود كان مسيحياً، قالوا بأن لا حول ولا قوة لهم مع مثل هؤلاء القوم، حيث أن عقيدتهم جعلتهم أعداء الله وأتباع محمّد. ثم سـرعان ما تبيّن لي بأني علـي أن أنتظر وقتـاً طويلاً قبل العثور على بدوي يوافق علـى نقلي إلى هناك. وهكذا، فقد رجوت من مضيفي أن يقطع لي عهداً بذلك.

قطع لي مضيفي العديد من الوعود المؤكدة، لكنه لم يفِ بأي منها. وبعد أن أخفقت كل المحـاولات، وتبيّـن لي أن من غير المرجح المضـيّ قدماً في رحلتي، عمدت إلى عرض قضيتي على الشيخ - شيخ العشيرة - وطلبت منه مساعدتي. كان عجوزاً لطيفاً رؤوفاً، لكنه نصحني بعدم الذهاب. ومرة أخرى تداعت إلى مخيلتي مخاطر الصحراء ومتاعـب السـفر واحتمـالات المـوت من العطش أو علـى يد أحد أعـراب كاف Kaf المتعصبين.

أخبرت الشيخ بأني على استعداد لمواجهة كل هذه التحديات وأن اتكالي هو على الله في حمايتي وحفظي، ولا أعتقد بأنه سـيخذلني. وبعد أن قطعت على نفسـي عهداً بإعفاء الشـيخ من أية مسـؤولية إن هو سـاعدني على القيام بهذه الرحلة، وعدني أخيراً بأنه سيعدّ الترتيبات للانطلاق في رحلتي في اليوم التالي.

(1) ينبغي هنا المقارنة برحلة الليدي آن بلنت وزوجها من صلخد إلى الجوف، ومرافقتهما لدليل درزي من المنطقة ذاتها.

عدت إلى مكان إقامتي وأعدت حزم كتبي وأمتعتي وعمدت إلى خياطة بعض من أموالي داخل نطاق سروالي، ثم أعطيت الباقي لمضيفي كي يستبقيها معه لحين عودتي في وقت غير معلوم من المستقبل. إنّ الأموال التي تُدفع بهذه الطريقة على سبيل الأمانة تكون في أمان تام، حتى في عهدة شخص غريب.

ذهبت في صباح اليوم التالي إلى لقاء الشيخ الذي بادرني بالأعذار والمبرّرات لعدم تمكنه من تأمين سفري في الموعد المحدد، واستعرض لي كل ما كنت قد سمعته منه سابقاً، في محاولة جديد منه لإقناعي بالعدول عن فكرة السفر. ذكّرته بوعده وقلت له بأنه يجدر به كشيخ عشيرة أن يفي بوعده، لا أن يخلف به.

لامس هذا الكلام مكامن المروءة والحميّة لدى الشيخ لقبول التحدّي، فقام على الفور باستدعاء أحد الرجال وطلب منه إحضار جمل وتحميل أمتعتي، مفسحاً لي المجال لاعتلاء ظهر الجِمل، ثم أخذني خارجاً وسلّمني إلى صاحب أول خيمة عربية قدمنا إليها. جرى إطاعة الأمر على الفور، وانطلقنا على بركة الله.

واصلنا مسيرنا لحين غروب الشمس، لكننا لم نصادف أيّة خيام في طريقنا، فأمضينا ليلتنا في العراء. وفي صباح اليوم التالي تابعنا مسيرنا من جديد. وعند العصر لمحنا بعض الخيام على البعد وانطلقنا باتجاهها.

لم يتسم استقبالنا بذلك القدر من الحفاوة، وشعرت بأني لم أكن موضع ترحيب. دُعينا للدخول وأُخذت أمتعتي حيث جرى تكديسها بعضها فوق بعض في أحد أركان الخيمة. أخبر مرافقي الذي كان قد جاء معي الرجال داخل الخيمة عن وجهتي المقصودة، فتلقوا هذا الخبر بانقباض وتجهّم بالغ. ثم قال بأنه يريد العودة إلى عرمان. لكني ألفيتُ نفسي مكرهاً على الطلب إليه قضاء الليلة معي وهو ما أجابني إليه عن طيب خاطر.

تناولنا العشاء متحلقين جميعاً حول نفس الطبق ومستخدمين أصابعنا عوضاً عن الملاعق.

وتحت وطأه التعب والإرهاق الشديد، سرعان ما أسلستُ قيادي لنوم عميق لم أصحُ منه حتى صباح اليوم التالي حيث وجدت بأن هيكل الخيمة قد تداعى وسقط فوقي.

زحفتُ خارجاً من تحت الخيمة ولمحت النسوة وهن يقمن بإنزال الخيمة قبيل التحرك. وعندما استوضحت منهن عن سبب القيام بذلك في هذا الوقت المبكر، أجبنني بأن الرجال قد أصدروا أوامرهم بالارتحال إلى مكان آخر، فهم يتوجسون خيفة من إيواء نصراني من المحتمل أن يستجلب علينا المتاعب.

وما هي إلا لحظات حتى كانت الخيمة وما تحتها من متاع محمّلةً على ظهور الدّواب استعداداً للرحيل. بالنسبة للدّيوك والدجاجات فقد تم ربطها وتعليقها على ظهر الجِمل، أما قطيعهم المتواضع من خرافٍ وماعز فقد جرى سوقه وترحيله في وقت مبكرمن الصباح.

سرعان ما غابت هذه المجموعة الرعوية الصغيرة عن الأنظار تاركة إيانا أنا ومرافقي الذي صحبني أمس وحيدين في هذه الفلاة الموحشة.

اقترح عليّ مرافقي أن يمتطي الجمل ويطوف المنطقة بحثاً عن خيام أخرى ويعود إلي ثانيةً. وكان عليّ أن أجثم فوق حمل الأمتعة مترقباً عودته. لم أوافقه إلى اقتراحه، حيث أنني كنت مدركاً لأنه في حال مضى بالجمل بعيداً فاحتمال رؤيتي له ثانية سيكون احتمالاً شبه معدوم.

وهكذا فقد قلت له: «اترك الجمل معي واذهب للبحث عن خيام أخرى». فوافق على ذلك، ثم انطلق في مهمته حوالي السابعة صباحاً، تاركاً إياي وحيداً بانتظار رجوعه.

حلّ وقت الظهيرة ولم يعد، وانتظرت حتى قرابة الرابعة عصراً ولم يعد. بدأت الشك يساورني بأنه قد تركني فعلاً عندما لمحته قادماً باتجاهي.

كان قد وقع على إحدى الخيام في مكان ليس ببعيد وأمضى نهاره يتحادث مع

الرجال ويتناول الطعام ويحتسي القهوة، غير عابئ لتركه إياي وحيداً في العراء أتلوى جوعاً وعطشاً تحت أشعة الشمس الحارقة.

ومرة أخرى شددنا الرحال ويمّمنا شطر الخيمة المذكورة التي وصلناها خلال ساعة تقريباً. جلست وتناولت بعض الخبز. وسرّني من خلال تجاذبي لأطراف الحديث مع هؤلاء الرجال معرفتي أن قافلةً كبيرة من المتوقع مرورها بالمكان تلك الليلة في طريقها إلى كاف للحصول على الملح.

وبعد العشاء جلسنا نتسامر، واتفقنا على محاولة الانضمام للقافلة والوصول إلى كاف بصحبتها. كان القمر بدراً، وكنا متحلّقين حول النار عند باب الخيمة، عندما حضر أحد الرجال وقال إن بوسعه سماع أجراس الإبل وأنها كانت القافلة.

ما هي إلا لحظات قليلة حتى كانت أمتعي محمّلة على أحد الجمال، ثم اعتليت ظهر الجِمل وقام مضيفي الجديد بقيادتنا إلى جوف الصحراء باتجاه طريق عبور القافلة. تمكّنتُ في ضوء القمر من تمييز كتلة داكنة ضخمة تتقدم باتجاهنا، لقد كانت القافلة.

سرنا حوالي ربع ساعة، ثم توقفنا بانتظار وصول القافلة. وما هي إلا لحظات حتى كان بعض الفرسان ينطلقون باتجاهنا ثم سألونا بصوت مرتفع: «من أنتم، وماذا تريدون؟» وسرعان ما أجبناهم على أسئلتهم. ثم قدمت المجموعة الأولى من القافلة الضخمة المكونة من حوالي أربعمئة جمل؛ تلتها المجموعة الثانية، فالثالثة، ثم الأخيرة. كانت كل واحدة من هذه المجموعات تحت حراسة حوالي خمسين فارساً مسلحين برماح طويلة وبنادق وسيوف وطبنجات revolvers.

وعند مرورهم بقربنا أخذ الرجل الذي معي ينادي على بعض الرجال الذين كان يعتقد بوجودهم في القافلة بأسمائهم. مرت المجموعات الثلاث الأولى من تلك القافلة المهولة التي كانت مؤلفة من ستمئة جمل ولم يردّ أحدٌ على نداء الرجل. وفي المجموعة الأخيرة تم التعرّف إلى بعض منهم، ومن خلال شرح مقتضب حول هويتي ووجهتي، جرى نقل أمتعتي وحاجياتي وتحميلها على جمل آخر على جناح السرعة،

وماهـي إلا هنيهـات حتى كنت في قمة النشـاط والقوة للمضيّ قدمـاً كأحد أفراد تلك الكتلة الهائلة المتحركة في طريقنا إلى كاف.

لم يجر هناك أيّ تفاوض بشأن أجرة الجمل الذي كنت أمتطيه أو أيّ تفاوض بشأن الطعام والشراب. التحقتُ بالقافلة عند التاسعة إلا ربع مساءً، وكان من المقدّر لرحلتنا أن تستغرق أربعة أيام ونصف للوصول إلى كاف.

كنـت خـلال مسـيرنا أتجـاذب أطـراف الحديـث مع بعـض الرجـال إلـى جانبي. فأخبروني بأنه سـيتوجب علينا قطع المسافة على مراحل، حيث أن الجمال التي كانت محمّلة بالقمح والشـعير لمقايضتها بالملح والتمور لم تكن قادرة على قطع مسـافات طويلة دون استراحة.

لكني سرعان ما تبيّنت بأنهم كانوا فقط يكذبون علي، وهو ما أفصحوا لي عنه عندما قلت لهم لاحقاً بأنه «لا يجدر بي السّفر بقلب منقبض».

واصلنـا مسـيرنا طوال تلك الليلة حتى السادسـة والنصف من صبـاح اليوم التالي، حيـث أنخنا رحلنا لأخذ قسـط مـن الراحة. قالوا لي: «إذا كنت ترغب بأخذ قسـط من النوم، فلا تتردّد، لأننا سـنرتاح لسـاعتين فقط». اضطجعتُ على الرمال مدثراً بعباءتي التقليدية وسرعان ما كنت أغطّ في نوم عميق.

لكن القوم أيقظوني بعد ربع سـاعة فقط قائلين: «هيا انهض، لقد تحرّكت القافلة». وهـذا ما كان؛ فقـد كان معظمهم قد تحرّك تقريباً. وهكذا فقـد وثبتُ فوق جملي ثانية لألحق بالركب بعد عشرين دقيقة فقط من إناخة رحلنا.

انطلقنا في مسيرنا من دون توقف حتى الخامسة والنصف عصراً. ثم عمد القوم إلى إناخة الجمال وسَرَت شائعة بأن استراحتنا ستمتدّ لساعات. وبينما كان الرجال بصدد إنزال الحمولة، صاح مُنادٍ بأن الأعراب كانوا على مقربة منا.

باستطلاعي للمنطقة المحيطة، لمحت على تلة مشرفة على مكان وجودنا مجموعة من الرجال على صهوات الجياد – كانوا حوالي عشرة رجال.

هبّ عدد من رجالنا إلى صهوات جيادهم وكرّوا باتجاههم كالليوث الهائجة، فما كان من الدخلاء الجدد إلا أن لووا أعناق جيادهم ثم ولّوا الأدبار مبتعدين عن المكان. بالرغم من انطلاقهم بأقصى سرعة ممكنة، فقد عمد رجالنا إلى إطلاق نيران بنادقهم باتجاه المطلوبين فأصابوا واحداً منهم في ذراعه، ممّا حمله على إلقاء رمحه.

قمت باعتلاء تلة قريبة مني وأخذت أراقب المشهد.

كانت الغلبة لرجالنا الذين عادوا بهم في الحال. لقد كان رجالنا يفوقونهم عدداً، وهو ما حدا بالهاربين إلى إلقاء أسلحتهم والاستسلام. لقد كانوا من إحدى القبائل الكبيرة المتمركزة على مسافة ميل تقريباً من مكان وجودنا. ولقد أرغمهم رجالنا على العودة معهم.

صدرت الأوامر بتحميل الجمال وبدء المسير. وهكذا وخلال خمس عشرة دقيقة فقط كنا نتابع مسيرنا ثانية. دفع أحد الرجال بقطعة من الخبز القاسي في يدي أخذت أقدّ منها بضع لقيمات أثناء تحركنا.

أُرغم الأعرابُ الأسرى على الذهاب معنا ووُضعوا في وسط القافلة بهدف منعهم من العودة إلى مضاربهم واستدعاء الآخرين، الذي كانوا سيتحرّشون بالقافلة طوال الليل. ونظراً لأن الرمال كانت متماسكة في تلك البقاع فقد آثرت المشي لمسافة لابأس بها لسببين اثنين: الأول، كي أبقى مستيقظاً، والثاني كي لا أحسّ بالبرد.

بزغ فجر اليوم التالي دون أن تتوقف القافلة. سُمح للأسرى بالعودة، حيث أنهم لم يعودوا هم وقومهم يشكلون أيّ خطر علينا.

وأشرقت الشمس، ومع ذلك فقد واصلنا مسيرنا. وفي حوالي الساعة العاشرة نادى عليّ بعض الرجال قائلين: «انظر إلى بساتين النخيل ذيّاك، إنها تعود لمنطقة كاف؛ ها نحن أولاء قد شارفنا على الوصول».

حوالي الساعة الحادية عشرة انطلقنا باتجاه المكان، وفي الفسحة المربعة التي شكّلتها الجياد قمنا بإناخة الجمال وإنزال الأحمال، ثم قُدّم لنا الطعام.

كان المسـير قد استغرق منا ثماني وثلاثين ساعة، لم يتخللها سوى استراحة نصف ساعة فقط. بينما استغرقت رحلة العودة منا ستة أيام.

غني عن القول أني كنت في حالة من التعب والجوع والعطش، لكن مجرد شعوري بأنـي قد وصلت فعلاً إلـى كاف وحققتُ أمنية العمر، جعل تعب الرحلة يتلاشـى أمام متعة وجودي هناك.

تركـتُ جلبـة إناخة الجمـال وإنزال الأحمال داخل الفسـحة المربعة التي شـكلتها الجياد، وانزويت بعيداً أمتّع النفس وأروِّحُ عنها وسط بساتين النخيل القريبة، ثم شرعت أترنّم بتسبيحة شكر لله رب السماوات على وفائه بالوعود والعهود التي أودعتها لديه، كما هو مدوّن في المزمور 121.

قصدتُ بعد ذلك أحد الينابيع الكبريتية للاسـتحمام، ثم رجعت إلى نقطة التجمّع. أخذونـي إلى منزل طيني في الجوار كان صاحبـه معروفاً من قبلهم. قدّموا لنا طبقاً من التمر، أكلنا منه قدر ما نسـتطيع. وحيث أن التعب والإعياء كان قد أخذ مني كل مأخذ نتيجة مسيرنا الطويل والمرهق، فقد اضجعت على الأرض، اتّكأتُ برأسي على سرج حصاني، ثم أسلمت نفسي لنوم عميق.

عندما صحوت كانت الساعة تقارب الخامسة، والشمس بدأت تميل نحو المغيب. خرجـتُ مـن البيت والتقيت بعـدد من الرجال الذيـن كنت أعرفهم. قـال لي أحدهم: «تعال لآخذك إلى دار شـيخ العشـيرة[1] وأطلب منه أن يوليك عناية خاصة». توجهت معه إلى القرية المجاورة.

كان الشـيخ جالساً في الخارج مع مجموعة من الرجال، لكنه حال رؤيته إيّانا نهض وأقبل نحوي لاستقبالي.

---

(1) المعروف أنّ شيخ كاف آنذاك كان الشيخ عبد الله بن خميس، وآل ابن خميس من السّرحان هم شيوخ كاف على الدّوام، إلا أن فوردر أدناه يذكر الشيخ باسم محمّد البادي، وهذا أمر غير مفهوم . وعندما أضاف صورة الشيخ الشاب لم يصرّح باسمه.



استراحة القافلة بعد الرحلة

تبيـن هـذه الصـورة الجمال وقد أنزلت عنها أحمالها الثقيلة بعد رحلة دامت ثماني وثلاثين سـاعة عبر الصحراء. ومن النادر إزالة الشدائد الثقيلة. يخشى العرب أن تبرد الجمال إذا تعرضت للهواء أكثر مما ينبغي، فالحيوان سريع التأثر بالبرد.



شيخ كاف

أظهر هذا الرجل للسيد فوردر طيبة بالغة خلال إقامته لديه. والعرب الذين يحكمهم يقدّرونه ملياً بسبب شجاعته. وكاف التي يقيم فيها عبارة عن بلدة مزدوجة تتوارى في وسط رياض نخيل جميلة.

وبعد أن أحيط علماً بشأني، قال بأنه يفضّل إحضار كافة أمتعتي وإيداعها في غرفة الضيافة خاصته، كما أن بوسعي أن أقيم هناك أيضاً. ثم نادى على أحد الفتيان وطلب منه أن يأخذ الحمار ويذهب لإحضار أمتعتي.

تناهى إلى سمعي في تلك اللحظة صوت طلق ناري، تبيّنتُ فيما بعد أنها إشارة للقافلة بوجوب تحميل الجمال والاستعداد لبدء رحلة العودة.

حضر الرجال الذين كنت قد سافرت معهم لتوديعي وإقناعي بالعودة معهم. قالوا لي: «مالذي يحملك على المكوث مع هؤلاء الناس العُتاة؟».. «إنهم سيقتلونك لا محالة لأنك شخص مسيحي». وأخيراً تركوني وغادروا وأنا أتأمل القافلة وهي تبتعد شيئاً فشيئاً وتختفي عن ناظري وراء الكثبان الرملية.

كان الإغراء باللحاق بها شديداً، لكن العناية الإلهية كانت أقوى من دافع الإغراء، فعدت أدراجي إلى منزل شيخ العشيرة.

لن أنسى ماحييت ذلك الشعور بالوحدة والوحشة الذي انتابني، حين اتكأت بظهري إلى جدار تلك الغرفة. كل من حولي كانوا أغراباً – ليس فقط على صعيد الانتماء القومي، وإنما الدّيني أيضاً، وكما كنت أعلم يقيناً، من الصنف غير المحبّذ بالنسبة للمسيحيين. لقد كان تصوّر أنني المسيحي الوحيد في كل تلك المنطقة، شيئاً أعجز عن وصفه.



الفصل السابع عشر

شيوخ كرام ورعايا لئام

كاف هي عبارة عن قرية كبيرة من جزئين يفصل كل منهما عن الآخر بساتينُ النخيل. البيـوت مبنية من الطوب المصنوع من الطين وهي منسـقة بطريقـة بارعة تمكّن أبناءها من الذود عن قريتهم في حال التعرّض لهجوم من الخارج.

تشـرف الواجهة الأمامية لهذه البيوت على ساحة واسـعة مربعة الشكل تمثل سوقاً عامرة بالنشاط لإدارة الشؤون التجارية للقوافل، وهو ماشاهدته ولمسته خلال مكوث إحـدى القوافـل. يأتيها التجار من سـوريا محمّلين بالقمح والشـعير لمقايضته بالملح الخشن.

يسـتحصل أبنـاء كاف على الملح الخشـن عن طريق تبخير المياه شـديدة الملوحة من الينابيع الكثيرة التي لا تنضب أبداً الموجودة بالقرب من المكان. تتمتع كاف بوفرة كبيرة من مصادرالمياه؛ البعض منها هي عبارة عن ينابيع كبريتية ساخنة، وهي تستخدم لأغراض علاجية.

يرتحل الناس معظم أوقات السنة إلى الصّحارى ولا يعودون إلى منازلهم في القرية إلا في موسم جني التمور.

وهـو موعـد يوافـق موعد حصـاد الحبـوب فـي المناطق الأخرى. والنسـاء لسـن منعـزلات فـي هذه المناطـق ولا يضعن الخمـار على وجوههن، إلا أنهن لا يجالسـن

الرجـال. لديهنّ حريتهـن الخاصة، وهن بذلك أفضل حالاً بكثير من آلاف النسـاء في بقية أنحاء العالم الإسلامي.

لقـد ولَّـدت فيَّ أشـجارُ النخيـل وبسـاتين كاف الغنّاء الواسـعة شـعوراً لا يوصف بالسعادة والارتياح، وكنت أمضي الساعات الطوال وسط هذا الفردوس بصحبة بعض الرجال الذين كانوا يتصرّفون حيالي بكل لطف ومودة.

إلى إحدى جهات القرية كان هنالك جبلٌ شـاهق حجارته شديدة السواد بمعظمها. وعلى قمة الجبل التي تمت تسويتها، توجد بقايا لما كان في يوم من الأيام قلعةً أو حصناً كبيراً. وسط تحفظ شديد من جانب أبناء المنطقة، قمت بتسلق الجبل واستكشاف هذه الآثار، لكنني مُنعت من تدوين أيّة ملاحظات أو التقاط أية صور.

عنـد مـروري بينهم، كان أبناء كاف يتحلّقون في جماعـات وكانت الكلمة الوحيدة التي أسـمعها منهـم هي «نصراني»، وهي إحدى الكلمات المعيبـة التي تعني عدو الله والمسلمين. كوني لم أشعر بذلك القدر من الاغتراب وسط هذه الجماعة المنعزلة من أتباع محمّد، لم أكن متيقناً من المعاملة التي سأتلقاها من هؤلاء الناس.

لدى وصولي إلى غرفة الشيخ، وجدتُه مع مجموعة من الرجال بانتظاري هناك. تم إحضار العشاء في وعاء معدني كبير. تناولت حصتي من الطعام دون إدراك مني لنوعية ذلك الطعام، ولغاية اليوم لا أعرف ما لذي تناولته في وجبة العشاء تلك.

كل ما أعرفه هو أنه كان ساخناً جداً، ذا قوام لزج، كثير الدّسم، وذا طعم لذيذ[1]، ما جعلني أقبل على تناوله بشهية.

تحلقنا بعد العشـاء حول الموقد المكشـوف وبدأت عملية إعداد القهوة العربية، أو المُرَّة.

تبدأ العملية بتحميص حبّات البنّ الخضراء على النار ثم تُدقّ في جرن خشبي كبير يسمى «المهباج» إلى أن تغدو ناعمة بما فيه الكفاية، ثم توضع في الماء المغلي، تصفّى

(1) أظنه كان يأكل «البكيلة»، إحدى أصناف الطعام الشائع هناك.

بعدهـا القهوة وتُسكب في إناء نحاسـي يسـمونه المِصَـبّ. بعد ذلك يجـري تفويرها بسـرعة لبضع دقائق ثم تركن جانباً لتتخمّر. أحياناً، ونزولاً عند رغبة الضيوف، يجري دق بعض التوابل وإضافتها إلى القهوة لإعطائها نكهة متميزة.

بعـد ركنهـا لبضعة دقائق، يجري سـكب كمية ضئيلة من القهـوة تعادل ملعقة طعام تقريبـاً في فنجان أملـس دون مقبض وتُدار على الحاضرين. تقضي التقاليد بأن يتذوّق المضيـفُ القهـوة أولاً قبل تقديمهـا للضيوف. أربع أوقيات من البـن تضاف عادة إلى مايزيد قليلاً عن نصف لتر من الماء، ما يجعل منها شراباً قوياً جداً بلون أسود داكن يتم ارتشافه دون حليب أو سكّر.

تُعـد كميـة القهـوة التي يسكبها المضيـف لضيوفـه معياراً لكـرم المُضيـف. ومن العبارات الشـائعة والمحببة التي تسـتخدم للتعبير عن كـرم المُضيف القول بأن «دِلال قهوته لا تنزل عن النار أبداً».

القهـوة هي التّـرفُ الوحيـد الذي يمتلكـه هؤلاء الأعـراب؛ حيث أن المُسـكرات والمشروبات الكحولية لم تعرف طريقها إليهم بعد، وليس لديهم أية مشروبات محلية الصنع تحلّ محل المشروبات الكحولية، وقد يطول بهم الزمن وهم على هذه الحال!

فـي الوقـت الـذي كانت فيه ضيافـة القهـوة جارية على قدم وسـاق، كنا منشـغلين بالحديـث عن إمكانيات سـبري لأغـوار مناطق أبعد من البلاد. كانت الآراء منقسـمة؛ البعـض رأى أن بوسـعي القيـام بذلـك بأمـان، بينمـا رأى البعـض الآخـر أن مثل هذه العملية ستكون محفوفة بقدر كبير من المخاطر، ناهيك عن التعب والمشاق. نصحني شـيخ العشـيرة بالعودة إلى عرمان Orman، لكنه لم يهتدِ إلى وسـيلة تضمن مثل هذه العودة.

وفجـأة دخل علينـا أحد الرجال وقال بأن مجموعة مـن الأعراب كانت قد وصلت للتـوّ وأنها بصـدد المغادرة في الصباح الباكـر باتجاه الجـوف Jowf، وهي بلدة كبيرة على مسيرة حوالي أحد عشر يوماً باتجاه الجنوب الشرقي.

كنت عازماً، إذا ما كان طريقي ميسّراً، على الوصول إلى تلك البلدة، كونها الأكبر والأهم في شمال جزيرة العرب. ولعله يجدر بي أن أشير هنا إلى أن كاف، المكان الذي كنت فيه آنذاك، كانت واقعة تحت سيطرة حكومة ابن رشيد[1]، سلطان جزيرة العرب، المقيم في حائل.

أرسل شيخُ العشيرة المدعو محمّد البادي[2] Mohammed el-Bady في طلب الرجل المسؤول عن القافلة وأخبره برغبتي في مرافقتهم إلى الجوف. هل سيقدمون لي جملاً ويسمحون لي بمرافقتهم في هذه الرحلة؟ سرعان ماتنبه الرجل إلى كوني مسيحياً وأعطى رده: «إذا ما نقلتُ نصرانياً إلى الجوف، أخشى أن يعمد جوهر Johar – شيخ العشيرة[3] هناك – إلى قتلي على هذه الفعلة، لذلك فأنا أعتذر عن القيام بمثل هذه المهمة».

جرى استدعاء رجالٍ آخرين، لكن جوابهم جميعاً كان واحداً تقريباً. قال لي أحدهم: «إذا ما كنت مُصراً على زيارة الجوف، فعليك بدخول الإسلام، حيث أنه يحظّر على أيّ مسيحي التواجد هناك لأكثر من بضعة أيام». كان ذلك في الحقيقة أمراً مُحبطاً، لكن شيخ العشيرة طلب مني «المحافظة على رباطة جأشي» واعداً إياي بالمحاولة مجدّداً صباح الغد قبل رحيل القافلة؛ وهنا أقفلنا الحديث في هذا الموضوع وقدّمتُ لهم الإنجيل.

بصفته قارئاً جيداً، تناول أحد الحاضرين الإنجيل من يدي وشرع في قراءته. أرشدتُه إلى الفصل الثالث من إنجيل يوحنا؛ وكنت كلما تلا آيةً من آياته أتولى التعليق عليها

(1) كما ذكر فوردر أعلاه، كان حاكم جبل شمَّر في حائل آنذاك الأمير عبد العزيز بن متعب آل الرَّشيد (حكم 1897–1906) بعد عمّه الرّهيب محمّد.

(2) المعروف أنّ شيخ كاف آنذاك كان الشيخ عبد الله بن خميس، وآل ابن خميس من السّرحان هم شيوخ كاف المعروفون، ومن الغريب أن فوردر هنا يذكر الشيخ باسم محمّد البادي.

(3) لم يكن جوهر أبداً شيخ عشيرة، فهو رجل زنجي كان حاكماً للجوف لصالح آل الرّشيد، انظر التفاصيل الوافية عنه في رحلة الليدي آن بلَنت بكتابها «حجّ إلى نجد»، سيصدر قريباً في هذه السلسلة.

وتفسيرها. كنت أعمد أحياناً إلى تكليف رجل آخر بالقراءة كي يقتنع السامعون بأن ما يُتلى عليهم هو مدوّن فعلاً في الكتاب الذي يرونه أمامهم. إذ لطالما اتهمني الأعراب باختلاق بعض من الأشياء التي كنت أتلوها عليهم، ولكن بوجود واحد منهم بالذات يقوم بعملية القراءة، فقد تم دحض تلك المقولة الزائفة.

كان الرجال المحتشدون هناك شديدي الاهتمام بكل ما كنت أقوله. لقد كان شيئاً جديداً تماماً بالنسبة لهم.

طرحوا عليّ العديد من الأسئلة حول عقيدة المسيحيين وعاداتهم، وكانوا يُشفقون علينا لاقتصارنا على زوجة واحدة فقط في حياتنا، وكذلك لعدم وجود أشجار نخيل في بلادنا.

قبل أن نفترق للذهاب إلى النوم، طلب مني الرجل الذي كان يقرأ من الإنجيل أن أقدّم له نسخة من الكتاب. قلت له بأن عليه أن يشتريه، فأجاب أن بوسعه أن يسدّد ثمنه تمراً، إذا ما وافقتُ على هذه المقايضة، فوافقته على ذلك. وهكذا، أحضر لي صباح اليوم التالي كمية من التمر وأعطيته الكتاب.

لقد أفضت هذه الصفقة إلى بيع ثماني أو تسع نسخ أخرى، إما من سفر المزامير Psalms وإنجيل لوقا Luke في نسخة واحدة، أو سفر التكوين وإنجيل يوحنا.

نهضت في الصباح الباكر وخرجت مع الشيخ، الذي بذل ما في وسعه لحمل الرجال المغادرين على اصطحابي معهم، لكنهم كانوا جازمين في رفضهم. وهكذا لم يكن بوسعي أكثر من مراقبتهم وهم يُحمِّلون حوائجهم ويهمّون بالمغادرة، يتملكني شعور بأن إمكانية مرافقتهم باتت ضئيلة للغاية.

أمضيت ذلك النهار في منازل القوم وحدائقهم، الذين كانوا يعاملونني بطريقة لطيفة لم يكن يعكّر صفوها سوى انتقاداتهم المستمرة لي كمسيحي.

في تلك الليلة بالذات، نزلتْ بأرض كاف قافلة أخرى من الرجال لقضاء الليلة هناك. حاول مضيفي عبثاً إقناعهم باصطحابي معهم، لكن الجواب كان نفس جواب

الليلة السابقة. شاهدتهم وهم يغادورن في صباح اليوم التالي وتساءلت إذا كان سيُقدّر لي مغادرة هذا المكان.

بعـد رحيل القافلة، دنا مني مضيفي محمّـد قائلاً: «بما أن أحداً منهم لن يوافق على اصطحابك، فأنا سأذهب معك إلى وجهتك التالية المسماة إثرة Ithera، ولعله سيكون بمقدورك أن تنتقل من هناك إلى الجوف». وحوالي الظهيرة قام باستدعاء أحد خدمه لإحضار جمل وحصان، وبدأنا نتهيأ لبدء الرحلة. وبعد أن أنجزنا مهمة تحميل الأمتعة قمـت باعتـلاء ظهـر الجِمل وقام هـو بامتطاء جـواده. ولكننا لم نكد نصـل إلى خارج البوابـة التـي تقودنا إلـى البلدة، حتى التقينا بحوالي اثني عشـر رجـلاً قادمين باتجاهنا على ظهور الجمال.

كانوا شيوخ عشائر من قبيلة متمركزة في الجوار وقد حضروا لزيارة مضيفي. وهكذا عدنـا أدراجنـا وأنا أمام خيارين: إمـا البقاء لبضعة أيام أخرى، أو أن يتمّ إرسـالي برفقة اثنين من رجال الشيخ. فآثرت الخيار الثاني.

قامـوا بتحميـل الجمـل وأعطوني حصاناً لركوبـي، ثم انطلقنا مـن جديد. وحوالي المغيب لاحت لنا على البعد أشـجار نخيل إثـرة؛ كانت تفصل بين الموضعين حوالي أربعة فراسخ على ظهور الخيل. لاحظت بأن الرجلين كانا من وقت لآخر يترجلان عن الجمـل حيـث قاما بإناخته مرتين، فيما بدا لي على أنـه محاولة منهما لموازنة الحمل. لكني تبيّنت لاحقاً أنهما قاما باقتناص بعض حاجياتي ودفنها في الرمال.

عندما رجعت بعد حوالي ثلاثة أشـهر تقريباً، قام شـيخ العشيرة بتسليمي الأغراض التـي كان الرجـلان قد سـلباني إياها. كانا قـد أخبرا أبناء بلدتهم عمـا فعلاه بي، ولدى تناهي الخبر إلى مسـامع الشـيخ، عمد إلى حمل الرجلين على إعادة أشيائي المقتنصة ثم قام بجَلدهما عقاباً لهما على معاملتهما السيئة لضيفه[1].

---

(1) والله ما قصّر الشيخ، فهذا ضيف لا تجوز معاملته إلا بكل خير، وتبقى عوائدنا العربيّة أرقى من أن تُمسّ بسوء.

تعدّ إثرة Ithera قرية أصغر بكثير من كاف ولها شيخ عشيرتها الخاص بها[1]. يقدّر عدد سكان إثرة بحوالي ستمئة إلى ثمانمئة نسمة، آخذين كل شيء بعين الاعتبار. والمكان، على غرار مثيلاته في جبل شمَّر Jebel Shomer، عبارة عن منازل مبنية من الطوب الطيني ومحاط بأشجار النخيل. يوجد هنالك نبع ماء وسط القرية يمدّ سكانها ودوابها على حد سواء باحتياجاتهم من مياه الشرب.

كافة بيوت القرية مؤلفة من غرفة واحدة كبيرة، والعديد منها من دون أبواب وخالية من الأثاث. لفت نظري وشد انتباهي بقوة أطلالٌ ظاهرة لصَرح أثري كبير وسط القرية مشيّد بقطع كبيرة من الصخر الأسود اللون المنحوت بشكل غير مصقول. استنتجتُ بأنه كان في يوم من الأيام مركز حراسة نظراً لوجود فسحة رحبة لإقامة الناس والدواب. بعض الغرف في هذا الصَّرح الأثري جرى تحويلها إلى مساكن ومخازن، وهي تفوق بأهميتها الصّروح العصرية. هنا أيضاً لاحظت بأن النسوة كن يتمتعن بقدر كبير من الحرية ويتنقلن دون خمار.

كانت غرفة الضيافة الخاصة بشيخ العشيرة في إثرة تقع بجوار المدخل الرئيسي للقرية. بقينا راكبين وتوجّهنا إلى باب الغرفة المتواضعة حيث نزلت مع حاجياتي

(1) وشيوخ إثرة هم آل المذهن، من مشاهيرهم الشيخ محمّد بن سلطان المذهن كبير إثرة وشيخ السّرحان في القريّات. وسيذكر فوردر أدناه أن اسم الشيخ خويخان، والمقصود خويخان المذهن (من المبادر من الحباب من السرحان). ولقد قدمت هذه الأسرة من الجوف واستقرت بإثرة منذ أكثر من قرن ونصف وكان منهم (طلال، مانع، منّاع) حيث نزل طلال بداية الأمر بالمويه شرق القرقر وله قصر هناك، أما مانع ومنّاع فنزلا في إثرة وحفرا عن أساس القصر الذي سمّي بقصر المذهن فيما بعد.
كان لمانع المذهن 4 أبناء (جروان، ذياب، شهاب، خويخان) وسبب رحيلهم من الجوف سوء تفاهم بينهم وبين ابن رشيد فجلوا إلى إثرة واستقروا بها. وبعد فترة من الزمن تولى جروان مشيخة القرية (وقابله الزوجان بلنت عام 1879)، ومن بعده آلت إلى أخيه ذياب المذهن الذي عيّن ابن أخيه جروان شيخاً على القرقر وتولى ابن عمه نداء على كاف، واستمر لمدة سنتين، تنازل بعدها لأقاربه من الخميس عن مشيخة القرية بناءاً على طلب عمّه ذياب المذهن وأعيد ابن خميس إلى كاف وبقي نداء وأخوه صالح بها حتى عام 1338هـ.

القليلة عند المدخل. دلف الأصغر بين الرجلين اللذين رافقاني من كاف إلى داخل الغرفة، وأخذ ينادي على كافة الرجال الجالسين في الداخل قائلاً: «لقد أحضرنا معنا رجلاً نصرانياً، وها نحن أولاء نعهد به إليكم، فافعلوا به ما بدا لكم».

بهذه الطريقة جرى إيداعي في إثرة دون أن يُعهدَ بي لأيّ شخصٍ بعينه. وكان يجدر بهما، وفق ما تقتضيه التقاليد، البحث عن شيخ العشيرة وتسليمي إليه شخصياً. وحسبما جرت الأمور، لم يكن هنالك أحد مسؤولاً عني.

حملتُ أمتعتي إلى الداخل وركنتها في إحدى الزوايا. لم ألق من أحد أيّ بادرة ترحيب ولم يفسح لي أيّ منهم المجال للجلوس.

وهكذا بقيت واقفاً عند عتبة الباب من الداخل. كان المكان رحباً للغاية بطول حوالي ثلاثين قدماً وعرض خمسة عشر قدماً. كان مدخل الغرفة في أحد الجدران الجانبية. لقد كان مكاناً، على غرار مثيلاته، يفتقر إلى أدنى أسباب الراحة. الأرضية كانت مغطاة بالرمل، وكان بداخلها حوالي ثلاثين رجلاً جالسين بوضعية القرفصاء. كان من بينهم رجل أسود اللون بنظرة ثاقبة وسحنة رهيبة جالساً يتعهّد أمر القهوة، يقوم بصبّها وتقديمها للحاضرين.

كانت الغرفة مخصصة لاستخدامين أساسيين. الشطر الذي على يمين المدخل منها كان مخصصاً لإقامة الرجال والضيوف، وذاك الذي على الجانب الأيسر كان مخصصاً كإصطبلٍ للدواب، وكان بحالة مزرية من القذارة. وكان هنالك عدد من الخيول والجمال مربوطة في المكان تخصّ رجال قبيلة بني صخر، الذين كانوا قد حضروا لعقد بعض الصفقات التجارية وكان عليهم قضاء ليلتهم هناك.

وقفت في مدخل الغرفة بانتظار دعوتي للانضمام إلى جماعة الرجال، الذين كانوا يتساءلون فيما بينهم عن هويتي ومقصدي. كانوا بلا شك يعتقدون بأني لا أتكلم العربية ولا أفهم بالتالي المواضيع التي كانوا يتحدثون عنها.

أحد الرجال الذين كانوا جالسين بالقرب مني أخبر البقية بأني نصراني من القدس

وأنه لا بدّ من تجنبي، كونه سبق له أن زار تلك المدينة واطلع على أحوال المسيحيين هناك - من غير البروتستانت - فهم يعبدون الصور والتماثيل.

لسوء الحظ، فإن كل ما قاله الرجل كان صحيحاً، ويمكن مشاهدته في أيّ كنيسة من كنائس الطوائف الشرقية التي تمثل المسيحية. رجل آخر من الجالسين في الجانب الآخر من الحلقة خالف الأول في الرأي، وتطوّع بالتصريح بأني «لم أكن نصرانياً، وإنما واحد من اليهود».



مشفى مؤقت في الصحراء

لقد أُرسل الكاتب إلى هذه الخيمة لكي يقيم مع رجل عجوز يعاني من مرض مقزّز للغاية. كان القوم يأملون أن يلتقط المستر فوردر عدوى المرض ويموت، وبذلك يتجنّبون مغبّة قتله.



زوجة الشيخ خويخان

هذه المرأة تقوم بتحضير وجبة الفطور، فتخبز الخبز على صاج حديدي حار. لقد عاملت هذه المرأة المستر فوردر بلطف خلال إقامته القسريّة في بلدتها. وسبب نظرتها المتفاجئة هو اندهاشها لرؤية الكاميرا.

لكن رجلاً ثالثاً زعم بأنه الأعرف بين الجميع قال بصوت مرتفع: «لاهو بالنّصراني ولا باليهودي، وإنما أحد الملحدين الوثنيين الذين لا يعرفون الله ولا رسوله محمّد، عليه الصلاة والسلام».

مع ذلك، لم تقنع هذه التصريحات باقي أفراد المجموعة، فما كان من أحد الحاضرين إلا أن انبرى قائلاً بجرأة وتحدٍّ: «هذا الرجل ليس بنصراني ولا يهودي ولا وثني، وإنما خنزير قذر».

كل من يعرف أيّ شيء عن ثقافة المسلمين سيدرك بأن ما قاله هذا الرجل يشكل أكبر إهانة على الإطلاق لأيّ شخص كان. فأن تنعت شخصاً ما بأنه كلب يكفي لخلق عدواة بينكما مدى الحياة، أما أن تشبّه شخصاً ما بأنه خنزير، فهذا يتخطى حدود التسامح، وربما أفضى إلى القتل.

قال الرجل ما قاله عني ثم غادر المكان، ربما خوفاً ممّا نطق به لسانه، ثم دخل علينا شيخ العشيرة في هذه القرية.

سمع الشيخ الكلمات الأخيرة التي تفوّه بها ذلك المتكلم المتواري، وكذلك ما تجرأتُ وقلته رداً على تلك الانتقادات والإهانات بحقي. كان كل ما قلته لهم هو: «أيها الرجال، أنا لست بخنزير ولا ملحد ولا يهودي؛ أنا مسيحي يعبد الله، الإله نفسه الذي تعبدونه، ولست من أولئك المسيحيين الذين يعبدون الصور واالتماثيل ويسجدون لها؛ مثلما هنالك أربع أصابع مختلفة في يدكم، هنالك أربع عقائد مسيحية مختلفة».

عندها، خاطبني الشيخ العجوز قائلاً: «طالما أنك نصراني، إذاً اذهب واتخذ لك مكاناً بين الدواب». امتثلتُ لما طلبه مني الشيخ وذهبت وجلست على الأرض بين أحد الجمال وفرس عجوز بيضاء اللون.

لم يطل بي المقام في الإصطبل حتى دخل علي رجلٌ بدا من لباسه أنه غريب. وسرعان ما تأكد لي ذلك عندما أقبل نحوي ومدّ يده إلي مصافحاً. لم يسبق لي قط أن صافحتني يدٌ أكثر دفئاً ومودة من تلك اليد. لقد عبّرت لي بطريقة عفوية بريئة عن

معاني التعاطف والرأفة والمؤاساة. جلس بالقرب مني وبدأ بيننا هذا الحوار المقتضب، وبالنسبة لي، التثقيفي:

الغريب: من أنت ومن أين أتيت؟

الجواب: من القدس. أنا مسيحي، مبشر.

الغريب: ما هو مرامك هنا؟

الجواب: قدمتُ للتعرّف إلى الأرض والناس والبلدات والقرى، وأحمل معي كتباً للبيع.

الغريب: إذا كنت تقدّر قيمة حياتك عليك بمغادرة هذا المكان بأسرع ما يمكن، وإلا فتك بك هؤلاء الرجال، فهم عصبة من الأشرار.

سؤال: من أيّ نوع من الرجال شيخ العشيرة هذا؟

الغريب: لطيف جداً وله نفوذ كبير؛ وهو يكرم ضيوفه إلى أقصى حدّ.

سؤال: من أنت، وماذا تفعل هنا؟

الغريب: أنا درزي وأدير الدكان الوحيد في هذا المكان. لقد سمحوا لي بالبقاء لأني أتظاهر بأني مسلم.

بهذه الكلمات قام وغادر المكان، ولم أره بعد ذلك أبداً خلال فترة إقامتي القصيرة هناك. ثم أرهفتُ سمعي إلى ما كان يقوله الرجال في الجانب الآخر من الغرفة. سمعتهم يناقشون مع الشيخ خططاً للتخلص مني.

اقترح أحدهم حزّ عنقي أثناء نومي في تلك الليلة. لكن الشيخ العجوز قال: «لن أسمح بإراقة دم نصراني في بيتي وقريتي». اقترح رجل آخر أن يصار إلى تسميم الطعام الذي سيقدمونه لي على العشاء، فهذا سيوفر عليهم عناء قتلي، حيث أنني سأموت في أثناء النوم، وبعدها يصار إلى دفني. وإذا صادف أن قدم أحد من أهلي أو الحكومة يبحث عني، وهو ما سيحصل، يمكن أن يطلعوهم على قبري، وإذا ما استدعى الأمر،

يُطلعونهم على جثتي، ولكن من دون ما يدلّ على أنني قضيتُ غيلة.

مع ذلك، فقد اعترض الشيخ على هذا الاقتراح أيضاً، وفي نهاية المطاف تم التوافق على طردي خارج القرية إلى عرض الصحراء لأقضي جوعاً وعطشاً. بعدها، استقرّ الرأي على تركي حتى الصباح، ثم أردف الشيخ العجوز قائلاً: «كيلا يحلّ مكروه بدوابنا جراء وجود نصراني بينها، من الأجدر به أن يقضي ليلته في البساتين، تحت أشجار النخيل».

ثم أُحضرَ العشاء، وبعد أن انتهى الجميع من تناول عشائهم، دُعيتُ إلى تناول طعامي. جلست قبالة الطبق الضخم المستدير، وتحت وطأة الجوع المستحكم، انهمكت متلذذاً بتناول وجبة مجهولة مكونة من عناصر غذائية لا أعرف عنها شيئاً. كنت أتناول الطعام بأصابعي عوضاً عن الملعقة أو الشوكة، وهي أشياء غير معروفة في تلك المناطق؛ وكوني لمحت الآخرين يأكلون من الطعام ذاته، فقد اطمأنيت إلى سلامته.

بعدها، طلب مني الشيخ اللحاق به، ثم انطلق بي خارجاً إلى البساتين القريبة. جلستُ تحت إحدى أشجار النخيل الباسقة وتهيأت لقضاء ليلتي في العراء. وبعد حوالي نصف ساعة رجع إلي الشيخ قائلاً: «أخشى إن بقيتَ هنا أن يَلحقَ بأشجار نخيلنا مكروه ما ويتضرّر محصولي من التمور لهذا الموسم؛ لذلك، تعال معي». مشى الشيخ أمامي وأنا تبعته. كان الظلام قد أرخى سدوله تقريباً عندما وصلنا إلى خارج أسوار القرية.

أرشدني الشيخ إلى خيمة يتيمة قريبة من المكان في ظل بعض الجدران العتيقة ثم قال لي: «اذهب وامكث هناك»، فامتثلت لأمره.

وجدتُ بداخل تلك الخيمة رجلاً عجوزاً يعاني من مرض كريه مثير للاشمئزاز، أشبه بالجذام. كان المريض في حالة يرثى لها وكان منظره منفّراً إلى أبعد الحدود. قال لي بأنهم لم يعودوا يطيقون وجوده بينهم داخل لقرية، وهكذا فقد نبذوه هنا إلى أن

يوافيه الأجل ويريحه مما هو فيه.

لم يسبق أن شعرت في حياتي قط بالحاجة إلى العزيمة والمدد كما كنت أشعر الآن. كنت من خلال قراءاتي المتكررة قد حفظت عن ظهر قلب المزمور المقدس الحادي والعشرين بعد المئة 121st Psalm والتمست العون الإلهي من الآية السابعة كما لم أفعل من قبل.

استيقظت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي مترقباً أحداث النهار. لم يقترب أحد من المكان، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن مكان وجود حوائجي. كل ما كان معي هو إنجيل الجيب، وكل ما تمكنت من قراءته فيه هو المزمور الذي سميته للتو، وهو المزمور المقدس الحادي والعشرون بعد المئة 121st Psalm.

لمحت حوالي الظهيرة عدداً من الرجال برفقة الشيخ العجوز واسمه خويخان[1] يعبرون من أمام باب الخيمة، فتبعتهم دون أن يلحظني أحد. بعدها جلسوا يتحادثون وهم غافلين عن وجودي بالقرب منهم أتنصّت على كل ما كانوا يقولونه. استنتجت من حديثهم ثلاثة اشياء:

الأول: أن قافلة كانت ستشدّ رحالها إلى بلدة الجوف نهار الجمعة القادم – وكان اليوم الأربعاء.

الثاني: أن الشيخ العجوز نفسه سيتولى قيادة القافلة.

الثالث: أن المجموعتين اللتين سبق أن شاهدتهما تغادران آخر المحطات، ألا وهي كاف، قد تأخرتا كلتاهما لسبب أو لآخر، وقد تقرّر أن تنضمّا للقافلة المغادرة يوم الجمعة.

---

(1) هنا للمرّة الأولى يسمّى فوردر الشيخ خويخان، وهو كما قلنا خويخان بن مانع المذهن (من المبادر من الحباب من السّرحان). لكن المؤلف كتب الاسم بطريقة عجيبة غريبة لا يُفهم بها أبداً: Khy–Khwan خاي خوان، ولمّا لم يكن للشيخ خويخان المذهن أخبار مدوّنة في شيخة إثرة، فقد كان من العسير العثور على اسمه، إلا بمتابعة طويلة وشاقة.

سُررتُ أيّما سرور لسماع هذه الأنباء، وعزمت على مقابلة الشيخ بهذا الخصوص. وبعـد مغادرة الرجال عمدت إلى تتبّع خطى الشـيخ خويخـان والتحدث إليه على هذا النحو:

«أنتـم ذاهبون إلـى الجوف؛ هلا اصطحبتمونـي معكم؟» حدّق بي الرجل بدهشـة واستغراب قائلاً:

«لـن تبرح هـذا المكان حياً، وإذا مـا فعلت ووصلت إلى الجوف، فسـوف تُقتل لا محالة. إنها أرض المسـلمين؛ ولا يسمح لأيّ مسـيحي بدخولها. أنتم أعداؤنا وأعداء اللـه». فأجبتـه قائـلاً: «سـأدفع لك لقـاء اصطحابـي معكم، وأنـا على أتمّ الاسـتعداد لمواجهـة الجوف بكل أخطارها». فكان جوابه: «هل تعرف كم تبعد الجوف عن هنا؟ إنها مسيرة عشرة أيام. سفر الصحراء ومخاطر قطاع الطرق والجوع والعطش والإعياء ستقضي عليك».

أكّدت للشيخ مجدّداً استعدادي لتحمّل كل هذه المشاق وأنني لا أخشى منها شيئاً. ثم سألته: «كم تريد مقابل اصطحابي معكم خلال رحلة الأيام العشرة هذه ذهاباً وإياباً، شـرط أن تقدموا لي جملاً وطعاماً وشراباً وماتستطيعون من مساعدة طيلة فترة مكوثنا في الجوف؟».

كان جوابه حاسـماً ومقتضباً: «ليرتان إنكليزيتان لليوم الواحد، أي ما يعادل عشـرة دولارات – عشرة أيام ذهاباً وعشرة أيام إياباً، أضف إلى ذلك مكوثاً لمدة خمسة عشر يوماً، فيكون المجموع خمسـة وعشـرين يوماً. ادفع لي سـبعين قطعـة ذهبية إنكليزية، وسوف نقلك معنا».

أخبرتـه بـأن هذا مسـتحيل، لأنه يفـوق كل ما أملـك؛ ولا بد من تخفيـض المبلغ. أجابني قائلاً: «إذا كنت غير قادر على دفع المبلغ، فعُد إلى مكانك».

وهكـذا عـدتُ أدراجي إلـى الخيمة المنعزلة. لكنـي كنت في غايـة الطمأنينة لأنها كانت مشيئة الله بقدومي إلى إثرة في التوقيت الذي قدمتُ فيه.

لقد كان العثور على شخص مثل خويخان، الذي هو بصدد قيادة قافلة إلى الجوف، تقديراً ربّانياً، مثلما كانت حقيقة أن الجماعات المختلفة التي شاهدتُها تغادر كاف قد تأخرت في إثرة.

شعرت بأنّه قد حان وقت العمل. وهكذا ولدى عودتي إلى الخيمة جلستُ للتأمل والصلاة. لقد وجدتُ نفسي مرغماً على تقديم عرضٍ مالي للشيخ، ولكن ليس ذلك المبلغ الكبير الذي طلبه مني. كان معي عدد من النابليونات (الليرات) الذهبية الفرنسية التي تعادل كل منها أربعة دولارات، مخيطة داخل نطاق سروالي. وهكذا قمت باستخراج أربعة منها وخرجت في إثر الشيخ.

وجدته جالساً بمفرده داخل غرفة الضيافة. دنوت منه والنقود في يدي قائلاً: «إذا ما سمحت لي بمرافقتكم إلى الجوف وأمّنت لي جملاً وطعاماً وشراباً، فسأعطيك هذه الليرات الذهبية الأربع».

نظر إلى النقود ثم التفت إلي قائلاً: «هاتها الآن وسننطلق بعد غد». قلت له: «لا؛ بل أعطيك إياها على الملأ أمام رجال القرية؛ يجب أن يكونوا شهوداً على اتفاقنا». فلو كنت أعطيته النقود لربما كان أنكر تسلّمها مني.

وهكذا خرجنا معاً إلى ساحة القرية حيث تم تسليمه النقود وإبرام الصفقة بحضور رجال إثرة. سُمح لي في تلك الليلة أن أنام في غرفة الضيافة، بوجود حصان إلى يميني وجمل إلى يساري، وجلّ ما كنت أخشاه أن يطأني الحصان وأنا مستلقٍ على الأرض. لكنني أمضيت ليلة مريحة.

عند استيقاظي صباح اليوم التالي وجدت المكان خالياً. قصدت أحد الينابيع القريبة لأغتسل؛ وهو أول اغتسال لي منذ عدة أيام، ثم طفقت أبحث عن بعض الرجال. التقيت امرأة، تبيّن لي فيما بعد أنها زوجة خويخان؛ التي دعتني بلطف للذهاب إلى بيتها، فلبّيت الدعوة. قدّمت لي طبقاً من التمر وبعض الخبز الساخن وزبدية من اللبن الرّائب، جعلت منها وجبة إفطار دسمة. تحادثت معي مطولاً وتعاطفت معي ورأفت

لحالي كوني ارتحلت عن وطني وقومي وأهلي متخذاً لي ملجأً بين الأعراب. سألتني: «أيّة جريمة ارتكبت، أو من قتلت حتى اضطررت للفرار؟».

أخبرتها عن السبب الحقيقي الذي دفعني للقدوم إلى صحراء جزيرة العرب، لكنها، للأسف، لم تستطع أن تصدّق أني أترك زوجتي وأطفالي وبيتي ووطني وأعيش مثل هذه الحياة التي أعيشها لهدف وحيد وهو إخبار الناس عن المخلّص.

سألتها عن الرحلة المفترضة، فقالت بأن زوجها يقوم بهذه الرّحلة مرة في العام وأن هذا هو موعدها. كان يعكف على جباية الضريبة السنوية من الإقليم والتي بدورها تُدفع لشيخ عشائر الجوف الذي يقوم بإرسالها إلى العاصمة، حائل.



قِرب جلديّة مملوءة بالماء جاهزة للرحلة

يتم سلخ الجلود من بدن الحيوان قطعة واحدة، وبعد أن يملّحوها يستعملونها لحمل السوائل. وهذه الجلود الأربعة الظاهرة المملوءة بالماء مخصصة للمستر فوردر والشيخ الذي رافقه عشرة أيام عبر الصحراء. وعند عدم استخدامها يتمّ دهنها بزيت الزيتون وفركه على الجلد لمنع جفافه وتشققه وإلا يغدو عديم الفائدة.

أخبرتي السيدة بأن هؤلاء الرجال هم عبارة عن عصبة من «العُتاة»، لكنها شجعتني بقولها: «طالما أنك مع خويخان، فإن أحداً غير قادر على إيذائك».

سألتها عن روحها، لكني تلقيت الردّ المعهود: «نحن النساء لسنا بأفضل حال من الجمال أو الحمير؛ نحن النساء لا أرواح لنا؛ وعندما نموت تكون هذه نهايتنا». ثم خرجتُ من عندها.

في أثناء تجوالي شاهدتُ الجميع يحملون قِرَبَ الماء استعداداً لبدء الرحلة. في إحدى البساتين بالقرب من حوض ماء كانت هنالك أربع قِرَبٍ جاهزة لتعليقها على الجمال. أدركتُ أن انطلاقة الرحلة باتت وشيكة، ولم يخب ظني.



الفصل الثامن عشر

عشرة أيام فوق رمال الصحراء

سمعتُ أذان الظهر، وقفلتُ عائداً إلى البيت. وفور انتهاء الصلاة بدأ الهرج والمرج. دُفع إليّ بأحد الجمال وطُلب إليّ تحميل أمتعتي بسرعة كون القافلة قد بدأت تحركها.

وضعت حوائجي على الجمل ثم اعتليت ظهر الحِمل وانطلقت خارج القرية. وهناك التقيت بشيخ العشيرة الذي أرسل رجلاً كي يأتيني بعصاةٍ أهشُّ بها على جملي، الذي لم يكن مزوداً بأي رسن أو حبل.

مع بدء تحركنا، انزلق حملي، وأنا كذلك، كونه لم يكن مربوطاً بإحكام. فتمّ إرسال بعض الرجال لتعديله وتثبيته، وسرعان ما كنت أخبّ ببعيري أمام الركب متجاوزاً الجميع. تمكنت من إحصاء حوالي مئة وعشرين جملاً وحوالي ثمانين رجلاً في القافلة. البعض منهم كانوا غلظاء وشرسين بشكل خاص. كانوا يتحلّقون حولي مستعرضين خناجرهم وبنادقهم، مكرّرين على مسامعي مرة بعد أخرى أن مثل هذه الأشياء كانت مخصّصة للنّصارى[1]. قالوا لي بأنه لا ينبغي لي أن أصل إلى الجوف حيّاً؛ وأنهم سيلقون بجثتي على الرمال.

---

(1) كان ينبغي لفوردر أن يتذكر أفعال قومه الإنكليز في منطقة الخليج العربي، من قصف لعَجمان عام 1865 وللقطيف والدّمّام وصور عام 1866 وإثارة الأعمال العدائيّة ضدّ بعض مجتمعات جزيرة العرب، وخاصة الدّولة السعودية الثانيّة في أيام الإمام فيصل بن تركي. فعلى ذلك ليس من المستغرب تحامل الناس على قومه.

بدؤوا بتمجيد عقيدة الإسلام، وطلبوا إليَّ التحول عن عقيدتي إذا ما كنت راغباً بالعيش فـي بلادهم. لم تكن الرحلة باتجاه الجوف مشـجعة من الناحية الإنسـانية، لكني في قرارة نفسـي كنت أشـعر بأن الله كان معي، وأن التدابير التي تمكنت من إنجازها لقاء مبلغ زهيد من المال دفعتني إلى الاعتقاد بأن كل شيء سيكون على ما يرام. لم أغفل عن حقيقة وجود مخاطر، لكني عوّلت على وعدهم لي بأنهم لن يستضعفوني أو يعمدوا إلى إيذائي.

غادرنا إثرة حوالي الواحدة ظهراً واستمرّ مسيرنا حتى المغيب. وحوالي الساعة الخامسة تقريباً سمعنا صيحة من وراءنا: «انظروا وراءكم». وإذ بعصبة من البُداة الشرسين جادّين في إثرنا بأقصى ما يستطيعون من سرعة؛ لقد كانوا مجموعة من قطاع الطرق.

سرعان ما عمد الرجال، بهدف حماية القافلة، إلى رصّ الجمال جنباً إلى جنب، ثم إلى إناختها على الأرض. اقترب مني شيخ العشيرة قائلاً: «لقد تسبّب وجودك معنا لنا بهذه المتاعب، وفي أول أيام مسيرنا أيضاً». ثم طلب مني الانبطاح أرضاً وإيجاد ملاذ لي وسط الجمال خشية أن تصيبني رصاصة طائشة، كونهم بدؤوا هجومهم علينا.

لم أكترث أبداً لاتخاذ مثل هذا الموقف المهين الذي اقترح علي خويخان القيام به. قال بأنه يخشى أن أُقتل، ولعن اليوم الذي قدمتُ فيه إليه.

جـرت معركة حاميـة الوطيس بين قطاع الطـرق ورجالنا، الذين أبلـى بعضهم بلاءً ممتازاً في هذه المواجهة.

هنأتهـم على شـجاعتهم فيما بعـد وأصبحنا أكثر وئامـاً. ولّى اللصـوص أدبارهم، وصـدر الأمـر بقضاء ليلتنا حيـث نحن. وبعد أن قدّمـوا لي وجبة العشـاء المكونة من التمر والخبز الفطير السـاخن غير المختمر، اضطجعت على الرمال وسـرعان ماكنت أغطّ في النوم. ظهر اللصوص ثانية بعد حوالي ساعتين، لكنهم رُدّوا على أعقابهم.

في صباح اليوم التالي تحركنا مع شـروق الشمس، ووصلنا سريعاً إلى أحد ينابيع المياه المالحة، حيث قمنا بملء القِرَب، ثم واصلنا مسـيرنا على جناح السرعة. لم نكن نتلكأ أبداً حول مصادر المياه، خشـية أن يُقبل علينا بعض الأعراب وينشـب بيننا شـجار، في حال لم

يكونوا من النوع المسالم. إن معظم المواجهات بين البدو والعرب يكون سببها الخلاف على الماء والينابيع والآبار (سفر التكوين– المزمور 18 xxvi–21). كنا قد أتينا في تلك الليلة على كل الماء الذي حملناه معنا من النبع، على أمل أن نجد المزيد في اليوم التالي. لكننا وعلى مدى خمسة أيام لم نعثر على قطرة ماء واحدة، حيث كاد أن يقتلنا الظمأ.

في عشيّة اليوم الخامس، حفزتُ الرجال على البحث عن الماء، فانطلقوا في كل اتجاه للقيام بذلك. وفي الحال لمحنا أحدهم وهو يلوح لنا بعباءته، إشارة إلى نجاحه في مهمته. غذّت الإبلُ السير في اتجاهه؛ وكنت أنا في آخر الركب.

لدى وصولي إلى المكان لمحتُ عشرةً من الرجال جاثين على ركبهم وهم يحفرون في الرمال، تماماً كما يفعل الكلب. سألتهم عن مكان وجود الماء، فكان الجواب: «مهلاً ولا تكن عديم الصبر، أنت ابن مدينة ولا دراية لك بأمور البراري؛ نحن أبناء الصحراء ونعرف كيف نتعامل معها».

حفر الرجال في الأرض لعمق ثلاثة أو أربعة أو خمسة أقدام، دون أن يظهر للماء أيّ أثر. بعدها، بدأ الحصى يخرج بدلاً من الرمل، ثم أعقبه انبثاق تلك النعمة الإلهية الثمينة التي كنا نترقب بلهفة ارتشاف جرعة منها.

بُدئ بتوزيع الماء على كل شخص بدوره. وبدافع الرأفة والإشفاق، كنت أول الشاربين، كونهم كانوا على علم بأنني لم أكن معتاداً على مثل هذا الانقطاع الطويل عن الماء[1].

كان يجري استخراج الماء بواسطة قلنسوات قذرة لم يسبق لها أن عرفت الصابون يوماً أو حتى الهواء الطلق، كونها تُلبس على الرأس مباشرة تحت الكوفية. لم يكن الوقت وقت الالتزام بالرسميات الاحتفالية، حيث أن الجميع كان متلهفاً لشربة ماء غير عابئين بالكيفية التي ستصل فيها إلى أفواهنا من حوضها الحصوي.

كان يمكن لكأسي وزبديتي الخزفية أن تؤديا دوراً مفيداً في هذه المناسبة، لولا أنهما سبق أن اقتُنصتا من قبل أحد الغيارى الحريصين على إراحة هذا النّصراني من

(1) أين تعليق فوردر الآن على هذا الفعل الطيّب؟ أم هو حاذق فقط في الذمّ؟

مثل هذه الأشياء الزائدة عن لوازم رحلته.

بعد توفّر الماء، بات بإمكاننا تناول الخبز على العشاء عوضاً عن التمر. جرى إعداد العجين وخبزه على موقد من الجمر المتقد فوق الرمال.

بعد إخراجه من النار، كان يصار إلى تقطيع قالب الخبز السميك وتوزيعه فيما بيننا بالتساوي. وفي بعض الأحيان، عندما يكون القائم على التوزيع متحيزاً ضدي، كنت أخرج من القسمة بخفيّ حنين، اللهم باستثناء قطعة صغيرة من الخبز.

في إحدى المرات، عندما لم يصلني من حقي سوى نذر يسير يكاد لا يسدّ الرمق، تذكرت بقايا من خبز كنت أحتفظ بها في خُرج الدابة كانت قد قدّمت لي عندما كنت في عرمان قبل ستة عشر يوماً، فعمدت إلى إخراجها علها تسد رمقي. وكانت متعفنة وقاسية كالصوان.

إدراكاً مني لمقت العرب رؤية الخبز يرمى به بهدف التخلص منه، فقد عزمت على نقعها وتقديمها للجمل ليأكلها. فأقدمت على ذلك اعتقاداً مني بأن أحداً لم يلحظني.

في صباح اليوم التالي جرى إعداد الخبز وتوزيعه كالمعتاد، ولكن دون أن ينالني منه شيء على الإطلاق. لم أطالب بحصتي، فهذا مخالف للأعراف والتقاليد.

وهكذا بدأنا يوماً جديداً، وكم كان ندمي شديداً على تقديمي الخبز القاسي للجمل، فقد كنت أنا أولى به الآن لأني كنت أتضوّر جوعاً.

كان بمقدوري غمسه بالماء وتناوله، في محاولة مني لتسكين غائلة هذا الجوع، ولكن فات الأوان. لم يكن ليخطر ببالي أن تناول الجمل لتلك القطع الصوانية من الخبز سيحتم علي أن أبقى جائعاً حتى اليوم التالي، ولكن هذا ما كان.

كان بعض الرجال قد لمحني وأنا أبلل بقايا الخبز المتعفن وأقدمها لجملي، فاتهموني بالبَطر والتبذير. أوضحت الأمر لشيخ العشيرة في أثناء النهار، فقال بأنه كان يظنني حصلت على نصيبي من الخبز، لكني آثرتُ الجملَ على نفسي، حيث أن مخصصات الطحين المعتادة لهذا اليوم قد جرى توزيعها بالكامل. ولدى سؤال

الرجال عن سبب عدم تقديمهم لأيّ خبز لي، كان الجواب: «هذا النّصراني يُطعمُ جمَلهُ خبزاً، وكونه على هذا القدر من البَطر والتبذير، لم نقدّم له شيئاً».

حاولت أن أشرح لهم موقفي، ولكن لم يكن من السهل التغاضي عن ذاك الذنب الذي اقترفتُه. لقد تعلمت درساً لن أنساه بسهولة، ولن أنسى ماحييت تلك الليلة التي أعقبت ذلك اليوم.

أنخنا رحلنا قرب أحد بساتين النخيل البرّية، وجرى إحضار الماء من أحد الينابيع الصغيرة على بعد حوالي نصف ميل. كان الجوّ عاصفاً طوال اليوم، لكن ريحاً مجنونة هوجاء كانت قد بدأت بالهبوب من جهة الشمال الشرقي، مشكّلةً دواماتٍ رمليةً في كل الاتجاهات، الأمر الذي جعل من المستحيل علينا إشعال أيّ نار. بادر شيخ العشيرة مشكوراً إلى إقامة سور واقٍ من بعض أكياس الحنطة التي كنا نحملها معنا، لكنها لم تفِ بالغرض، ولم تقنا عصف هذه الريح، إلا بالحدّ الأدنى.

جعلت الرياح العاصفة والبرد القارس من النوم أمراً متعذراً. وأخذت لي قسطاً يسيراً من الراحة، إلى أن أثلج صدري بزوغ الفجر. هدأت العاصفة مع شروق الشمس، لكني كنت أرتجف من البرد، ما استدعى مني السير لمسافة ساعتين تقريباً حتى شعرت بالدفء. كنا نقترب من نهاية رحلتنا وجميعنا متلهف للوصول إلى الجوف.

وما خلا تعب الرحلة ونصبها، كل الأمور سارت على ما يرام.

كان موقف الرجال قد تغيّر تجاهي، لكنهم لم يكونوا يوفرون فرصة لترويعي وإخافتي إلا وانتهزوها، كوني مسيحياً. كنا نشاهد من وقت لآخر هياكل عظمية لجمال على الرمال، وفي مناسبتين اثنتين شاهدنا بقايا لهياكل عظمية بشرية.

عند مرورنا بجمجمة بشرية في أحد الأيام، لفت الرجال نظري إليها وحاولوا الإيحاء لي بحقيقة أنها جمجمةُ رجلٍ نصراني – نصراني مثلي تماماً، غامرَ بانتهاك حرمة بلاد الإسلام، لكنه هلكَ في الصحراء، وقد تُركت رُفاتهُ عبرةً لأيّ نصراني يأتي بعده.

«هكذا سيكون مصيرك»، كان الاستنتاجُ المُطمئن الذي عمدوا إلى مؤاساتي به.



قلعة الجوف

تبيّن هـذه الصورة مـكان إقامة الحاكم في ضواحي البلـدة. ولقد أُخذت الصورة بعـد الحادث التي كادت تـودي بحياة الحاكم، ولهذا السـبب لا يظهر إلا ثلاثة أبراج فوق الأسـوار. لم يكن يعرف أحد بالتقاط هذه الصورة وإلا كان العرب فعلوا من المشـاكل أكثر مما فعلوه.



مارد قلعة الجوف

تقـع القلعـة في الحدّ الشـمالي الأقصـى لواحة الجوف. وهي ضخمة جداً وشـكلها دائـري. ويعتقد العرب بأن كثيـراً من الكنوز مخبأ تحت الجدران وأن المسـيحيين هم الوحيدون الذين يمكنهم تحديدها. ومرة في كل سـنة يؤدّي العرب عبادتهم داخل هذه الأطلال الضخمة.

فـي آخر ليلـة لنا في البريّة ارتكبـت خطأً آخر لا يُغتفر. كنت قـد صحوت كالمعتاد قبيل طلوع الشمس ثم قمت بإعداد بعض الماء الساخن لتحضير كوب من الشاي قبل بدء المسـير. لـم يكـن هنالك توزيع للطعام في ذلك الصبـاح، حيث أننا كنا تقترب من نهايـة الرحلـة؛ ولدى تناولي غلاية القهـوة لوضعها في الخرج، وجـدت بأنها لازالت تحتـوي على بعـض الماء، ما يعـادل ملء فنجان شـاي تقريباً. وجدتها فرصةً سـانحة للاسـتفادة من هذا الماء، وقمت بملِء مَجمع كفيَّ من هذه القطرات المتبقية ورشقتها على وجهي ويدي، بعد نجاحي في إزالة مايعلوها من غبار وشوائب.

اعتقـدت أن أحـداً لم يلحظني، ولكن، هيهات، فالعيون كانت مسـمرةً علي، وعند طلبـي لجرعـة ماء فيما بعـد، قيل لـي: «طالما أنك تسـتخدم الماء للغسـل، فلا داعي لاستخدامه للشرب».

لم يُجدِ الشـرحُ نفعاً. فقد ارتكبت إثماً فظيعاً لا يغتفر. بعد ذلك مباشـرة شـاهدت الرجـال وهـم يُفرغون قِرَبَهُـم من الماء فوق الرمـال؛ وما قدَّرتُ بأنه سـيطفىءُ ظمأي أخيراً، أطفأ ظمأ الرمال، وأنا أتطلعُ إليه بحسرة.

وأخيراً تراءت لنا على البُعد بساتين نخيل الجوف، يلوحُ من ورائها الحصن الأثري الدائري الشـكل، الـذي لا يعلم أحدٌ تاريـخَ بنائه[1]. مُنِعتُ من الاقتراب منه لأسـباب متعددة.

حوالـي الرابعة عصـراً دخلنا هذه المدينـة الصحراوية المنعزلة، وسـرعان ما تمّت اسـتضافتنا في غرفة الضيافة الفسـيحة خاصَّةِ الأبناء الثلاثة لشيخ العشيرة[2] الذي كان اسمه جوهر – أو أبو عنبر.



(1) يُعرف حصن الجوف باسم «مارد»، وهو حصن أثري قديم.

(2) ذكرنا أعلاه أن جوهر لم يكن شيخ عشيرة، بل هو رجل زنجي ولاّه على الجوف الأمير محمّد بن عبد الله بن رَشيد، وقابله قبل رحلة فوردر بحوالي 16 عاماً الزوجان آن وولفريد بلَنت أثناء رحلتهما من الجوف إلى حائل.

الفصل التاسع عشر

خطة الزعيم لإرغامي على اعتناق الإسلام

بعد رؤية الحصن الأثري مباشرة، شاهدتُ رجالاً ونساء وأطفالاً خارجين لاستقبال أقاربهم وأصدقائهم لحظة عودتهم من الرحلة الصحراوية، بما اكتنفها من مشاق وأخطار. إلا أن أحداً لم يأبه لوجودي أو يعرني انتباهاً، في غمرة الانشغال بالتحيات والتهاني والترحاب بين الأقارب الذين طال بينهم الفراق. ولكن سرعان ما انكشف أمر وجود غريب وسط الجمع، وأن أحداً لم يبادره بتحية أو كلمة ترحاب.

تناهت إلى أسماعي بعض الكلمات والتعابير التي عرفت بأني المقصود بها من مثل: «لعنة الله عليه!».. «عدو الله ورسوله، فلينجنا الله منه!».. «كافر، لعين!» كانوا يقذفونني بمثل هذه النعوت والشتائم، كباراً وصغاراً، ولا سيما النساء والأطفال.

ما أثار انتباهي أكثر من غيره كان تلك الأبراج الطينية القديمة التي شاهدتُها في جميع الجهات عندما دخلت الجوف من جهة الشمال، والتي تبيّنتُ فيما بعد أنها كانت لأغراض دفاعية. كان من المستحيل التقاط أيّة صورة لها بسبب تركيز العيون علي.

سلكنا طريقنا بمحاذاة هذه الواحة الجميلة في الصحراء، وقد أسرني الجمال الأخاذ لآلاف أشجار النخيل الوارفة. يبلغ طول بلدة الجوف حوالي الميلين وعرضها حوالي الميل تقريباً. أما بيوتها، فالعديد منها محتجب عن الأنظار وراء أشجار النخيل، ما يوحي للوهلة الأولى بأن عدداً ضئيلاً من الناس فقط يقطن هذا المكان. لكنني علمت من الشيخ لاحقا أن عدد السكان الإجمالي لبلدة الجوف يناهز الأربعين ألف نسمة تقريباً.

لقد كانت جميع البيوت، باستثناء الحصن، مبنية بالطين والحجر الرملي المجفف تحت أشعة الشمس، والبعض منها مؤلف من ثلاثة أدوار، مشيّدة بالطبع بطريقة بدائية جداً. الأسطح جميعها مستوية ومحاطة بسور حماية بارتفاع مستوى الخصر تقريباً. يحظر على النساء هناك الاختلاط بالرجال، لكنهن قد يتردّدن أحياناً إلى هذه السطوح، كونها محجوبة عن الأنظار.

والتصميم الداخلي لهذه البيوت بسيط للغاية، المطحنة اليدوية، المهباج، وبساط أو اثنين من البسط العتيقة، هي كل ما يمكن أن تشاهده داخل البيت. معظم البيوت بلا أبواب، بسبب ندرة الخشب، والناس هناك بطبيعتهم يمضون القسط الأعظم من حياتهم خارج البيوت في الأشهر القائظة الحرارة تحت ظلال أشجار النخيل، وفي الأشهر الباردة يتنعمون بأشعة الشمس فوق الرمال. والمطر أمر نادر في منطقة الجوف، حيث لا يتجاوز عدد الهطولات المطرية ثلاث مرات في العام، حسبما أفادني به أهل المنطقة.

مصادر الماء جيدة في المنطقة، حيث تُنقل المياه على ظهور الجمال من ينابيع جوفية عميقة. وهنالك بعض الينابيع الكبريتية الساخنة يستخدمها الناس لأغراض الوضوء. لم ألحظ وجود أية حوانيت أو محال تجارية في المدينة. ولدى سؤالي عن كيفية حصول الناس على حاجاتهم الضرورية، كالملابس وأدوات المطبخ والقهوة وغيرها، أفادوا بأنهم يعتمدون على القوافل القادمة من مكة وبغداد ودمشق.

يصنع الناس هناك عباءاتهم بأيديهم على أنوال بدائية، ويخصّصون بعضاً منها للبيع أيضاً. حصلت لي على عباءة جيدة جداً بحوالي ثلاثة دولارات ونصف. وعباءات الجوف من النوعية الممتازة وتلقى رواجاً كبيراً في فلسطين وسوريا. كذلك شاهدت الرجال يصنعون العقال (المرير) "mereers"، الذي هو عبارة عن حبل مزدوج يشدّ على الرأس؛ وأكثر ما أثار اهتمامي الطريقة البسيطة والأنيقة التي يصنعونه بها. وسروج الخيل والسجاد هي أيضاً من بين الصناعات التي تشتهر بها بلدة الجوف.

الطعام الرئيسي لأبناء المنطقة هو التمر والتمَّن، وهذا الأخير هو عبارة عن نوع من الحبوب من فصيلة الأرز. ويعدّ الخبز طعاماً مُترفاً يقتصر تناوله على وجهاء وأعيان

المنطقـة؛ ولا يتناولونه بشـكل يومـي. وهنالك نوع من الخبـز المصنع من طحين نوع من أنواع البذور الناعمة السـوداء المشـوبة بالحُمرة بحجم حبات الرّمل تدعى السِّمح "semmah"، وطعم المنتج النهائي كريه وغير مستساغ.

من حسـن حظ الناس هناك أن الفواكـه والخضروات متوفرة بكثرة. وبالإضافة إلى أنـواع التمور المختلفة، هنالك العنب والمشـمش والخوخ والأترج (الكبّاد) والبطيخ الأصفر (الشـمام) والبندورة (الطماطم) والخيار والفاصوليـاء واليقطين، وغيرها من الأنواع غير المعروفة بالنسبة لي بالإنكليزية.

علـى غرار كافة مدن الشـرق، لا يوجد هناك أية خدمات صحّة عامة. والمشـروب الوحيـد لأهالـي الجوف هـو القهـوة؛ فالمشـروبات الروحية لا وجود لهـا هناك على الإطـلاق – وقد يسـتمرّ الحـال على ما هو عليه فتـرة طويلة! والعديد مـن الرجال من المدخنين، لكن ليس كلهم.

ما أثلج صدري هناك اكتشافي أن العديد من الرجال والأولاد يجيدون القراءة بفهم وتدبُّر، والعديد منهم يحملون ساعات يدوية. لكن جهلهم بالشؤون الخارجية فاجأني. ومايسـهم في الإبقـاء على عزلتهم هـو انعدام وجـود مركز للبريد والبـرق والصحف اليومية وسكة الحديد. لاشك بأن إسماعيل يعيش وحيداً 31 (Jer. xlix).

على غرار حكومتَي إثرة وكاف، فإن إدارة الجوف هي في أيدي عبد العزيز بن رشيد المقيـم في حائل، وهي مدينة على مسـيرة سـتة أيـام من الجوف. ويمثّلـه في الجوف زعيم عجوز ذو نفوذ كبير يدعى جوهر، سـمعت عن شـهرته قبل بضع سـنوات. وهو، كمـا يقـال عنه، رجل عـادل، منفتح، كريم وحـازم، كما أنه مرهـوب الجانب وموضع احترام كل من يعرفه أو له علاقة معه. وهو أيضاً مسؤول عن الضرائب وعن إدارة بلدة تدعى سكاكا Sakaka على مسيرة ست ساعات شرق الجوف.

لـم يسـعفني الوقت ولا الظـروف لزيارة هذا المـكان المجهول الـذي كنت متلهفاً لزيارته.

ولكونـي أسـهمت في تعريف القـارئ بإيجاز بالجـوف وأهلها، فسـوف أعود إلى قصّتـي. عنـد أحـد المنحنيـات الحادة فـي الطريـق، أمكننا رؤيـة قلعة جوهـر المهيبة بأبراجها الأربعة الشـامخة فوق زوايا الأسـوار الخارجيـة[1]. كانت جماعتنا قد ذهبت فـي كافـة الاتجاهات، وكنت أسـير خلف خويخان. أشـار بيده إلى الحصـن قائلاً بأنه مقرّ لسـكن جوهر زعيم العشـيرة[2]. ثم تبعتُه حتى وصلنا إلى مربع كبير فيه العديد من الرجال جالسين تحت أشعة الشمس.

كان هنالـك منزل كبير في الجوار. ترجلنا عن الدواب وتمّ اسـتقبال خويخان بقدر كبيـر مـن التّرحاب، لكـن أحداً لـم يعرني انتباهـاً. ثم دُعينا إلـى الداخـل وطُلب إلينا الجلـوس. لقـد كنت محـط اهتمام الجميع، وكل شـخص من الحاضريـن طرح ذات السـؤال: «ماالذي يسـعى إليه هنا؟ إنه نصراني». التزمتُ الهدوء ولم أنبس ببنت شفة، وتركـت خويخان يجيـب على جميع أسـئلتهم، التـي أجابهم عنها بطريقتـه الخاصة، مُجانباً الحقيقة في أكثر من نقطة.

بمـا أن الوقـت كان رمضان – شـهر العبادة والصوم بالنسـبة للمسـلمين، يصومون نهاراً ويفطرون مسـاءً – فلم يتم إعداد أيّ قهوة أو إحضار أيّ طعام. لم يطل جلوسـنا حتى دخل علينا رجل ليخبرنا بأن جوهر قد سمع بنبأ وصولنا وأنه في طريقه إلينا.

فـي غضـون دقائق قليلـة حضر جوهر يرافقه سـتة أو ثمانية من أتباعـه، وهو زنجي قصير غليظ البنية، يرتدي ملابس مختلفة متعدّدة الألوان ويحمل بيده سوطاً غليظاً.

نهضنا جميعاً لاستقباله، ثم قُدّم له مجلس الشرف في صدر المضافة الكبيرة. أشار إلى خويخان كي يأتي ويجلس إلى يمينه، وأنا إلى يسـاره. جرى تبادل السلام والتحية بين الحاضرين والضيوف وجرى طرح عدد من الأسئلة، التفت جوهر بعدها إلي قائلاً: «أنت نصراني، أليس كذلك؟».

(1) المقصود بها حصن الجوف المعروف باسم: مارد.
(2) نعود لنذكّر: جوهر لا علاقة له بالعشائر، بل كان حاكم الجوف لصالح آل الرّشيد في حائل.

قلت له: «نعم».

«مالذي جاء بك إلى هنا؟».

«للتعرّف إلى الجوف وأهلها، وكذلك لأبيع كلمة الله إلى من يرغب بشرائها».

«ألا تخشى الناس هنا، أو تخشاني؟».

«كلا؛ أنا على يقين بأن الله سيحفظني، وأعتقد بأن مكروهاً لن يصيبني طالما أنا تحت حمايتك».

«هل سمعت عني من قبل؟».

«نعم، في الكَرَك. كنت أسمع عنك أحياناً من البدو الذين كانوا يأتون لشراء الحبوب. إن لك سمعة طيبة في كل مكان، ويسرني أنني في الجوف تحت حمايتك».

«أخشى أن تُقتل إذا ما تجوّلت وحيداً في هذه الأنحاء. الناس هنا يكرهون النّصارى، وقد يحاولون إيذاءك».

أجبتُه قائلاً: «سأحاول أن أبقى متيقظاً وأن لا أبتعد في تجوالي عن البيوت».

ثم أمر أحد الرجال بأن يحضر لي طبقاً من أفخر التمور قائلاً: «نحن صائمون ولا نجرؤ على تناول الطعام. ولا بدّ أنك جائع؛ لاتشعر بالحرج؛ لكلّ منا دينه»[1]. ولقد كان أمامي من التمر ما يكفي لإطعام عشرين رجلاً.

تردّدتُ في ذلك، لكوني لم أكن راغباً في تناول الطعام وحدي، وأنا على علم بأن كل شخص آخر كان صائماً. قلت له: «بوسعي الانتظار حتى وقت الغروب، كلنا في ذلك سواء».

لكنه ألحّ علي، فتناولت بضع حبات من التمر. وبينما أنا منهمك بتناول التمر نهض وغادر المجلس يتبعه مرافقوه وأكبر أبنائه ويدعى فالح. ثم استُدعيت إلى الخارج حيث خاطبني فالح، وهو، والحق يقال، شاب في غاية اللطف والطيبة بحدود الخامسة

(1) هذا تصرّف طيّب ومتسامح، كان على فوردر أن يشيد به، لا أن يكتفي بالذم.

والعشـرين مـن العمـر، قائلاً: «يقول أبي بأنـه ينبغي ألا تبقى في المضافـة مع الرجال. كونـك نصرانياً فهذا سيدنسـهم؛ أنت غير طاهر، وعليـك أن تتخذ لك ركناً في الجوار تنـام وتجلـس فيه. كما أنه سيرسـل ثلاثـة رجال لمرافقتـك عندما تخـرج – وأحدهم سـيلازمك داخل غرفتك». ثم أرشـدني إلـى ركن صغير ملاصق لـدار المضافة بعمق حوالي عشـرين قدماً وعرض أربعة أقدام وارتفاع سبعة أقدام، له مدخل بدائي بارتفاع أربعة أقدام، من دون أيّ قفل أول مغلاق يقيني من الدخلاء في الليل أو النهار.

كانـت أرضيّـة الغرفة عبارة عـن أحجار كبيـرة مرصوفة في الطين جنبـاً إلى جنب. والمنفـذ الوحيد لدخول الهواء والنور كان من الباب المُعمّى بمجموعة من الدرجات التي تؤدي إلى غرفة علوية، كانت بمثابة مقصورةِ منامةٍ للابن الأصغر.

جرى إدخال أمتعتي وركنها في الداخل كيفما اتفق. كان المكان مزرياً، كونه سـبق أن اسـتُخدم اصطبلاً ومكباً للقمامة. لكني كنت ممتناً لهذا الركن المسـتقل. ورغم أنه لـم يَـرقَ إلى ما كنت أتوق وأتمنى، فإنه كان يمتاز بشـيء من الخصوصية التي تمكنني مـن الصلاة والتأمّـل، بعيداً عن أعين الفضوليين، كما أنه بات بوسـعي أن أقضي لياليِّ كما يحلو لي، دونما حاجة مني لتفقد ملابسـي بين الفينة والأخرى بحثاً عن كل ما هو مزعج ومنغّص من الهوام والحشـرات المنتشرة بكثرة بين أركان جزيرة العرب، والتي سـرعان ما تنتقل من شـخص لآخر سـعياً وراء كل ماهو طازج من مأكل ومشرب. لقد نلت نصيبي من الضيوف والزوار بالرغم من عزلتي المفترضة.

دُعيـت إلـى تناول طعام العشـاء في دار المَضافـة، وبذلت قصـارى جهدي لإفراغ الطبق من محتوياته، كونه مضى علي حوالي أربع وعشرين ساعة من دون طعام. وعلى الرّغم من أوامر جوهر، دُعيت للانضمام للرجال حول النار ومشاركتهم القهوة.



عرب شمال الجزيرة العربية

هؤلاء الثلاثة من أهالي بلدة الجوف في شمال الجزيرة العربية، كانوا حرّاسي خلال مكوثي في تللك الواحة الواسعة. وفي الواقع قد عُيّنوا عليّ ليراقبوا كل أفعالي ويخبروا بها الحاكم. والرجل في الجهة اليسرى قام بإثارة الفورة لدى العرب بعد أن انهارت القلعة وأصيب الحاكم.

نهضت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي وأمضيتُ غرة نهاري قرب أحد ينابيع المياه الكبريتية أغسل ملابسي. لقد دفع منظر الصابون بالبعض إلى مشاركتي الغسيل، وانتهاز فرصة استخدام الصابون لغسل أيديهم ورؤوسهم. تمّ استهلاك كمية كبيرة من الصابـون في وقت قصيـر. بعد إفطار قوامُهُ التمر من طبق عامر وُضع أمامي في غرفتي الصغيـرة آكل منه متى شـئت، ارتأيـت أن أقصد جوهر في قلعته. لـم يكن هنالك أحد من الرجال في حرم المكان، ولم أتمكن من رؤية أية نساء. وهكذا انطلقت في طريقي وكنت في غضون خمس عشرة دقيقة عند السور الخارجي للقلعة. كنت أقوم بالدوران حولهـا بحثـاً عن المدخل، عندمـا التقيت وعلى حيـن غرة بجوهر وهو منشـغل بعقد مجلـس تحقيقه اليومي. كان يعتلي منصة بارتفاع حوالي ثلاثة أقدام وكاتبه إلى جانبه. كان يجلس أمامه عشـرات الرجال يسـتمعون إلى شـتى القضايا المعروضة عليه للبتّ فيها. وعندما لمحني أومأ إلي بالقدوم إليه، ثم طلب مني الجلوس إلى جانبه. وبعد أن أنهى القضية التي كانت بين يديه، التفت إلى قائلاً:

«هل قدمت إلى هنا بمفردك؟».

«نعم».

«ألم تخش شيئاً؟».

«كلا».

«ألا تخشى أحداً على الإطلاق؟».

«بلى، أنا أخشى الله والشيطان» – وهو قول شائع بينهم.

«ألا تخشاني؟».

«كلا».

«لكن بوسعي أن أرمي عنقك».

«نعم، أعرف أن بوسعك ذلك؛ لكنك لن تعامل ضيفاً على هذا النحو».

«كلا، لـم أكن لأفعل؛ ولكن بوسـعي أن أفعـل ذلك بخويخـان[1] – ملتفتاً نحوه – لولا أنه صديق حميم من أصدقائي، على الإتيان بك إلى هنا معه».

بعدهـا، وقبـل أن يبرح المكان، نادى علـى واحد من الرجـال المكلفين بمرافقتي، وطلـب إليه أن يرجع معي إلى المنـزل ويأمر بإعداد الخبز من أجلي والتحقق من عدم تركي أحسّ بالجوع أبداً «ولا تدعه يخرج وحيداً»، صرخ قائلاً ثم غادرنا.

أمضيتُ بضع ساعات هادئة مع مرافقي، أقرأ وأكتب في مفكرتي، – وبعد ذلك طلب منـي التوقف عن الكتابة فوراً، عندما قيل لنا بأن جوهر كان في طريقه إلينا. سـرعان ما وصـل جوهر ومعه جمهرة من الرجـال. كانت قاعة المضافة الكبيـرة تغصّ بالرجال، ثم اسـتدعاني للمثـول أمامه. طرح علي بضعة أسـئلة عن بلدي وديانتـي، فأجبته على أسـئلته. ثم قال بأنـه يريد الاطلاع على كتاب الله. وهكذا ذهبت وأحضرت له نسـخة كبيرة من نسخ الإنجيل بالعربية، جرى جمعها وتغليفها في المغرب بزركشات مذهبة. كنـت قـد أحضرت هذا الكتاب خصيصـاً له، لكنني لم أكن راغباً فـي أن أحرجه بقبوله مني.

أزلنـا التغليف الخارجي عنه، ثم تناوله وقبلـه وتفحصه من الخارج وأقرّ بأنه كتاب جميـل. وبعد ذلك فتحـه ووضع على عينيه نظارات من الطراز القديم وشـرع يقرأ في الكتـاب. بفتحه لفصل سـفر التكوين، قرأ الفصل الرابع والعشـرين بالكامل، ثم أغلق الكتاب وطلب مني أن أعطيه إياه. قلت له: «عليك أن تشـتريه مني»، «إنه يسـاوي ليرة إنكليزية، أي ما يعادل خمسة دولارات. لكنني سأبيعه لك بنصف ليرة». قال لي: «دعه حتى الغد». ثم أردف قائلاً: «أيها النّصراني، أريد أن أتحدث إليك». قلت: «حسنٌ؛ هيا تكلم». قال: «لقد قدمت إلى بلاد المسـلمين، المؤمنين بمحمّد رسـول الله؛ لا يوجد هنا أيّ مسيحيين؛ لا نسمح لهم بالبقاء هنا؛ لقد علّمنا ديننا ألا نتخذ مثل هؤلاء أولياء. وعليّ أن أطلب منك التخلّي عن دينك وأن تصبح واحداً منا. فما هو جوابك؟».

(1) كلامه كما هو واضح من باب المزاح والمباسطة.

لقد كان موقفاً محرجاً. تذكرت أن إثارة غضب جوهر قد تستجلب عليّ متاعبَ أنا في غنى عنها، وتذكرت أيضاً أن ما لا يقل عن مئات الأميال تفصلني عن أقرب مسيحي، وكان بوسعي الاستنتاج بأن الموضوع برمّته كان قد جرى تحضيره.

أردف جوهر قائلاً: «أحمدُ اللهَ أن ستةً من المسيحيين الذين قدموا إلى هنا في أوقات مختلفة قد اعتنقوا الإسلام على يدي، إضافة إلى يهودي واحد أيضاً.

يوجد رجل يعيش هنا في الجوف كان نصرانياً من قبل، لكنه نذر نفسه لله والدين الحق. (هذا الأخير كان صادقاً، حيث أنني التقيت به أكثر من مرة فيما بعد، رغم أنه كان خجلاً من التحدث إلي).

انطق بشهادة أن «لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله»، وسرعان ما تغدو واحداً من المسلمين، وتكون من المقبولين عند الله وعباده».

كان الجميع بانتظار جوابي. وبعد مناجاة صامتة مقتضبة مع ربي كي يلهمني النطق بالحق، أجبته: «اسمع يا شيخ جوهر، سأطرح عليك سؤالين اثنين وأسمع منك جوابهما». «لابأس»، قال جوهر؛ «تكلم».

«أولاً، لو كنت مكاني في بلاد المسيحيين، ضيفاً على الملكة[1] (ولم أكن أعرف أنها توفيت)، وطلبت منك اعتناق المسيحية والتخلي عن عقيدتك، هل كنت لتفعل؟» أجاب: «أبداً، ولو ضُربت عنقي».

«ثانياً، أيهما أفضل برأيك، أن ترضي الله، أو ترضي العبد؟» فكان جوابه: «أن أرضي الله». ثم أردفتُ قائلاً: «اسمع ياجوهر، أنا مثلك تماماً، أنا لا أستطيع تغيير ديني، حتى ولو ضُربت عنقي مرتين، في حال كان لي عنقان، ويجب أن أرضي الله ببقائي نصرانياً». لو نطقتُ بالشهادة، فهذا سيرضيكم جميعاً، لكنها ستخرج من هنا

(1) يقصد الملكة ڤيكتوريا ابنة إدوارد ابن جورج الثالث، التي حكمت بين 1837-1901. وكان خروج فوردر في رحلته إلى الجوف في 13 ديسمبر من عام 1900 فلذا لم يدر بوفاة الملكة في 22 يناير 1901.

(وأشـرتُ إلى فمي)؛ بينما سـيبقى قلبـي نصرانياً، وهكذا، في سـبيل إرضائكم، أكون قـد أغضبت ربي بكوني أصبحت كاذباً ومخادعاً. لا أسـتطيع أن أقـوم بما طلبته مني؛ هذا مسـتحيل؛ فما كان منه إلا أن نهض وخرج مسـتاءً. أما أنا فقد انسحبتُ إلى غرفتي مسروراً.

لقـد كان هجومـاً على الرّوح، لا على الجسـد، وحضرتني رغماً عني تلك الآية من آيـات الكتاب المقدّس التي تقول: «سـيحفظ الرّب روحك». تردّد الرجال إلى غرفتي بشكل متواصل تلك الليلة، وقالوا لي بأني كنت في منتهى الغباء بعدم امتثالي لطلبات جوهر.

قالوا لي: «غداً أول أيام عيد الفطر، وقد كان لاعتناقك الإسـلام أن يشـّكل مناسـبةً عظيمة للفرح والبهجة».

شـعرت بالسّرور لحلول الظلام، كي أخلو بنفسـي، ودعوت الله أن يمدّني بالعون والهداية لما هو قادم من الأيام، ثم استلقيت على الحجارة لأنام، وأنا أحس بأن عقلي وجسدي ليسا بأحسن حال من الراحة والسكينة.

عند بزوغ فجر اليوم التالي، أيقظني رجلان مدجّجان بالسـلاح اقتحما علي خلوتي وهما يصرخان: «هيا انهض يا نصراني؛ لقد أرسلنا جوهر لإحضارك؛ تعال معنا بسرعة إلى الحصن». سـألت قائلاً: «ماذا يريد منـي»، «وأين التفويض بذلك؟» فأجاباني: «لا نعرف؛ ها هي ذي سيوفنا دليل على أننا نقوم بواجبنا».

ارتديت ملابسـي بسرعة، متسائلاً عما سـيحدث، معاهداً نفسي على التزام الهدوء وعدم التورّط في مجازفة غير ضرورية، نظراً لأن الناس في مثل هذه المناسبة يكونون في حالة من الانفعال، وقد يتسبب وجودي باستثارة مشاعرهم والتسبّب بإيذائي.

تبعـت الرجليـن إلـى الحصن وشـاهدت حشـود النـاس ميمّمة شـطرها مـن كافة الاتجاهـات. وعند وصولنا إلـى ذات النقطة التي كنتُ فيها من قبل، شـاهدت جوهراً معتلياً سـدّة مجلسـه المرتفعة، وهو يرفل في حلة من الثياب المزركشة بشتى الألوان.

كان فرحـاً مستبشـراً وحيّانـي بـكل طيبـة ومـودة. بادلتُه التحيـة بمثلهـا، وتقدّمت منه بالتهانـي المعتادة في مثل هذه المناسـبات. سـرّه تهنئتي له بالعيد، لكنـه دهش لكيفية قيامـي بذلك. أمرنـي بالجلوس إلى جانبـه. كان هنالك المئات مـن الرجال والأولاد جالسين قبالتنا فوق الرمال تحت أشعة الشمس.

قـال لي: «نحن نحتفل اليوم بمناسـبة عظيمة هي عيد الفطر السـعيد، وقد جئنا إلى الحصـن الأثري لأداء صلاة العيد؛ لماذا لا تأتي معنا وتتفرّج علينا كيف نؤدي صلاتنا وتتعرّف إلى كل ما نقوم به؟» أجبته: «نحن لا نعتقد بأن الناس يذهبون إلى الصلاة كي يتفرّجوا على ما يقوم به الآخرون؛ الصلاة بالنسـبة لنا واجب مقدس، ونحبذ أن نؤديها بهدوء وعلى انفراد، وأعتقد أنكم لا تستحسنون مجيئي ومراقبتي إياكم».

أعجبـه جوابي وربت على كتفي قائلاً: «أنتم أناس أفضل منا، لو أنكم فقط تتقبلون الرسول كما نتقبله نحن».

ثم طلب من الخدم إحضار الأشياء المعدّة لوجبة إفطارهم.

فُتحـت البوابة المصفّحة الضخمـة للقلعة حيث لمحتُ بداخلها مدفعاً أثرياً صدئاً. وفي غضون دقائق قليلة ظهر عدد من الرجال يحملون فوق سـماط كبير منسـفاً دائرياً بقطـر حوالـي أربعة أقـدام عامراً باللحم و«التُّمَّـن»، – نوع من الحبـوب أدنى رتبة من الأرز، – المنكّه بالكاري والفلفل الأحمر والمقلي بالسّمن العربي جرى وضعه أمامنا، جوهر وأنا.

أعقبت المنسـفَ تسعة مناسـفَ أصغر حجماً وضعت بشكل دائري. ثم طلب مني جوهر الجلوس على الرمل، كما سـبق وفعـل، فامتثلت لأمره. نادى على خويخان ثم على شخص أواثنين آخرين. ومع قوله بصوت جهوري: «باسم الله»، دعا الجميع إلى تناول الطعام، وبدأ الجميع طعامهم.

كان اللحـم عبـارة عن قطع كبيـرة من لحم الجمل، التي سـرعان مـا آلت إلى قطع صغيـرة تلوكها أفـواه القوم بشـهية ونهم. لقد أذهلنـي مقدار اللحم الـذي كان يتناوله

رجل واحد. أولاني جوهر عنايةً خاصة ومتميزة جداً، وما برح يدسّ في يدي قطع اللحم، لاسيما شرائح الدهن، ألذ الأجزاء طعماً، التي كان يختصني بها من القطعة الكبيرة وسط المنسف. قال لي: «هيّا كُل يا نصراني؛ متّع نفسك ولا تحرمها؛ لا تشعر بالحرج». كان ما تناولتُه كافياً، ولكن كان عليّ أن آكل. وقد سررت عندما نهض جوهر عائداً إلى مجلسه؛ فتبعتُه بسرعة.

تأمّلنا المدعوّين وهم يتدافعون ويتزاحمون للحصول على نصيبهم من اللحم. لن أنسى هذا المشهد قط، ولكم تمنيت لو أمكنني التقاط بعض الصور له، لكن ذلك كان ضرباً من المستحيل. قال لي جوهر: «انظر إلى هؤلاء الأجلاف، إنهم يأكلون بنهم؛ هل تفعلون ذلك في بلادكم؟» قلت: «كلا»، وضحكت.

بعد أن فرَغت الأطباقُ عن آخرها، أعيدت إلى الحصن، وانفضّ الجمع. تجولت بعدها قليلاً داخل الحصن، ثم تناولت القهوة مع الزعيم. نادى بعدها جوهر على أحد مرافقي وطلب منه أن يعود معي إلى غرفتي ويبقى معي، خشية أن يعمد أحدهم إلى إيذائي.

علمتُ لاحقاً أن ما يعادل حمولة ثلاثة جمال من التُّمَّن تمّ طبخها على نفقة جوهر لوليمة الإفطار، وأنه يقوم بذلك كل عام. بقينا داخل الغرفة لحوالي الساعة، ثم قلت لمرافقي بأني أرغب بالذهاب إلى بساتين وحدائق النخيل للترويح عن نفسي. نظراً لانشغال الناس بالزيارات وتبادل التهاني، فإن أياً منهم لن يلقي لي بالاً، وهكذا تسللتُ بمفردي خارج الغرفة قاصداً بساتين وحدائق النخيل، مستغلاً فرصة الهدوء والسكينة لالتقاط بعض الصور.

قبيل المغيب بقليل عاد جوهر ثانية. كنت لا أزال في بساتين وحدائق النخيل عندما جاء إلي أحدهم وأخبرني بوجوب العودة. رجعت على عجل لأجد دار المضافة الكبيرة تغص بالرجال. وعلى غرار المرّات السابقة، دُعيت للجلوس بجانب جوهر. كان الجميع ملتزماً الصمت، ولم ينبس أحد ببنت شفة.

ثم خاطبني جوهر قائلاً: «يا نصراني، ما طلبته منك بالأمس كان عسير التنفيذ، وأعتقد بأن هنالك حتماً أموراً تجعل من الصعب عليك التحول إلى الإسلام، لكني سأساعدك في ذلك. هل أنت متزوج؟».

«نعم».

«لديك أولاد؟».

«نعم، ثلاثة».

«هل لديك نقود؟».

«كلا».

«هل تعمل في التجارة، أو تدير متجراً؟».

«لا، فالله يرزقني بما أحتاجه».

«حسنٌ، اسمعني إذاً: إذا ما أصبحت مسلماً، سأقدم لك أربع زوجات بدلاً من زوجتك، وفي وقت قريب سيكون لديك أكثر من ثلاثة أولاد. سأعطيك أيضاً جمالاً ونخيلاً ومالاً، تمكنك من أن تعمل بالتجارة وتصبح ثرياً. سنعطيك منزلاً وكل ما تحتاج إليه إذا ما أصبحت مسلماً مثلنا».

شكرته على عرضه السخي، لكني أخبرته أن ليس بوسعي التحوّل عن عقيدتي لقاء كل ما يمكن أن يعرضه علي.

قام من مجلسه سريعاً وذهب إلى حصنه، وهو يتمتم: «بأنه كان يوماً مشؤوماً ذاك اليوم الذي قدمتُ فيه إليهم، وأنني إذا ما بقيت في الجوف، فسوف يلحق بهم ضرر ما».

أرسل إليّ الزعيم جوهر في ذلك اليوم ولده فالح، طالباً مني إعطاءه الإنجيل الذي سبق أن اطلع عليه. وهكذا، فقد أرسلته إليه.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، أتاني رجلان بهذه الرسالة: «لقد أرسلنا

جوهـر لإخبـارك بوجوب مغادرة الجوف فـي الحال؛ إذ لا يجدر بـك البقاء هنا، كيلا يصيبنا مكروه جراء وجودك بيننا».

كان جوابـي على الرسـالة: «بلّغا جوهر السـلام والتحية وأخبـراه بأني لا يمكن أن أرحـل وحيـداً؛ لا بـدّ لي من رفيـق أرتحل بصحبتـه. عندما يعود خويخان، سـأرتحل برفقته. لقد سبق ودفعتُ له أتعابَ رحلة الإياب، وهكذا لن يكون بوسعي الذهاب مع أيّ شخص آخر».

عـاد الرجلان وأعلما جوهراً بما قلته. لكنهما سـرعان ما رجعـا إلي قائلين: «يقول جوهـر بـأن عليك أن تغادر فـي الحال؛ لا يمكنـك البقاء هنا». قلت لهمـا: «اذهبا إلى جوهـر وأخبـراه بأنـه إذا ما كان مصـراً على وجـوب مغادرتي في الحال، فليرسـل لي جملاً وبعض الرجال يرافقونني إلى إثرة، المكان الذي قدمت منه؛ وإذا لم يوافق على ذلك، فسأبقى أنتظر هنا حتى عودة قافلتنا».

سـرعان ما عـادا إلى جوهـر ناقلين إليـه رسـالتي، وعادا إلـي بالردّ التالـي: «يقول جوهر أن بوسعك البقاء، شرط ألا تبرح غرفتك. إذا ما تناهى إلى سمع السلطان[1] في العاصمة نبأ وجودك هنا، فقد يعاقب جوهر على سـماحه لك بالبقاء». لقد شـكّل هذا الردّ مصدر ارتياح كبير بالنسبة لي، لكنني رأيت بأن الحذر واجب رغم كل شيء.



(1) يقصد به الأمير عبد العزيز بن متعب آل الرّشيد، حاكم جبل شمَّر في حائل.

الفصل العشرون

كارثة كادت تكلفني حياتي

بعد انقضاء أيام قليلة على الأحداث المدوّنة في الفصل السابق، ولدى جلوسي قرب النار في دار المضافة مع حوالي عشرين رجلاً، دخل علينا على حين غرّة رئيس الجماعة، وهو رجل دين متشدّد، وأتحفنا بخطبة لاذعة زاخرة بعبارات البغض والكراهية للعقيدة المسيحية، مكرراً كل ما أورده القرآن بحق المسيحيين، وذكّر السامعين بأن وصايا نبيهم كانت تحضّ المؤمنين على استئصال شأفة الكفار حيثما ثقفوهم. كانت الخطبة برمتها موجهة ضدي، لكني لم أعرها اهتماماً. ثم غادر الخطيب المكان، وانسحبت أنا إلى زاويتي المعتمة، وابتهلت لله أن يمدني بالعون والهداية.



في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، جاء إلي فالحُ طيّب القلب قائلاً: «لا تخف يا أبا جريوس[1] (جورج)، لن يلحق بك أيّ مكروه إذا ما تمكنتُ من مساعدتك. لا تثر غضب الناس هنا. البعض منهم يحبّونك، لكن البعض الآخر ممن يجهلونك، لا يحبونك».

(1) هذه التسمية اشتقاق من اليونانية: جورجيوس، تشيع لدى المسيحيين في بلاد الشام، ولفظها الدقيق: جريُس.



عبور الصحراء

تم التقاط هذه الصورة من على ظهر الجمل أثناء مسير الكاتب، وهي تظهر قافلة في الصحراء. وعند أيّة إشارة خطر تُجمع الجمال سوياً وتناخ. والعرب يتبيّنون طريقهم عبر هذه السّهول الخالية من الدّروب برصد الشمس والنجوم.



جمع الملح في الصحراء

يوجد في شمال الجزيرة العربية العديد من الينابيع المالحة. ومنها يحصل العرب على كميات من الملح البلوري الذي يقايضون به التجار على القمح والملابس وأحياناً المال. وكيسان من الملح، أي حِمل جمل، يساويان حوالي ثلاثين سنتاً.

قمت في ذلك اليوم، على غرار الأيام السابقة، ببيع وتوزيع العديد من نسخ الكتاب المقدس للكبار والصغار ممن ثبت لي أنهم يجيدون القراءة. عند العصر، حضر إلي فالح ومعه ثلاثة رجال قال بأنهم من حائل، العاصمة. كانوا بصدد العودة للتو، لكن كلاً منهم كان يريد كتاباً يأخذه معه. هل أعطي نسخة لكل واحد منهم؟ حمدت الله على هذه الفرصة السانحة التي مكنتني من إيصال كلمة الله إلى حائل، لا سيّما وأنني لا أستطيع بلوغها بنفسي. وهكذا قمت بإخراج ثلاث نسخ مجلدة تجليداً فاخراً وقدمتها للرجال الذين غادروا على الفور في طريقهم إلى مقر الحكومة في وسط جزيرة العرب.

قد نتعرّف بعد بضعة أيام إلى الانطباع والأثر الذي خلفته هذه الكتب الثلاثة داخل معقل الإسلام هذا[1].

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، كنت أجلس وحيداً في غرفتي عندما وقع حادث مشؤوم للغاية كاد يكلفني حياتي، وأسهم أكثر من أيّ أمرٍ آخر في تأليب غالبية عرب إقليم الجوف ضد المسيحيين.

كنت قد ذكرت آنفاً بأن جوهر، الزعيم، قد اتخذ مقراً لسكناه الحصن الأثري عند الطرف الجنوبي لبلدة الجوف. لهذا الحصن المبني بالطين والطوب والحجارة ثلاثة أسوار، وعلى كل زاوية من زوايا السور الخارجي يشمخ برج شاهق بارتفاع حوالي أربعين قدماً.

كان مقر سكن جوهر يقع في نقطة المركز من هذه الأسوار الثلاثة المخصصة لأغراض دفاعية.

كانت صبيحة ذلك اليوم الذي أتحدث عنه عاصفة ممطرة، حيث كانت الرّياح الشديدة تهبّ من جهة الشرق. وكانت مياه المطر قد بللت الجانب المكشوف من أحد الأبراج، ونظراً لأنه كان مبنياً بالحجارة الطينية فقط، فقد تداعى وانهار تحت

---

(1) وما الذي ستخلّفه؟ يتكلم فوردر وكأنه اكتشف كرويّة الأرض.

وطأة البلل الشديد والرياح العاصفة.

لسوء الحظ، فقد انهار البرج إلى الداخل وليس إلى الخارج، وما زاد الأمور سوءاً أنه سحق الغرفة التي كان جوهر جالساً فيها يقرأ القرآن، ممّا أدى إلى دفن حاكم الجوف، الذي هو أكثر رجال الجوف مهابة وقدراً، تحت كومة من الرّكام.

تناهت إلى سمعي وأنا جالس وحيداً في غرفتي أصواتُ الصياح والعويل في الخارج. هرعت صوب البوابة الخارجية فشاهدت الرجال والفتيان يركضون باتجاه الحصن، وتساءلت عن الحدث الجلل الذي تسبّب بكل هذا القدر من الهرج والمرج في الجوف. سرعان ماتبيّنت حقيقة الأمر، لكني آثرت البقاء حيث أنا.

بعد دقائق، جرى إنقاذ جوهر وسحبه من تحت الركام؛ وسرعان ماتبيّن بأن إحدى ساقيه كانت مكسورة وأنه تعرّض لرضوض وجروح بليغة. وما كادوا يمدّدونه على الرمل وسط باحة الحصن، حتى علق أحدهم قائلاً: «إنه فعل ذلك النصراني؛ لا بد أنه كان في الخارج ونظر إلى ذلك البرج، ما تسبّب في انهياره؛ إنها بداية حوادث الشؤم وسوء الطالع».

كانت كلمات ذلك الشخص بمثابة الشرارة التي أصابت برميل البارود، وسرعان ما وافقه الجميع الرأي بأني السبب وراء ذلك. ثم صاح الجميع: «لنقتل ذلك النصراني». وعندما وقفت عند مدخل البوابة شاهدت الحشد الغاضب حول الزاوية قادماً باتجاهي، وسمعت صيحة: «اقتلوه، اقتلوه، النصراني، النصراني!» كانوا مسلحين بالهراوات والخناجر وبعض الطبنجات.

أخذوا يقتربون مني أكثر فأكثر، لكني لم أهرب؛ لأن هروبي كان يعني موتاً محققاً، وإدانةً صريحة لي بأني مذنب. وعندما باتوا على مسافة ما يقرب من ثمانين ياردة مني، تدخلت العناية الإلهية. إذ تقدّم ثلاثة رجال من ورائي ثم توازعوا مواقعهم الدفاعية أمامي وهم يصيحون وطبنجاتهم في أيديهم: «لن يقترب أحد من هذا النصراني». تسمّر الحشد الغاضب في مكانه، ثم تمّت إعادتي بهدوء إلى غرفتي، مع بقاء الرجال الثلاثة عند الباب.

سرعان ما تبدّد الجمع، ثم دخل علي مخلصيَّ الثلاثة، حيث شكرتهم على شهامتهم ومروءتهم، ثم سألتهم عمّا دفعهم لفعل ما فعلوه. كان جوابهم مقنعاً: «لقد كنا في الهند وتعرّفنا إلى النصارى هناك، وعرفنا بأنهم أناس مسالمون لا يسعون إلى الإضرار بأحد؛ وتعرفنا كذلك إلى تأثير الحكم البريطاني في تلك البلاد وفي مصر، ولن نتردّد أبداً في مساعدة النصارى ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً؛ ونتمنى لو يأتي الإنكليز إلى هنا. إن أهالي الجوف هؤلاء جاهلون بنمط حياة النصارى وكان يمكن أن يقتلوك لولا مجيئنا للدفاع عنك».

بعدها حضر مضيفي وصديقي الطيب فالح كسير القلب دامع العينين حُزناً على ما أصاب والده. قال لي: «لا تخشَ شيئاً يا أبا جريوس (جورج)، أنا أعلم أن لا يد لك فيما حصل؛ لقد كان أمراً مقدّراً لا مناص منه؛ أتمنى لوالدي أن يتخطى هذه المحنة بسلام». ثم حضر ولداه الآخران وجلسا معي حيث بذلت ما بوسعي لمواساتهم.

في اليوم التالي لزمتُ غرفتي ولم أبارح محيط المكان. قال لي فالح بأن هذا أفضل. مضى يومان دون أن يردني أيّ خبر عن مكان وجود شيخي العجوز خويخان، وتساءلت عما ألمّ به. عند المساء، جاءني أحد الرجال قائلاً: «لقد أرسلني خويخان لإحضارك إليه؛ إنه موجود في أحد البيوت في الجانب الآخر من المدينة». وهكذا نهضت وتبعت الرجل، مصدقاً ما قاله لي.

كان المكان على مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام. دخلنا المنزل المقصود، لكنني لم أعثر على أيّ خويخان هناك. سألت عنه، فأجابوني بأنه سيعود عند الغروب.

لكن الشمس غربت، ولم يحضر خويخان. أخبرتهم بأني أريد العودة إلى غرفتي، لكوني توجست خيفة من ملامح وتصرفات هؤلاء الرجال. قدّموا لي بعض التمر وطُلب إلي تناوله، قائلين بأن العشاء سيأتي لاحقاً.

تناولت بضعة حبات من التمر ثم تظاهرت بأني أريد العودة، لكن الجو كان مظلماً والرجال لم يسمحوا لي بالذهاب. أصررت على الذهاب إلى خويخان أو أن يأتي هو

إلـي، لكنهـم حملوني على الجلوس مرة أخـرى. عند حوالي العاشـرة قدّموا لي طبقاً مـن الطعام وضعـوه أمامي، ثم طُلـب إلي تناول الـزّاد. لم أعرف ماهيـة ذلك الطعام. تذوقتـه، لكني لم أستسـغه، ورفضـت تناوله. وحيث أن أحداً مـن الحاضرين لم يبادر إلى مشـاركتي الطعام، فقد سـاورني الشك في أنه مسموم. وأخيراً أُخذ من أمامي دون أن يُمسّ، ثم سألوني إن كنت راغباً بالنوم. قلت: «كلا».

لقد خمّنت بأن الرجال يضمرون لي أمراً ما، وأنهم اسـتدرجوني بعيداً إلى هناك بحجّة طلـب الشـيخ خويخـان رؤيتي. لـم يغمض لـي جفن طـوال تلك الليلـة. طلبـوا مني عدة مـرات أن أخلـد للنوم، لكني رفضت. وأخيراً بزغ الفجـر؛ وبينما كنت أتهيأ لمغادرة هؤلاء الرجـال، لمحـت عند الباب أحـد مرافقي الثلاثـة وأفضلهم، فطار صوابي فرحـاً. قال لي: «لقد افتقدتك هذا الصباح وانطلقت أبحث عنك؛ إياك أن تخرج وحيداً هكذا مرة أخرى». وعندما رجعت، وجدت خويخان هناك جالساً قرب النار. قال بأنه لم يرسل في طلبي قط؛ وهكذا لقد كان شَرَكاً أُعد للاستفراد بي وقتلي، ولكن فألهم خاب.

مضى على وجودنا في الجوف بضعة أيام، قمت خلالها ببيع وتوزيع عدد لابأس به من نسخ الكتاب المقدس.

في صباح أحد الأيام، وبينما كنت أقوم بفتح باب غرفتي، وجدت معظمها مكدسـة فـوق بعضهـا البعض في كومة، حيـث أنه قد تمّـت إعادتها خلال الليـل. وضعتها في الداخـل، وأنـا أدرك بأني إذا ما التزمت الهدوء، فسـوف أتبين السـبب الـذي حدا بهم إلى إعادتها. ثم سـرعان ما جاءني فالح قائلاً: «عليك ألا تغضب لإرجاع الكتب؛ فقد أعطى أبي الأوامر بإعادتها؛ إنه يقول بأن فيها فألاً سـيئاً». سـألته عن هذا الفأل السيء. فأخبرنـي بأنـه في الترتيلة السـابعة من المزمـور الثانـي 2nd Psalm, verse 7: «أنت ابنـي، فقد أنجبتـك في هذا اليـوم». قلت له: «كثيرون سيسـعدهم اقتنـاء هذه الكتب، ولكن لماذا لم يُرجع والدك نسـخته بالذات؟» فكان جوابه الذي سـرّني سـماعه: «إنه يريد الاحتفاظ بها وقراءتها».

أخبرنـي خويخان في ذلك اليوم بأنّ علينا أن نغـادر في الحال. ثم قال: «كان بودّي

أن أبقى شهراً بحاله، لكننا سنرحل في الحال، من أجلك». في اليوم التالي رجع الناس مطالبين بكتبهم. ذكرتهم بما قاله جوهر، فكان جوابهم: «فعلنا ما أمرنا به وأرجعنا الكتب؛ لكننا لم نؤمر بعدم استرجاعها ثانية. أعدها لنا وسوف نعمد إلى إخفائها حتى ترحل عن المكان». وهكذا أعدت لهم الكتب ولم أعرف عنهم شيئاً بعد ذلك.

توجهت بعد ظهر ذلك اليوم لوداع جوهر، حيث أننا كنا عازمين على الرحيل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

طُلِبَ مني الانتظار عند الباب ريثما يبلغونه رغبتي في لقائه. ثم سُمح لي بالدخول لأرى الرجل العجوز ممدداً في سريره على الأرض الطينية فى زاوية من زوايا إحدى الغرف الكبيرة.

كان العديد من الرجال جالسين معه. لم يُسمح لي بالاقتراب منه؛ وهكذا فقد قلت له من مدخل الباب: «أنا راحل غداً وقد جئت لأقول لك وداعاً وأشكرك على لطفك وكرمك؛ ليمنّ الله عليك بالسلام والطمأنينة والعافية التامة». ثم أمسك أحدهم بيدي ورافقني إلى خارج الحصن. وكان ذلك آخر عهد لي بجوهر، أبو عنبر، الرجل الأكثر مهابة واحتراماً في بلدة وإقليم الجوف. ولم أسمع عنه خبراً قط منذ ذلك اليوم حتى الآن[1].

لعلي سأعود في وقت ما من المستقبل إلى تلك الأنحاء[2]؛ فالتجارب السابقة تشجعني على ذلك، يحدوني الاعتقاد بأني سأبلي بلاءً أفضل في زيارتي الثانية.

---

(1) ليست هناك في المصادر المعتبرة إشارة إلى تاريخ وفاة جوهر، لكن المتعارف عليه أنه حكم الجوف منذ عام 1295 إلى 1318 هـ (أي 1877 إلى 1900)، ومعنى ذلك أن ولايته اختتمت في السنة التي زار فيها فوردر الجوف وانهار برج حصن مارد، فربما يعني ذلك أنه توفي عندها، وحكم الجوف بعده فيصل الحمود الرّشيد. وقبل جوهر كان حاكم الجوف شريدة بن فهد الفريخ الغفيلي، حامل راية ابن رَشيد. هذا ولقد غلب على جوهر لقب: جوهر العنبر، نسبة لاسم أبيه الذي كان أحد عبيد عبد الله بن رشيد.

(2) لم يحصل هذا الأمر على الإطلاق، وثبت فيما بعد أنّ أفشل محاولات التبشير كانت هي التي استهدفت جزيرة العرب، وخير مثال على ذلك رحلتا زويمر وفوردر.

كنت قد أخذت لنفسـي قسـطاً من الراحة في تلك الليلة، حيث تم إيقاظي باكراً من قبل رجالٍ كانوا يصيحون على المسافرين في الخارج. وعندما نهضت وفتحت الباب وجـدت رجليـن يحملان مصباحاً صغيراً ومعهما كيس فيه شـيء ما. اندفعا إلى داخل الغرفـة ووضعـا حملهما على الأرض قائلين: «لقد أرسـل لك جوهـر هذه الزوادة من التمر كي تستعين بها في طريق العودة. قد لا يتمكن من رؤيتك في الصباح، لذلك فهو يبلغك تحياته ويتمنى لك رحلة موفقة».



شجرة نخيل تحمل تمراً ناضجاً آن اجتناؤه

يعادل التمر لدى العرب الخبز لدى الأوروبيون. وله كثير من الأنواع والأحجام. والعذق المتدلّي من النخلة تؤلف حملاً ثقيلاً يـوء بـه رجل. ولا يتم إضاعة أي جزء من النخلـة، حيث يصنع منها: الحبال، والحصائر، والسّلال والألواح. وحتى نوى التمر ينتفعون به، فبعد أن ينقعوه يصبح طرياً ويجعلونه طعاماً جيداً للماشية.

قامـوا بإفـراغ التمـر – حوالي 75 كيلوغرامـاً – في كيس الخُرج خاصتـي، ثم قدّما إلـى قفةً كبيرة من التمر قائلين: «هذه من فالـح أيضاً؛ إنها هدية لزوجتك وأطفالك في القدس؛ يجب أن تقدم لهم الهدية مقرونة بحملٍ من التحيات».

استيقظت في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي لأتبيّن بأن الاستعدادات لبدء الرحلة كانت جارية على قدم وسـاق. وقبل الانطلاق، كان رفيقي خويخان وأنا قد تلقينا ست دعوات على الإفطار، قمنا بتلبيتها جميعاً، حيث كنا نأكل نذراً يسيراً في كل بيت. لدى عودتنـا إلى مقرنا، كانت الجمال المحملة عند الباب على أهبة الاستعداد للانطلاق. كان فالـح حاضـراً، ومعه كيس من الخبز الطازج قدّمه لي قائلاً: «سـيُقيتك لبضعة أيام ويعينك على مشاق سفر الصحراء».

جرى تبادل تحيات الوداع، ووسـط خليط من مشاعر الفرح والأسف انطلقنا على بركة الله. كان فالح لطيفاً للغاية معي طوال فترة وجودي هناك. في كل يوم عند حوالي العاشـرة صباحاً كان يأتي عندي أو يرسـل إليّ للصعود عنده على السـطح فـوق ثلاثة طوابق ويقدم لي وجبة إفطار شـهية قوامهـا الخبز ودبس التمر والزبدة البلديـة[1] والحليب، وهي أفضل المنتجات التي بوسـع الجوف تقديمها. كان يقول لي دوماً: «كُل واسـتمتع بما تأكل؛ فهذه وجبة لا نقدمها إلا للخواص من ضيوفنا؛ أنت صديقي، وعليك أن تمالحنا».

كان يجلـس إلـى جانبي ويشـاركني وجبة الطعـام، غير وجلٍ من مدّ يـده إلى نفس الطبـق كمـا يفعل النصارى. قال لي بأنه ذهب إلى مكة مرتين، كما أني لاحظت التزامه الشديد بمواعيد الصلاة.

عند وصولنا إلى طرف المدينة الشمالي، وجدنا القافلة بانتظارنا. ترجّل خويخان ثم قبّل الرجال واحداً واحداً، وبعدها أعطى الأمر بالانطلاق. ومع الهتاف والدعاء باسـم اللـه وإبراهيم ومحمّد باليُمن والتوفيق، ألقينا تحية الوداع على بلدة الجوف وحدائقها الغنّاء وبساتين نخيلها الوارفة.

---

(1) يقصد فوردر السّمن.

الفصل الحادي والعشرين

أوقات مثيرة في الصحراء والمدينة

أربعة أيام قضيناها مرتحلين فوق رمال الصحراء دون العثور على قطرة ماء واحدة. توقعنا أن نعثر على مياه سطحية، لكن خاب أملنا. وبعد ساعتين من مغيب شمس اليوم الرابع، عثرنا على الماء في طريقنا داخل مجمع صخري كبير[1]. كان الماء آسناً وعكراً نتيجة تخويض الجمال واستحمامها ووقوفها فيه في أثناء النهار، وقبل أن نتمكن من ملء قِرَبنا اندفعت جمالنا إلى الحوض لتزيده اتساخاً وتعكيراً. حمدنا الله على هذه النعمة وشربنا حتى ارتوينا، واستخدمنا بعضاً منه لإعداد الخبز.

في اليوم التالي، وبينما كنا سائرين، تداعى جملي من تحتي وجثا على الأرض رافضاً النهوض ثانية. ناديت على بعض الرجال الذين لدى رؤيتهم للدموع تنهمر من عيني هذا الحيوان، أخبروني بأن «جملك ثملٌ ولا يستطيع السير، كونه في حالة دوار». لعله ثَمِلَ من أعشاب كان يقتات عليها وأوصلته إلى هذه الحال[2]. أحضروا بعض الماء ثم رطبوا بعض الأعشاب وعقدوها على رأسه، ثم شرعوا في إعداد شراب من بعض حبّات التمر ومزجوه بالملح والطحين.

وبعد الانتهاء من تحضير هذه الوصفة، قاموا بفتح فم الجمل وسكب الشراب

---

(1) يُعرف ذلك بالتعبير البدوي: حَوية.

(2) نعم هذا أمر وارد، فثمّة في الشمال نوع من الأعشاب يمتلك خاصيّة مخدّرة، إذا أكلها الإنسان يتخدّر كلياً. وجرت عادة الرّعيان أن يحوّلوا عنها الحلال عندما تصادفهم.

بداخله. وفي غضون نصف ساعة توقف انهمار الدموع، ثم صحا الحيوان ونهض من مكانه وتابع المسير.

عثرنا في تلك الليلة على بركة من المياه أسوأ من سابقتها فأنخنا رحلنا في موقع غير بعيد عنها. في اليوم التالي تملكنا الذعر لرؤية رجل من بعيد قادم باتجاهنا. انطلق بعض رجالنا للقائه، غير مدركين إن كان صديقاً أو عدواً؛ ثم عادوا بالرجل المسكين معهم. كان الرجل عاجزاً عن الكلام. أشار بيده طالباً جرعة ماء سرعان ما ناولوه إياها. ثم أخبرنا بأنه كان واحداً من تسعة رجال انطلقوا في رحلتهم عبر الصحراء مع جمالهم ومعهم مؤونتهم من الطعام والشراب، لكنهم وقعوا في أيدي مجموعة من قطاع الطرق الذين سلبوهم كل شيء وتركوهم على مدى ثمانية أيام دون طعام أو شراب. كان رفاقه مستلقين بلا حول ولا قوة فوق الرمال في مكان ليس ببعيد. كانوا قد شاهدونا من بعيد، وكونه الأقوى بينهم، فقد تبعنا إلى هنا. قدّمنا له قربةً من الماء وبعض الطحين والتمر ثم تركناه لمصيره المقدّر.

في تلك الليلة، عندما أنخنا رحلنا في واد مليء بالنباتات العشبية والحجارة، ألمّت بنا حالة من الهلع، لكنها انقضت بسلام.

كان الرجال جالسين حول النار حينما سَرَت شائعة بأن أصواتاً سُمعت قادمةً من جهة الوادي. لاذ الجميع بالصمت، وفعلاً تناهى إلى مسامعنا بوضوح في سكون الليل أصوات رجال يتحادثون فيما بينهم. استعدّ من كان منا يحمل سلاحاً لهجوم محتمل، وجرى إطفاء النيران الموقدة بسرعة بإلقاء الرمل عليها. كنا مستعدين لأيّ طارئ. وحيث أن أحداً لم يتقدم باتجاهنا، فقد خرج بعض من رجالنا لاستطلاع حقيقة الأمر. سمعنا دوي إطلاق نار، وقدرنا بأن ما سمعناه من أصوات كانت أصواتاً عدوة. ولكن في أعقاب إطلاق النار انطلقت صيحة الترحاب: «إنهم أصدقاء! أصدقاء!» وفي غضون عشر دقائق عاد رجالنا ومعهم اثنا عشر رجلاً من الرجال الذين لو رأيتهم لولّيت منهم هرباً ولمُلئت منهم رعباً.

نظرة واحدة إليهم كانت كافية لإدراك أنهم قد عانوا الأمرين من الجوع والإرهاق.

أعيد إيقاد النار وبدأنا الحديث من جديد. قدّمنا القهوة للضيوف الجدد؛ ثم حدثونا عن قصتهم، التي كانت بإيجاز كما يلي: كانوا قد انطلقوا من الجوف قبل أسبوعين قاصدين دمشق بحثاً عن عمل. لم يكن معهم أية جمال، وكان معهم من المؤونة ما يكفيهم طيلة الرحلة، في حال سار كل شيء على ما يرام، وكان معهم كذلك قِرَبٌ لحمل الماء إن عثروا عليه، حسب اعتقادهم.

كانت قِرَبُهم قاسية ومتشققة، ما يشكل دليلاً على انقطاعهم الطويل عن الماء.

نظراً لجهلهم بمسالك المنطقة، فقد انحرفوا عن الطريق الصحيح وتاهوا في الصحراء. وبعد أن نفدت مؤونتهم من الطعام والشراب، هاموا على وجوههم على مدى خمسة أيام، تحت وطأة الجوع والظمأ والإعياء. ثم وقعوا في ذلك اليوم على آثار أقدام قافلتنا، ثم اقتفوا الأثر إلى أن اهتدوا إلى مكان نزولنا.

قمنا بإعداد الخبز لهم، وأثناء خبيزه، عمدتُ إلى اقتطاع كمية من التمر الذي كان بحوزتي وتقديمها لهم، فكانوا لي من الشاكرين. في صباح اليوم التالي ارتحلوا معنا، وعند ظهيرة اليوم العاشر على انطلاقتنا من الجوف، تراءت لنا على البعد أشجار نخيل إثرة من جديد. كان قد مضى على غيابنا ثلاثة وثلاثون يوماً، وليس خمسة وثلاثين، حسب تقدير خويخان.

كان أول ما لفت انتباهي عند وصولنا إلى إثرة هو غياب الخيمة التي كانت تؤوي الرجل المريض. أعتقد بأنه قد توفي وتمّت إزالة الخيمة. وبعد استراحة بضع ساعات، جاء إليّ خويخان، الرجل الذي أوفى بشروط العقد الذي بيننا لقاء الليرات الذهبية الأربع بكل أمانة وصدق، ثم تنحّى بي جانباً بعيداً عن دار المضافة وأشار إلى كوخ صغير مبني من طوب اللِّبن له باب بارتفاع حوالي ثلاثة أقدام وعرض قدمين، قال بأنه سيكون مقرّ إقامتي طيلة فترة وجودي في إثرة[1] Ithera. أخبرته بأني أرغب في الرحيل بأسرع ما يمكن، فقد مضت شهور عديدة على فراقي للأهل والأصدقاء دون أيّ علم

(1) هناك من يكتب الاسم اليوم: إثرى، ولقد آثرنا كتابته بتاء مربوطة.

أو خبـر فيمـا بيننا. لم تكن هنالك أيّة فرصة. توجهتُ إلى الكوخ؛ لقد كان بحالة مزرية مـن القذارة والابتـذال. كان هنالك ثلاث جـرار فخارية وعدد من الصناديق الخشـبية العتيقـة تحوي بداخلها كميـة من التمر البائت، طلب مني أن آكل منها ما أشـاء. كانت طبقـة الغبـار فوق أرضيـة الكوخ بعمق بضعة إنشـات. حملت كِيسَـيِّ الخرج خاصتي إلـى هناك ثم اتخذت لي مجلسـاً فـوق الأرضية المُغبرّة. حل المسـاء، ثم ناولوني آنية مـن المـاء وقليلاً من الخبز. ولـم يأتوني بأية إضـاءة. وهكذا فقـد خرجت أبحث عن خويخـان ثم طلبت منه أن يؤمّن لي مصباحاً وفراشـاً أو غطـاءً ما أضطجع عليه وأتدثر به، فلم يُصَر إلى تلبية طلبي؛ ثم طُلب إلي العودة إلى مكاني، فامتثلت لطلبهم.

نظـراً لأني كنت في حالة مـن التعب والإعياء، فقد اضطجعت وسـط الغبار متخذاً مـن أحد أحجار الطين الكبيرة وسـادة، في محاولةٍ مني للنوم؛ لكني سـرعان ما تبيّنتُ بأنـي لم أكن وحيداً. لقد كانت الهوام والحشـرات الزاحفـة في كل مكان. كنت أحسّ بهـا فوق وجهي ويدي. نهضت من مرقدي وأشـعلت واحداً من أعـواد ثقابي الثمينة، وإذا بـي أمام حشـد من الحشـرات الزاحفة مـن كافة الأنواع والأشـكال، ومن ضمنها العقارب والسّـحالي. الحال لم يكن مشـجعاً، ولم يكن أمامي سوى الأرق والترقب، بانتظار بزوغ الفجر.

وأخيـراً بزغ الفجر، وتوجهـت من فوري إلى خويخان طالباً منـه تأمين عودتي إلى وطني. لـم أكن لأبقى في ذلك الكوخ الذي خصّني به. قال بأنه مسـافر في الاتجاه ذاته في خلال ثلاثة أو أربعة أيام، وأننا سنرتحل معاً. أخذني إلى بيته وطلب إلى زوجته أن تعدّ لي طعام الإفطار. ثم أخذت أختلط بالرجال من أبناء المنطقة، مستفسراً إن كان أيّ منهم يوافق على مرافقتي إلى عرمان، في رحلة تستغرق ستة أيام. كان جوابهم واحداً: «نريـد ثلاث ليـراتٍ إنكليزية لليوم الواحد (ما يعادل خمسـة عشـر دولاراً)، وسـوف ننقلك إلى عرمان». لكني سـرعان ماتبينت بأن الجميع قد اتفقوا على تسـعيرة موحدة أدفعها لأيّ واحد منهم أتفق معه على ذلك.

في كل يوم من الأيام الأحد عشـر التي قضيتها هناك كنت مقيداً بعناد هؤلاء الناس

وقسوة عواطفهم. كنت أشاهد في كل يوم قوافلَ عديدةً من الرجال تغادر شمالاً وغرباً. لو أنهم تكرموا عليّ بجمل للركوب، لكنت ارتحلت معهم ربما؛ لكنهم كانوا يسافرون راجلين. عقدت عرى صداقة مع أحد الرجال ممن، على ما أعتقد، قد رأف لحالتي. كان يرافقني إلى بساتين النخيل ويحدثني عن فوائده العلاجية. تعلمت منه أشياء مفيدة كانت لي عوناً في فهم المزمور Psalm xcii.12 في معظم تعاليمه. النخيل شجر مفيد وجميل ومثمر عندما يُلقَّح، وهو ينمو من الداخل وليس من الخارج، كما أنه يفرح قلب الإنسان، والأشياء الأخرى، كلها ممكنة بالنسبة للأتقياء.

أخذني الرجل نفسه وعرفني إلى الكيفية التي يقوم بها العرب هناك، وكذلك في كاف، بتحضير الملح الذي يبيعونه للقوافل. كانت هنالك العديد من الينابيع الملحية داخل الرمال. كان يصار إلى استجرارها بواسطة مجرفة ladle ومن ثم سكبها في أحواض على الرمال وتركها حتى تتبخر تحت أشعة الشمس. ثم يأتي رجل ومعه سلة ومكشطة إلى داخل الحوض ويبدأ بكشط بلورات الملح الكريستالية البيضاء كالثلج. بعدها يصار إلى تكديس هذه الكميات من بلورات الملح الكريستالية في أكوام حتى تجف، ثم تُحمل إلى القرية حيث يجري تخزينها في عنابر خاصة من الحجارة الطينية بانتظار الزبائن. يقدّر ثمن حمولة جمل من الملح بحوالي ثلاثين سنتاً.

في أثناء الأيام الثلاثة الأولى من إقامتي القسرية هنا أصبت بالحمّى، لكن أحداً لم يأبه لحالتي أو يُلق لي بالاً. كانت وطأة الحمى أشدّ ما تكون في الليل. كنت أسمع حركة الزواحف عند رأسي ومن حولي، وفي صباح أحد الأيام لمحت فوق طبقة الغبار أثراً لأفعى كانت قد مرّت بالمكان. شعرت وكأنني سجين وبأن حكاية سفر الشيخ ومرافقته لي في نفس الطريق لا أساس لها من الصحة. لعله كان يأمل بأن التأخير سوف يحملني على أن أعرض عليه مالاً، لكنني لم أكن أملك شيئاً أعرضه عليه، حيث أن كل ما أملك من مال وأحذية وغلاية قهوة وصابون ومشط ومنشفة وملابس داخلية وغيرها من الأشياء المفيدة، كان قد أُخذ مني.

في صباح أحد الأيام لمحت رجلاً داخل البلدة سبق أن رأيته في كاف.

توجهت إليه وأخبرني بما كنت قد سمعته في اليوم الثالث لوصولي، أي أن شيخ عشيرة كاف كان غائباً. لو كان هناك، لذهبت من فوري إليه وألقيت بنفسي تحت جناحه. وأخيراً حزمت أمري على تسوية الأمر مع خويخان بصورة جدية. كان ذلك في صباح اليوم الحادي عشر. وجدته ثم قلت له: «إذا لم ترسلني إلى وطني اليوم، فسوف أهيم في الصحراء وحيداً، وإذا ماقضيت هناك، فسوف يكون دمي في عنقك».

شرع خويخان باختلاق المعاذير لنفسه وأنا ألحفُ عليه أكثر فأكثر. وأخيراً قال لي: «حسنٌ، سأعيدك إلى وطنك؛ بشرط ألا تعود إلى هنا مرة أخرى!» ثم نادى على أحد الرجال وطلب إليه أن يحضر لي دابّة لركوبي. وفي غضون ساعة من الزمن أحضروا لي حماراً ضعيفاً أعجف، بالكاد يستطيع حمل الخرج الخالي تقريباً من أيّ متاع.



امرأة عربية تمخض السّمن

يصنع العرب أشـياء كثيرة من الحليب، الذي يكون وفيراً في الربيع. نرى هنا ممخضة بدائية جداً، تتألف من جلد غنم معلّق على حامل ثلاثي. وعن طريق الخضّ إلى الأمام والخلف يتكاثف دسم الحليب ويصبح سمناً يؤكل مع التمر ويُعد غذاءً فاخراً.

طلبت منهم أن يحضروا لي جملاً لركوبي، لكنهم أخبروني بأن علي السير على قدمي. وهكذا، ومن دون إفطار ولا حتى وداع، تحركنا على بركة الله أنا ومرافقي الذي لا أعرف عنه شيئاً. كانوا قد طلبوا إليه أن يتركني عند أول مجموعة من الأعراب يصادفها في طريقه.

كان السير فوق كثبان الرمال العميقة تحت أشعة الشمس الحارقة أمراً شاقاً للغاية، وبعد حوالي ساعتين من السير المضني استسلمتُ للإعياء وارتميت فوق الرمال منهكاً خائر القوى. كان الرجل ومعه الحمار قد تجاوزني قليلاً؛ ناديتُ عليه، فتوقف عن السير ثم أنزل الخُرج وألقى بكل ما فيه فوق الرمال.

حاول معالجة الصناديق التي تحتوي بداخلها على صفائح معدنية بهدف فتحها، حيث حمله وزنها على الظن بأنها نقود. ثم استعان بخنجره وقام بشق اثنين منها وأفرغ منها اثنتي عشرة صفيحة فوق الرمال، وهو حائرٌ فيما سيفعله بمثل هذه الأشياء. ثم قام بالاستيلاء على آخر زوج لي من الجوارب وبعض الأوراق وعلبة من الشاي الإنكليزي، ظناً منه أنها مرهم علاجي. لقد أخذ مني حتى علبة الصابون المعدنية الفارغة التي كنت أحتفظ بها لتسخين لبعض الماء لحاجاتي الخاصة. وبعد أن قام بطمر هذه الأشياء في الرمال، عاد إلي ثم أخبرني بوجوب النهوض ومتابعة المسير، وإلا مضى في حال سبيله وتركني حيث أنا. نهضت وتبعته متعثراً ومتحاملاً على نفسي من شدّة الألم والإعياء والظمأ لحوالي ساعتين.

وأخيراً لمحنا خيمة على البعد، فقصدناها وأنخنا بالقرب منها. لم يسبق أن رأيت مشهداً أحبّ إلى نفسي وأقرب إلى قلبي من تلك الخيمة. تقدّم صاحب الخيمة مني ثم قام بحمل أمتعتي إلى الداخل وأعانني على الدخول وأعطاني مكاناً في زاوية الخيمة. أولاده أشباه العراة، وزوجاته الأربع جلسوا قبالتي يتفرّسون في ملامحي ويتأملونني، وعلامات الأسى لحالي تعلو وجوههم، وكذلك اللعنة والدعاء بالويل والثبور على من فعل بي ذلك. قدموا لي بعض حبات التمر لأسُدَّ بها رمقي وبعض السّمن الملوث لتساعدني على ابتلاعها.

مكثـت خمسـة أيام مع هـؤلاء الناس البسـطاء الذين لـم يبخلوا علي أبـداً بلطفهم وكرمهم.

بحلـول اليـوم الخامس قـدم إلى الخيمـة مجموعة من الرجـال مع جمالهـم. كانوا في طريقهـم إلـى دمشـق. كان بـودّي أن أتجه شـمالاً في طريقـي إلى القدس، لكـن ذلك كان ضرباً من المسـتحيل. وبعد الكثيـر من الأخذ والرد مع قائد القافلة المكونة من اثني عشـر جمـلاً وثمانية عشـر رجلاً، وافقوا على نقلي إلى عرمـان مقابل حوالي دولارين. لكنني لم أكـن أحمـل أية نقود، وأصـرّ الرجل علـى أن أدفع له مقدمـاً. أخبرته بأني أملـك نقوداً في عرمـان، وفي نهاية المطاف قال بأنه سيسـمح لي باعتلاء ظهر أحد الأحمال. وهكذا بدأت رحلتي مجدداً قاصداً أرض الوطن. كل شـيء سار على ما يرام في خلال اليومين الأولين، فقـد كان الرجـال مجموعة مـن الناس اللطفاء الطيبيـن. وفي صباح اليـوم الثالث، نهضت وتهيـأت لانطلاقة مبكرة كالمعتاد. لكنهم أخبروني بأن سـتة من الجمال كانت قد شـردت في الصحراء خلال الليل وأن بعض الرجال قد خرجوا في طلبها.

أمضينا سـحابة ذلك النهار حيث كنا، دون أن يُعثر للجمال على أثر. وهكذا فقد اضطر الرجال إلى إفراغ حمولة سـتة جمال من الملح – ما يعادل سـتة عشـر كيساً – فوق الرمال، ثم جرى طمر الأكياس، حيث تقرر استئناف المسير عند حوالي منتصف الليل.

مضى علينا يومان آخران، ثم سألت عن موعد وصولنا إلى عرمان، فجاءني الجواب مـن أحدهم: «لسـنا ذاهبيـن إلى عرمان؛ لقد قتلـت رجلاً من هناك في يـوم من الأيام، وأخشى الذهاب إلى هناك. سنتركك عند قرية يقال لها أم الرّمان Umm-Rowman، على مسيرة ساعتين من عرمان».

ساءني سماع ذلك، حيث أنه كان يتعيّن علي مخالطة الغرباء مرة أخرى وإعداد الترتيبات لوصولي إلى عرمان. وحيث أنني كنت بلا نقود، فقد كان الأمر بالغ الصعوبة.

عند عصر اليوم السـادس وصلنـا إلى قرية أم الرّمـان[1] Umm-Rowman، وهي

(1) أمّ الرّمّان قرية تقع على سفوح سلسلة جبل العرب في محافظة السّويداء، تبعد عن مدينة

قرية سكانها خليط من المسلمين والدروز وبعض النصارى الكاثوليك. نزلت عند رجل كان معروفاً من قبل الرجل الذي جاء بي إلى هنا، وكان قد أعدّ الترتيبات لنقلي إلى عرمان وللرجل الذي نقلني كي يعود بالنقود المتفق عليها أجراً للرحلة. وفي اليوم التالي جرى نقلي إلى عرمان حيث استقبلني أهلها الذين غادرتهم قبل أسابيع عديدة بكل المودة والترحاب. أكثر ما حرّك فيَّ مشاعر التأثر والغبطة كان سماعي إياهم يقولون: «لم يكن يمضي يوم إلا وندعو الله فيه أن يحفظك من كل مكروه ويعيدك لنا سالماً غانماً». كان علي بالطبع أن أطلعهم على كل ما حدث وكل ما جرى لي طوال فترة الرحلة. ولقد أعاد إليّ الرجل الذي كنت قد أمّنته على مالي كل ما أودعته لديه كاملاً غير منقوص.

مكثت لعدة أيام مع هؤلاء الناس الكرام، الذين أمطروني بطلباتهم الملحّة بشأن نسخ الكتاب المقدس، لكنني أخبرتهم بأن كافة النسخ قد نفدت. بعدها امتطيت حماري بصحبة أحد الرجال ويمّمتُ شطر دمشق. في الليلة السابقة لرحيلي، قدم أحد العسكر إلى دار المضافة يسأل عن ذلك النصراني الذي رجع من الجوف.

كان الرجل المسؤول في صلخد، القلعة والمدينة التي عبرتُها تحت جنح الضباب، قد سمع عني ويرغب بلقائي. كان عليّ أن أقدم له نسخة من الكتاب المقدس، لو كان بحوزتي واحدة. وهكذا توجّهت للقائه صباح اليوم التالي. كان متحضراً للغاية وأخبرني بأني قد قمت بعمل جريء وخطر وبأنه كان سيمنعني من القيام بمثل هذا العمل لو أنه علم بذلك في الوقت المناسب. لم ألفت نظره إلى الطريقة التي غافلتُه فيها وعبرت المكان تحت جنح الضباب قبل ثلاثة أشهر. سرّه الاطلاع على الكتاب وقال بأنه يرغب بقراءته.

وبعد خمسة أيام أشرفتُ على مدينة دمشق، فردوس الله على الأرض. وما هي إلا سويعات قليلة حتى كنت قد حططت رحلي في دار أحد الأصدقاء القدامى من أهل البلد. لقيت استقبالاً حافلاً من قبل صديقَي وعزيزَي السيد والسيدة ريتشاردز

السّويداء حوالي 35 كيلومتراً إلى جهة الجنوب.

Richards في القنصلية البريطانية. لقد سرّهم أيّما سرور عودتي سالماً بعد كل هذا الغياب الطويل. أرسلت من هناك رسالة إلى عائلتي وأصدقائي الذين استبدّ بهم القلق خوفاً على سلامتي أطمئنهم فيها على عودتي بالسلامة. وبعد استراحة بضعة أيام، انطلقت مجدّداً في رحلتي، في ظروف أفضل هذه المرة، قاصداً موطني في مدينة القدس. وبعد مسيرة تسعة أيام ركوباً، اكتحل ناظري برؤية المدينة المقدسة مرة أخرى، بعد ثلاثة أشهر ونصف تماماً من مغادرتي إياها.

لقد كانت هذه نهاية أول رحلة لي إلى جزيرة العرب من جهة الشمال؛ قطعت في خلالها ما يقرب من ألف وخمسمئة ميل وبعت حوالي مئتين وخمسين نسخة عربية من الكتاب المقدس، أو وزعتها على هؤلاء الناس البعيدين عن الحضارة الذين لم يسبق لهم رؤيتها قط. كما قمت بتوزيع المئات من المنشورات والكتيبات، التي ترشد جميعها إلى سبيل الخلاص؛ ولا أبالغ إن قلت بأن المئات من الناس قد سمعوا مني مشافهةً بأن لا سبيل إلى الخلاص والغفران والخلود من دون الإيمان بالمخلّص.

بالنظر إلى هذه الإنجازات، فإننا نسأل أنفسنا: «ماذا ستكون حصيلة ذلك كله؟» ومن خلال وقفة تأمل، قد يتساءل المرء – كم من الوقت سينقضي – قبل أن يقدّم له ابن الصحراء فروض الولاء والطاعة، ويقدم له ملوك سبأ وزعماؤها الهدايا والعطايا ويخرون أمامه رُكَّعاً سُجَّداً (Ps. 1xxii. 10, 11). إذا ما كان التمعن في هذه الصفحات سيؤدي بالقراء للاهتمام بأبناء قيدار Kedar ونذر أنفسهم لطاعة أمر متىَّ Matthew 38 .ix، فإن النصَبَ والمشاق والأخطار كالتي كابدتها ولاقيتها في رحلاتي ستلاقي ثوابها مضاعفاً.

لنقم بكل ذلك بروح من الترقّب والانتظار[1] لتحقق الوعد الوارد في الترتيلة Psalm 1xxii. 9 عندما «سينحني أمامه أبناء الصحراء».



(1) لم يُجدِ فوردر الانتظار شيئاً، ومات وحملته التفشيريّة لقيت الفشل الذريع، ولم يكن لها من الفائدة إلا هذا الكتاب نقرؤه للمتعة. لم لا؟ على الأقل ثمّة فائدة نجمت عن هذه الرّحلات.

الفصل الثاني والعشرون

ديانة العرب

لقد منحتني السنوات العديدة من التواصل والتعامل مع العرب، البدو منهم والحضر، رؤية معمقة لحياتهم الدينية والاجتماعية. فالدين الإسلامي الذي يدين به غالبية العرب هو دينٌ صعب يعمل على تقييد حرية معتنقيه والإمساك بهم كما تمسك المِلزمةُ بين فكيها بقطعة الحديد[1].

لا يوجد في الدين الإسلامي ما يدعم الحياة الاجتماعية أو العائلية أو يشكل عوناً لها[2]. وعلى النقيض من ذلك، فإن أتباع محمّد يرزحون تحت نيرٍ ثقيلٍ من الواجبات والمسؤوليات (الفرائض) التي يتطلبها منهم دينهم.

سأحاول أن أستعرض المعتقدات الرئيسية لهؤلاء الناس، لأبين للقارئ كم هي دنيويةٌ ومرهقة الأشياء التي يتوجب على العرب القيام بها لكي يحوزوا على مرضاة ربهم. لكنني سأقدم لكم أولا وصفاً مقتضباً حول مؤسس هذا الدين ومعتنقيه الذين يناهز عددهم مئتي مليون مسلم.

---

(1) هذا رأي المؤلف في مطلع القرن العشرين، وكانت إنكلترا وأميركا اللتان تدينان بمذهبه تنعمان ببعض قيم الصدق والنقاء، لكن سرعان ما تبيّن انحلال هذه القيم وما كاد عقد الستينيات يحلّ حتى حلّ في البلدين المذكورين أشنع حال من الانفلات والإباحية. فهل يعاب على الإسلام تمسكه الدائم بالفضائل والعبادات؟

(2) كلام مرفوض تماماً وينمّ عن جهل فاضح بالإسلام.

فـي القرن السـادس كان لليهود والنصارى كُنسـهم وكنائسـهم الخاصـة في جزيرة العـرب. في أرض الحريات تلك كان المجوس Magians يعظمون عقيدة زرادشـت Zoroaster ويمارسـون طقوسـها، وكان الصابئـة Sabians يعبـدون آلهـة الكواكـب planetary deities.

كانـت عبادة الشـمس والقمر والنجـوم هي العقيـدة البدائية لأبناء جزيـرة العرب، وكانت بمثابة نظام موضوع بشـكل طبيعي ويعتمده أنـاسٌ يعتمدون على انتظام حركة الأجرام السماوية ويستهدون بها في أثناء تجوالهم في الصحارى الشاسعة.

كانت قبيلة قريش القبيلة التي حازت على مرتبة متميّزة بين باقي قبائل جزيرة العرب، فقد كان يُعهد إليها بشرف حماية الكعبة المعبد المطهّر في مكة، وكان شرف الرّيادة في الشـؤون الدينية مقروناً بالخضوع لسـلطتهم الدنيوية. من نسل هذه القبيلة خرج شاب يدعى عبد الله، تزوج من آمنة بنت وهب من أشراف قبيلة «بني زُهرة» Zarites وأنجبا نبيّ الشـرق المصطفى. لقد كان فجر الشـهرة بالنسـبة لمحمّد ملبداً بغيوم عديدة، فقد خلفـت وفاةُ والده المبكرة وهو لا يزال جنيناً في رحم أمه لسـيّد جزيرة العرب خمسَ جمـالٍ وعبداً واحداً. وسـرعان ما باتت طفولة محمّد متسـمة بالحرمان من حنان الأم ورعايتها. ثم دُفِعَ بمحمّد – كما يروي الحديث – إلى مرضعةٍ مع أسرة بدوية.

بقي محمّد في الظل بعيداً عن أضواء الشـهرة حتى بلغ سـن الخامسـة والعشـرين، عندما ارتقى به منصبُه الجديد كمشرفٍ على تجارة أرملةٍ ثرية، ثم زوجها والقائم على ثروتها، إلى مصاف أيّ فتى من فتيان مكة.

عندما كان محمّد شـاباً، وقبـل أن يتزوج، كان يقوم بعدة رحـلات مع القوافل التي كانـت تقصد بلاد الشـام كل عام. وعندما لا يكون منشـغلاً بأمور البيع والشـراء، كان يتردّد إلى أحد الأديرة القريبة من مكان نزول القافلة.

كان فتى الصحراء يلقى اسـتقبالاً حسـناً من الرهبان والنسّـاك خـلال فترات إقامته الوجيـزة وزياراتـه المتفرقة. كانوا يحدّثون الفتى النقي البصر والبصيرة عن الله الحق،

خالق السموات والأرض وما بينهما. وقد سمع الفتى المكي أيضاً من أرباب الدير بأن الله وحده هو الجدير بالعبادة دون غيره.

لقد كانت التعاليم الإلهية جديدة على محمّد[1]، وتخالف أيّ شيء كان قد تعلّمه أو عهده بين قومه في مكة ومحيطها. لقد تمخّض عن التعاليم التي سمعها من الرّهبان والنساك نتيجتان اثنتان:

الأولى، تمثلت في انتشال كامل جزيرة العرب من عبادة الأوثان والانتقال بها إلى عبادة الله الواحد؛ بينما تمثلت الثانية بولادة وانتشار نظام ديني أصبح المناوىء الأعظم للمسيحية.

لقد كان مشهوداً له دائماً صدقه وأمانته والتزامه الصارم بواجباته وممارساته التعبّدية. وكان قد اعتاد في كل عام أن يخلو بنفسه في غار حراء لمدة شهر كامل يمارس خلاله طقوس الصّوم والصّلاة والتأمّل.

ولقد أدّى نزول الوحي عليه أخيراً إلى إعلانه نبياً مرسلاً من السماء، للدّعوة بوحدانية الرّب الواحد الأحد المنزّه عن كل شريك، ولكي يعيد إلى دين إبراهيم وإسماعيل نقاءه وصفاءه الأول.

وهكذا فقد تأسس دين الإسلام في العام 609 ميلادي برسالته المنادية بـ «**لا إله إلا الله محمّد رسول الله**» كأساس لعقيدته البسيطة. إذا مانطق أيّ إنسان بهذه العبارة بقلب صادق فسوف تعلنه «واحداً من المسلمين».

لقد كان انتشار هذا الدين سريعاً إلى درجة أنه ما من أرض على وجه البسيطة تخلو من معتنقي هذه العقيدة، وفي غضون فترة تاريخية قصيرة لا تتجاوز 1290عاماً. وعديدة هي فرائض الإسلام؛ لذلك سنقتصر في معرض هذا الفصل على ذكر الرئيسية منها. أول هذه الفرائض وأهمها:

---

(1) صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الصلاة

فـي الأوقات المحـددة، وهي الفجر والظهـر والعصر والمغرب والعشـاء، يصدح المـؤذن وهو مُـوَلٍّ وجهَه ناحية القبلـة بأعلى صوته من مقصـورة المئذنة معلناً دخول وقت الصلاة. وإليكم الكلمات التي ينادي بها المؤذن:

«الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشـهد ألا إله إلا الله، أشـهد أن محمّداً رسـول الله؛ حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح؛ الله أكبر؛ لا إله إلا الله».

وفي أذان الفجر يضيف قائلاً: «الصلاة خيرٌ من النوم، الصلاة خيرٌ من النوم». وحال سماعه لصوت الأذان يتهيأ المسلم لأداء الصلاة. يعلّق وزراء الدولة أعمالهم ويتوقف التجار وأصحاب المصالح عن مواصلة نشـاطاتهم وصفقاتهـم التجارية مع عملائهم وزبائنهم، ويحوّلون حوانيتهم إلى مساجد صغيرة. قِوامُ الصلاة بضعُ حركاتٍ يكررها المصلـي أربع أو خمس مرات يكرّر خلالها فاتحـة الكتاب تكراراً لازماً، يضيف إليها بعض الأدعية الصّالحة للرسول ولعباد الله الصالحين، وتعني إذا ما ترجمت:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين

الرّحمن الرّحيم

مالك يوم الدين

إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين

إهدنا الصّراطَ المستقيم

صراطَ الذين أنعمتَ عليهم

غيرِ المغضوبِ عليهم

ولا الضّالين – آمين.

الوضوء

لا يقبل الله أيّ عمل من العبد مالم يكن طاهر الجسد (قبل القلب). وهنالك في باحات كل المساجد نوافير ماء يلجأ إليها المصلون لإعداد أنفسهم للصلاة. يبدؤون بغسل الوجه ثم اليدين فالقدمين، ويتمتمون خلال تأديتهم لهذه العملية ببضع دعوات تبعد عنهم الشيطان.

هذا ويسمح القرآن للمسافر بالتيمّم بالتراب عوضاً عن الماء، إن ندر أو تعذر وجوده لتخليص بدنه من أدرانه. أحياناً، قد يجد البعض في تعذر وجود الماء سبباً مقنعاً لإهمال الصلاة والانصراف إلى ما هو أهم وأكثر إلحاحاً؛ لكن حتى في الصحراء يصار إلى الالتزام بمواعيد الصلاة بكل دقة وأمانة.

الصيام

يحتل الصيام في الإسلام مرتبة متميّزة، لكن لصيام رمضان الأولوية على أيّ صيام آخر، ويمارس المسلمون الصيام في رمضان تيمّناً بذكرى الزيارة السنوية لمحمّد إلى غار حراء للتأمل والصلاة والصيام طوال شهر كامل، وهو الشهر الذي أُنزل فيه القرآن على محمّد. يلتزم الصائم بالامتناع كلياً عن كل أنواع الطعام والشراب من شروق الشمس حتى غروبها. ويمضي الصائمون أوقاتهم في رمضان في التأمل والعبادة، أما المُترف اللامبالي فيمضي وقت الصيام الطويل بالنوم، بينما يشعر العامل النشيط أو الزوج المرغم على العمل بوطأة الصوم الحقيقية. وتتحول الليالي إلى نهار، ما خلا النور، والعكس صحيح. وعندما يحلّ شهر رمضان في فصل الصيف، بأيامه الطويلة وحرارته اللاهبة، يغدو الامتناع كلياً عن كل أنواع الطعام والشراب أمراً عسيراً، وتنتاب الرجال حالةٌ من التوتر والعصبية، ما يدفعهم أحياناً إلى الانزواء بعيداً عن الأنظار للاستسلام للرّاحة لقهر الجوع والظمأ. ويُعدّ عيد الفطر أهم مناسبات العام عند المسلمين.

الحج

لاتـكاد تنتهـي أيام الفطر حتى تنشـغل أذهان المسـلمين بمسـألة أداء فريضة الحجّ إلـى مكة. والوجهاء والضعفـاء وأصحاب المصالح يكلفون عادة من يؤدّي عنهم هذه الفريضـة الشـاقة. يعـدّ أداء هذه الفريضة عن طريـق الصحراء أكبر ثوابـاً عند الله كونه يتطلب قـدراً أكبر من الصبر والمعاناة والتعرض للخطر والتكاليف، وبالتالي يعدّ أكثر أهلية للثواب.

لدى الوصول إلى ضواحي الأرض المقدسـة، يقـوم الحاج بطواف مفروض حول مكة ثم يقوم بعملية اغتسال كامل بالماء والرمل، ويؤدي الصلاة شبه عارٍ مرتدياً لباس الإحـرام، أو اللبـاس المطهّر، وينتعل الصندل لحماية باطـن القدمين من حرارة الرمل اللاهبـة. وتكون الحالة المسـيطرة الآن ما يدعى بالتأمّل الروحي، فالمشـاغل والمتع الدنيويـة باتت الآن من المحظـورات. وكثيرة هي المناسـك والواجبات التي يتوجب على الحاج الالتزام بها في خلال أيام مكوثه في مكة.

يعدّ واجب تقديم الأضاحي فوق جبل عرفات، إحياءً لذكرى التضحية بإسماعيل، وليـس إسـحق، وفق المعتقـد العربي، من قبل والـده إبراهيم، وكذلك رجم الشـيطان بالحصى، اثنين من أهم مناسك الحج في مكة.

تشـكّل عودة الحاج إلى وطنـه وقريته بعد هذا الاغتراب الطويل مناسـبة للاحتفال وإقامـة الأفـراح، ويبقـى الحـاج إلـى الأبـد موضـع احتـرام وتقديـر كبيرين مـن قبل الجميع.

أداء الزكاة

قـال أحد الخلفاء الأوائل يوماً: «الصّلاة تقطع بنـا نصف الطريق إلى الله، والصّيام يحملنا إلى عتبة بابه، أما الزكاة فتؤمن لنا التصريح بالدخول».

يفـرض القانون الإسـلامي للزكاة على المسـلم أداء نسـبة العُشـر[1] مـن ممتلكاته التـي حـال عليهـا الحول. مـع ذلك، قـد لا يجري تطبيـق قانـون الـزكاة بحذافيره في مطلـق الأحوال. فمنتجات الزروع من حقول الذرة وبسـاتين الزيتون وكروم العنب لا يجـري جنيها وقطافهـا بتلك الدقة المتناهية في مناطق الشـرق. يخصّـص للفقراء من هـذه الزروع والثمار ما تمّ جمعه والتقاطه عن الأرض. لقد أجاز محمّد لأتباعه التمتع بنتاج زروعهم من الذرة والتمر والزيتون والرمان وغيرها، ولكن بشرط أن ينال الفقراء نصيبهم منها وقت حصادها أو جمعها أو قطافها. لا يحق للمسلم أن يردّ أو ينهر سائلاً طرق بابه التماسـاً لطعام يسـدّ به رمقه، وأحياناً يرفق المسـلم عطيّتـه بمبلغ من المال. وتكثر العطايا والصدقات أيام الفطر بشكل استثنائي.

التأمل والتفكر

يُعتقـد بـأن الكتاب المقدس للمسـلمين، وهو القرآن، قد تم جمعـه في أجزاء على أوراق الحرير وتزيينه بالجواهر والأحجار الكريمة[2].

يحتـوي القرآن علـى جوهر التعاليم الإسـلاميّة التي نزلت على محمّد من السـماء خـلال زياراته السـنوية إلى غار حراء خلال شـهر رمضان. جرى تدويـن هذه التعاليم علـى ألواح من العظام المسـطحة وعلى سُـعُف النخيل وجلود الحيوانـات. وكان قد عُهـدَ بنسـخةٍ من هذه الأجزاء لإحدى زوجات محمّـد الأثيرات إلى قلبه، حيث جرى

(1) هذا غلط، بل مقدار الزكاة على ما حال عليه الحول 25 جزءاً من ألف، أي بلغة اليوم: 2.5 ٪. ومن الواضح أن معلومات فوردر ضحلة.

(2) لم يرد مثل ذلك أبداً في تاريخنا المكتوب بعناية، بل كتبت المصاحف المطهرة الأولى على الرّقوق، ثم جُلّدت بالجلود حفظاً لها. ولم يعرف التاريخ ذكراً لمصحف مرصّع بالحجارة الكريمة، لكن غاية ما في الأمر أن تزويق المصاحف اعتمد على تجويد الخط، وتزويق الفقرات والفواصل بجدلها بالحُمرة والزرقة، ثم ارتقى فنّ تزويق المصاحف إلى أوجه في عهد بني عثمان، لكن الزخارف بقيت هندسيّة ونباتيّة، تنسجم مع بساطة الإسلام ونقاء العبادة لذات الله الواحد الأحد، دون تكلّف أو بهرجة.

جمعها لاحقاً على شكل مجلد.

وينقسم القرآن إلى مئة وأربع عشرة سورةً مقسومة بدورها إلى آيات. ولا يحق للمسلم مَسَّ القرآن أو تلاوته إلا إذا كان طاهراً، وعليه ألا يُمسك به دون مستوى الخصر.

تعاليم القرآن متعدّدة: شهادة أن لا إله إلا الله؛ والإيمان بالملائكة، وثمّة أربعة ملائكة ذوو أهمية كبرى، وهم: جبريل وميكائيل وعزرائيل، ملك الموت، وإسرافيل، ملك البعث؛ الإيمان بالرسل والكتب السماوية، الحاوية لأوامر الله للإنسان، لكنها (بحسب القرآن) فقدت تماماً، وما بقي منها اليوم لا يتعدّى كونه تلفيقات دوّنت وأعدّت لتناسب الديانة المسيحية[1]. وتعاليم القرآن تقول بأن المسيح ابن مريم (وليس ابن الله) كان آخر أنبياء اليهود، وأنه المسيح الحقيقي، صاحب المعجزات والداعي للحق؛ لكن القرآن ينكر واقعة الصلب.

فرَّ المسيحُ من اليهود ثم رُفِعَ إلى السماء؛ وهنالك شخص آخر عانى الصلب مكانه، بعد أن شُبِّه لهم بالشكل والصورة. وبالرغم من إنكار القرآن لحقيقة الألوهية والتكفير atonement بالنسبة للسيد المسيح، فهو يقرّ بولادته بطريقة إعجازية بأمر من الله. بذلك فإننا نرى بأن هذا الدين يرفض هذه الدّعوى للخلاص، أي الصّلب.

إذا ما كان المسلم صادقاً في توجهه، فعليه أن يقرّ بأن دينه لا ينصّ على ما يتعلق بمسألة الخلاص من الخطيئة، ولكنه يؤاسي نفسه بتأكيد «إن الله غفورٌ رحيم – سأكون صالحاً بقدر ما أستطيع، وأترك الباقي لله»[2]. وهنالك جنّة موعودة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت لإشباع الرغبات الحسية لأتباع القرآن ممن يلتزمون بأوامر الله ورسوله. وفي مخالفةٍ لسبت اليهود وأحد المسيحيين، أمر مؤسس الإسلام باعتبار

(1) يقصد بهذا الكلام نصّ القرآن الكريم على تحريف ما تبقى من التّوراة والإنجيل.

(2) أوليس ذلك جوهر العبادة؟ أيحتاج الإنسان إلى وسيط بينه وبين ربّه لينوب عنه في الخلاص من الخطايا؟ روعة الإسلام أنه لا يقرّ بوجود حجاب بين الإنسان وربّه، وليس عليه إلا أن يأتي الله بقلب سليم ويخلص له الدّعاء ويتوب إليه.

يـوم الجمعة «يوم اجتماع المسـلمين» يوماً مخصصاً للعبادة وتلقـي تعاليم الدين. لذا يتوجـب علـى كل قـادر أن يحضـر للصـلاة ظهر يـوم الجمعة ويسـتمع للخطبـة التي يلقيها إمام المسـجد. قد تشاهد أحياناً في مدن الشرق شباك صيد منشورةً على واجهة الحانوت دلالةً على أن صاحبه قد ذهب لأداء للصلاة.





منظر على نهر أبانا في دمشق (بردى)

إحدى أماكن الجذابة بدمشق هذا النهر الجميل الذي يتدفق عبرها، ويدير الطواحين والأنوال ويروي العديد من الهكتارات لإنتاج محاصيل كبيرة. وعلى ضفاف النهر حدائق كثيرة وبساتين أشجار الفاكهة التي يجلس تحتها السكان ويقضون معظم اوقاتهم. وينبع نهر أبانا من جبال لبنان الشرقيّة.

الفصل الثالث والعشرون

عادات قديمة تؤكد أعراف الكتاب المقدس

ليس هدفاً لي الدخول في كافة تفاصيل الحياة اليومية والسلوكية للعرب، وإنما التطرّق إلى بعض هذه التفاصيل التي تتميّز على العديد من التفاصيل والسلوكيات الأخرى، الوارد ذكرها في الكتاب المقدس. يجدر بنا ألا ننسى أن ما سبق ذكره، وعلى الرغم من كونه جزءاً من الممارسة اليومية، فهو لا يعود لكون الناس يتلقون تعاليمهم من الكتاب المقدس؛ وإنما لكونهم معتادين على ذلك عبر آلاف السنين ويتناقلونه جيلاً بعد جيل. كذلك فإن التمعن في هذه الأشياء يجعل من الكتاب المقدس كتاباً حقيقياً جداً وفوق كل الشبهات. وأن تكون على اتصال وثيق مع هؤلاء الناس من أبناء الشرق وأرض الكتاب المقدس، فهذا يعطيك أفضلية خاصة لدراسة حياتهم اليومية.

الكنوز المخبوءة

ورد في الجزء الرابع من الفصل الخامس والثلاثين من سفر التكوين Genesis xxxv. 4:

«وقدّموا ليعقوب كل الآلهة الغريبة التي كانت في يدهم وكل أقراطهم التي كانت في آذانهم، حيث خبأها يعقوب تحت شجرة البلوط التي عند شكيم». ورد في الجزء الحادي والعشرين من الفصل السابع من سفر يوشع Joshua: «عندما لمحت بين

الغنائـم عباءة بابلية حسـنة المظهر ومئتي شـيكل من الفضة وإسـفيناً من الذهب بوزن خمسـين شـيكلاً، أغراني الطمع وأخذتها؛ وانظر، إنها مخبأة وسـط خيمتي». دائماً ما يُعثـر على الكنـوز المخبأة حتى فـي أيامنا هذه. إحـدى العبارات الشـائعة بين العرب حول الغريب هو أنه يسعى وراء الكنوز الدفينة، وكونه يمتلك الكتب ويتعامل بها، فهو يحـدّد مكانها بالضبط ويعثر عليها. السـبب الذي كان يحـدو بالأقدمين لدفن كنوزهم ونفائسهم هو انعدام وجود أيّ مكان آمن يودعون فيه مثل هذه الأشياء. لم يكن يعرف مكان الدفين سـوى الشـخص الذي قام بدفنه. وأحياناً كان المـوت أو الحرب تذهب بصاحب الدفين، تاركة أمر اكتشـاف المخبأ للزمن القادم. سـتبيّن لنا السطور التالية أن هذه العادة لا زالت شائعة حتى يومنا الحاضر.

كنـت أجوب سـهول مؤاب بصحبة أحد الأعراب؛ وكان رفيقـي يحمل معه طبنجةً أثيرة إلى قلبه، وكان حريصاً على إخفائها بعيداً عن أعين السـلطات خشـية مصادرتها. وعندمـا لمحنا مجموعة من الرجال قادمة باتجاهنا، اعتقدنا بأنهم من العسـكر التركي – وقد صدق حدسنا.

قلـق الرجـل على سـلاحه، لكنـه كان أهـلاً لمثل هـذا الموقف. اتجـه نحو إحدى الأحجار الكبيرة المسـتديرة وجلس قربها، ثم طلب مني القيام بنفس الشيء، ففعلت، ثم أخذت أراقبه. قام بقلب الحجر وحفر حفرة ووضع سلاحه بداخلها، ثم أهال عليها التراب وأعاد الحجر إلى مكانها. أخبرني بأنه سيسـتعيد طبنجته في وقت لاحق، وهو مافعله بعد شهر.

في مناسبة أخرى، عندما كنت أعيش في الكَرَك، جاءني رجل ملتمساً بعض القماش المعالج بالزيت لمقاومة تسرب الماء وبعض الشمع المستخدم لختم الأشياء من أجل لفه حول كيس من النقود. أخبرني بأنه خارج إلى الجبال لإخفائه. قال لي: «لا أستطيع أن أعهـد بـه لأبي أو أخي أو ابني، لذلك فأنـا ذاهب لوضعه في مكان آمن». وقد ذهب بمفرده لإخفاء مقتنياته.

الاحتفاظ بالعباءات

ورد في الجزئين السادس والعشرين والسابع والعشرين من الفصل الثاني والعشرين من سفر الخروج Exodus xxii. 26, 27: «إذا ما اتفق ووضعت عباءة جارك لديك على سبيل الرّهن، عليك أن تعيدها له عند الغروب: لأن تلك العباءة هي غطاؤه وستره، إنها دثاره الوحيد الذي يغطيه أثناء النوم».

الذهاب إلى النوم أمرٌ يسير للغاية بالنسبة للعرب؛ وفي أغلب الأحيان يغدو المكان الذي تأوي إليه للنوم بمثابة سريرك. ودور المضافة والخيام تكون خالية من الأثاث؛ وقطع الأثاث الوحيدة هي الحصائر والبسط التي ننام فوقها. لا يقدّمون لك أيّ نوع من أنواع الأغطية، لذلك يتوجب على كل شخص أن يتدبّر أمر غطائه بنفسه. وهنا تبرز أهمية العباءة العربية الفضفاضة. عندما يرغب العربي بالنوم، فهي واسعة وفضفاضة بما فيه الكفاية لتغطيته بالكامل، وكونها محاكة بشكل ملتز، فهي تقيه وطأة البرد والرياح. وبوجود واحدة من هذه العباءات، بوسع الشخص أن يخلد للنوم حيثما شاء. أن تحتفظ لديك باللباس الخارجي للشخص، فهذه جريمة لا تغتفر، وهو ما لمسته في إحدى المرات من خلال التجربة. حدث ذلك في الكَرَك.

كنت جالساً في غرفتنا ووجهي باتجاه الباب المفتوح، عندما لمحت ملاءةَ سريرٍ نشرت لتجف تتطاير نحو الأعلى ثم تختفي شيئاً فشيئاً. هرعت من فوري ثم صعدت إلى سطح المنزل لألمح رجلاً يفر من أمامي والعباءة تحت إبطه. انطلقت في إثر الرجل وسرعان ما لحقتُ به، لكنني لم أتمكن من الإمساك به بسبب ملابسه المتطايرة الفضفاضة، لذلك فقد تعلقت بعباءته الخارجية؛ وعندما أحسّ بأنه على وشك الوقوع في قبضتي، رمى بالملاءة وتخلى عن عباءته، تاركاً إياها في يدي، ثم انطلق بأقصى ما يستطيع من سرعة. رجعت إلى غرفتي بالملاءة والعباءة. كان الوقت حوالي الظهيرة. سرعان ما جاءني بعض الرجال مطالبين بإعادة العباءة. قلت لهم لا بدّ وأن يعود اللص لاسترجاعها بنفسه.

كرّروا طلبهم مرتين، لكنني رفضت أن أعيدها لهم. قالوا لي بأنني أرتكب خطأً بعدم إعادتها، لكنني كنت جاهلاً بعاداتهم آنذاك. قبيل المساء مباشرة، حضر الزعيم

ومعه بعض أبنائه مطالباً بإعادة العباءة، موضحاً لي أني باحتفاظي بالعباءة فإني أحتفظ بغطاء الرجل الذي يتدثر به ليلاً، وإذا ما مات بسبب البرد فدمه سيكون في عنقي. ثم أخبروني عن عاداتهم وأثاروا حميّتي بحقيقة أنني كنت أرتكب خطأً جسيماً. وهكذا فقد تخليت لهم عن العباءة، وتعلمت من ذلك الحين درساً مفاده أن العادات العربية أمر لا يمكن انتهاكه بسهولة، حتى في ظل مثل هذه الظروف.

اللهجة اللفظية

ورد في الجزئين الخامس والسادس من الفصل السابع من سفر العهد القديم Judges xii. 5, 6:

«واتخذ الجلعاديون Gileadities طريقهم عبر مخاضات نهر الأردن صوب أفراييم Ephraim: واتفق أنه عندما كان أحد فارّي أفراييم يقول: اسمحوا لي بالعبور، كان الرجال يسألونه: هل أنت أفراييمي Ephraimite؟ فإذا قال: كلا، يقولون له: قل شيبوليت، فيلفظها: سيبوليت؛ لأنه غير قادر على لفظها بالشكل الصحيح».

من هنا، فإن العلامة الفارقة بين هاتين القبيلتين لم تكن اللباس أو السلوك أو المظهر، وإنما لفظ كلمات معينة يعرف من خلالها إذا ما كانوا أصدقاء أم خصوم.

ليس على الرجل اليوم إلا أن يتكلم، فمن خلال لفظه لكلمات معينة يكون بوسع السامع أن يتبين من أيّ بلدة أو قرية هو. إن لهجة مدينة الخليل Hebron يختلف كلياً عن لهجة دمشق، وحتى الفارق بين لهجتي القدس وبيت لحم، ولا يفصل بينهما أكثر من خمسة أميال، هو فارق مميز جداً. قد يكون من الوقاحة أن تسأل غريباً ينزل ضيفاً عليك أو أتاك لأي قصد آخر، من أين هو؛ فإنّ العرب يتريثون حتى يبادر هو بالحديث، ثم يستنتجون من الكلمات التي يستخدمها ويتلفظ بها من أين هو. والرجل الفطن، وبهدف إخفاء موطنه الأم، يعمد أحياناً إلى استخدام التعابير التي يستخدمها هؤلاء الذين يعيش بينهم في تلك الأثناء.

الكرم والضيافة

ورد في الجزئين الرابع والخامس من الفصل التاسع عشر من سفر القضاة Judges xix. 4, 5:

«واستبقاه حَمُوهُ، والدُ الفتاة، وأقام معه ثلاثة أيام: وهكذا فقد أكلوا وشربوا وأقاموا هناك. وما إن حلّ اليوم الرابع حتى استيقظوا باكراً وهمّوا بالرّحيل»، الخ.

كل بلدة ومدينة عربية فيها دارُ مضافةٍ لكل زائر وغريب وعابر سبيل، وهي تشكل مصدر فخر واعتزاز لأبناء المنطقة: «كل بيت هو في الواقع دار مضافة».

تعدّ هذه الأماكن بالنسبة للمسافر نعمة لا تقدّر بثمن، تؤمّن له المبيت والحماية من اللصوص والطعام والشراب، له ولدابته. ويكون من دواعي سرور زعيم البلدة أو القرية عموماً استقبال الضيوف والاحتفاء بهم، رغم أن أصغر أبناء المنطقة شأناً سيقوم أيضاً باستقبال الضيوف وتقديم الطعام والشراب بكل سرور لكل من يقرع الباب. هنالك مثل عربي شائع يقول: «الضيف ضيف الله، وعلينا واجب إكرامه بكل ما يحتاج». يحق للضيف وفق العادات أن يقيم لدى مضيفه معزّزاً مكرماً لثلاثة أيام، ينجز في خلالها الشأن التجاري الذي جاء به إلى هذا المكان. يحبّذ المضيف أن يستقبل ضيوفه في وقت مبكر من فترة بعد الظهر كي يتسنّى له إعداد أفضل وجبة عشاء ممكنة لضيوفه. هنالك مثل عربي آخر يقول: «ضيف المساء ليس له عشاء»، نظراً لعدم توفر الوقت لإعداد الطعام، لذلك فعليه أن يقنع بما يتيسر له. وإذا ما أرغمت الظروف الضيف على المكوث في بيت مضيفه لأكثر من ثلاثة أيام، فعليه أن يتوجّه إلى منزل آخر للإقامة.

يُقيِّمُ العربيُّ من الطريقة التي يُعامِلُ بها ضيوفه. ومن العبارت الشهيرة التي تدلّ على كرم المضيف أن «دلال قهوته لا تنزل أبداً عن النار». وطالما بقي الضيف نزيلاً لدى مضيفه، فإن مقتنايته وحوائجه تعد بمثابة أمانة، وكذلك حياته. وثمّة قدر كبير من السخط قد أثير في خلال إقامتي في إثرة Ethera عندما تعرّضت حقائبي للعبث بقصد السرقة.

كان من واجب مضيفي البحث عن السارق والعثور عليه، أو التعويض عليّ مقابل أغراضي المسروقة، إلا أنني وفرت عليه هذا العناء. كذلك فإن شخص الضيف هو أيضاً موضع تقدير واحترام كبيرين، ولا يسمح لأحد، حتى ولو كان عدواً، أن يمسّه بأذى طالما هو فوق بساط مضيفه. القصة المذكورة في الأجزاء 1–11 من الفصل التاسع عشر من سفر التكوين Genesis xix. 1–11 هي قصة في غاية الوضوح، وقد كان تصرف لوط Lot تصرفاً مبرّراً إذا ما استذكرنا الاحترام الذي يكنّه المضيف لضيفه في الشرق. فلقد رفض لوط تسليم ضيوفه لأبناء سدوم Sedomites الغاضبين، عارضاً عليهم أخذ ابنتيه على تسليم ضيفيه وتعريضهم لانتقام أبناء سدوم. لقد خَبرتُ أكثر من مرة جدوى هذه العادة، لاسيّما عندما هاجمني الضابط التركي، كما هو مدوّن في موضع آخر من هذا الكتاب. لقد آثر مضيفي التعرُّضَ لمسؤول في الحكومة، على التعرُّضِ لضيفه.

والمضيف المتحرر غير المتعصّب لا ينفك عن تقديم القهوة لضيوفه. هذا المشروب الذي يتم تناوله دون حليب أو سكر، يتم التعامل معه بطرق بسيطة متعددة. فلا يجوز أن يقدّم للضيف في كل مرّة من القهوة أكثر من ملء ملعقة طعام – فأن تملأ الفنجان الصغير عن آخره يعدّ إهانة للضيف ما بعدها إهانة، ويسمح بتقديم أكثر من فنجانين في الضيافة الواحدة؛ وفي حال تقديم فنجان ثالث، فهذه إشارة إلى أن الضيف غير مرغوب به وعليه المغادرة في الحال، ربما نظراً لوجود عدوّ ما أو طالب ثأر بالقرب من المكان. هذه العادة مع ذلك غير متّبعة إلا عند بعض عشائر البدو الرئيسية. ويجري إعداد القهوة عادة من قبل المضيف بالذات؛ ولا يجوز للمرأة بأي حال من الأحوال أن تقوم بتحضيرها. يصار إلى تحميص حبّات البنّ الخضراء في مقلاة مخصصة لهذا الغرض، والكمية الوسطية من القهوة هي حوالي أربع أوقيات، تضاف لأكثر قليلاً من نصف لتر من الماء. وفي أغلب الحالات يُستخدم فنجان واحد فقط لتخديم مجموع الضيوف، حيث يرتشف كل منهم من الفنجان ذاته دون أن يصار إلى غسله بين كل رشفة وأخرى.

الوجبات السّريعة

ورد في ورد في الأجزاء 2–8 من الفصل السابع من سفر التكوين .Genesis xii 2–8 والجزء التاسع عشر من الفصل السادس من سفر العهد القديم: في هاتين الحالتين كان إبراهيم وجدعون Gideon قد استقبلا ضيوفاً غير منتظرين. بالنسبة لإبراهيم، فقد استنتج بأن زواره قد عرجوا على خيمته تحت وطأة الجوع؛ والآية الخامسة تتطرق إلى ذلك بكل وضوح:

«سوف آتيكم ببعض الخبز تسدّون به رمقكم، ثم تتابعون المسير، فأنتم ضيوفي وأنا خادمكم». لعلنا نجد فيما سبق صورة واقعية للغاية عن حياة العرب وعاداتهم.

لا يقدم الطعام للضيف في وقت مبكر من النهار. بل يتم تناول الوجبة الأولى عند العرب حوالي الساعة العاشرة، كيلا يضيع المسافر أفضل أوقات النهار بانتظار طعام الإفطار.

إذا ما مرّ مسافر بقرية أو مضرب خيام، أو حتى خيمة يتيمة، يحقّ له أن يعرّج على المكان لأخذ قسط من الراحة وتناول بعض الطعام. تمتاز نساء العرب بسرعتهن في إعداد الطعام. ريثما يُصار إلى إعداد العجين وخبزه على الفور؛ تقوم أخرى بقلي البيض أو تسييح بعض الدهن الذي سيصار إلى غمس الخبز فيه، بينما تعكف الأم العجوز للمضيف أو أقدم زوجاته على التنقيب داخل أحد الأكياس أو صرر الملابس بحثاً عن بعض الأعشاب أو التوابل لإعطاء نكهة مميزة لطبق الطعام الذي يجري إعداده. إذا سمح الوقت، يصار إلى إحضار أحد الحملان أو الجداء من بين القطيع، ثم إلى ذبحه وتقطيعه وطهيه وتقديمه في لمح البصر.

أذكر جيداً إحدى الوجبات السريعة التي أعدّت لي. كان ذلك في قرية بئر السبع Beersheba. كنا قد وصلنا لتوّنا بعد مسيرة يوم كامل، وكنا نتضوّر جوعاً. لمحنا خيمة على البعد، فقصدناها على الفور. أُعدّت القهوة وخُبز الخبز وقُدّمت لنا وجبة معتبرة في غضون خمس وعشرين دقيقة؛ وقبل أن تمضي نصف ساعة على نزولنا ضيوفاً على

تلك الخيمة، كنا نهمّ بالمضي في طريقنا من جديد. حالما انتهينا من سدّ رمقنا مما قُدّم لنا، استأنفنا مسيرنا. والمبالغة في شكر المضيف أمرٌ غير محبّذ عند العرب؛ إذ يكفي أن تقول: «أدام الله عزكم!» أو «أدام الله داركم عامرة بالخير والبركة!»، فهي كل ما ينتظر المضيف سماعه من ضيوفه لقاء لطفه وكرمه.

إقامة الولائم

الجزء 8 من الفصل الحادي والعشرين والجزئان 22 و 27 عشر من الفصل التاسع والعشرين من سفر التكوين Genesis xxi. 8; xxix. 22 and 27 ;l. 10; والجزء 12 من الفصل الرابع عشر من سفر العهد القديم؛ والجزء 1 من الفصل الأول من سفر إستير Esther بالعهد القديم؛ والجزء 13 من الفصل الثاني من سفر أيوب Job.

جميع هذه الأسفار تتطرّق إلى الحديث عن الولائم التي تقام في مناسبات الأفراح والأتراح وغيرها من المناسبات في حياة من يرد ذكرهم في هذا السياق. سيلاحظ القارئ بأن فترة إقامة الفرح أو غيره كانت محدّدة بسبعة أيام، وهذه العادة لازالت متبعة بين عرب المدن والقرى والبلدات أو الصحراء. لعلنا لا نخرج عن السياق إن تحدثنا بإيجاز حول الأعراف والتقاليد المتبعة في مثل هذه المناسبات. نقرأ بادئ ذي بدء عن إحدى الولائم التي جرى إقامتها يوم فطام إسحق. نادراً ما يصار إلى فطام الرضيع قبل أن يكمل عامه الثاني؛ وأحياناً قد يستمر الطفل في الرضاعة حتى سن الثالثة. بعد أن يكمل الرضيع عامه الثاني، لاسيما الطفل الذكر، من المفترض أن يكون قادراً على الاستغناء عن حليب الأم وتناول ما يغنيه عن ذلك من بعض أصناف الأطعمة العادية. لقد تخطى أولى مراحله العمرية؛ وكونه عاش ليبدأ المرحلة الثانية من حياته، فهذا الأمر يُعدّ مناسبة جديرة بأن يُحتفى بها. يصار إلى دعوة كافة الأقارب والأصدقاء المقرّبين إلى وليمة تقام بهذه المناسبة، ثم دعوة الجيران وغيرهم من المدعوين، بما فيهم الغرباء، إلى وليمة عامة مفتوحة لمشاركة الوالدين بهذه المناسبة.

تستمرّ الأفراح والليالي الملاح على مدى سبعة أيام، بما يرتّبه ذلك على العائلة من أعباء مالية جسيمة. قد تسهم الهدايا والعطايا العينية التي تُقدّم للطفل السعيد الحظ في هذه المناسبة في التخفيف من هذه الأعباء.

تتطرّق هـذه الأسـفار في مواضـع أخرى إلـى الحديث عـن الولائم التـي تقام في مناسبات الأتراح. هنالك قاعدة متبعة لدى العرب بهذا الصّدد تقول بأن «إكرام الميت دفنه». قد يكون للتأثيرات المناخية أحياناً دور معاكس لتلك العادة. عند حدوث الوفاة يتوجـه بعض الرجال لحفر القبر، ويصار إلى غسـل جسـد المتوفى بالمـاء الفاتر بعيد الوفاة مباشرة، ثم لفه في كفن جديد وتشييعه إلى مثواه الأخير.

قـد يصـادف أحياناً أن يصار إلى دفن أشـخاص وهم لا زالوا على قيـد الحياة، بعد دخولهم في ما يشـبه الغيبوبة، حيث يسـتنتج الحاضرون بأن الوفاة قد وقعت. لا أزال أذكر جيداً حادثة وقعت في الكَرَك لامرأة دُفنت ثم عادت إلى الحياة من جديد. كانت مريضة ثم غابت عن الوعي بشكل مفاجئ. فظناً منهم بأنها فارقت الحياة، عمد أقاربها إلـى حملهـا ودفنها قبل أن يدرك زوجها الذي كان غائباً حقيقة ما حصل. ولدى عودته توجـه إلى القبر، وما أن جلس بقربه حتى تناهى إلى سـمعه مـا اعتقد بأنه صوت أنين. قـام على الفور بنبش التراب وإزاحة الحجارة عن الجسـد المسـجى ليتبين بأن الميت المفترض حيٌ يرزق وقادرٌ على الكلام. تمت إهالة التراب عن الجسد بواسطة صفائح من الحجارة المسـطحة الموضوعة بشكل متصالب فوق حجارة أخرى. وتمت إعادة المرأة إلى بيتها ثم تعافت وهي على حدّ علمي لا زالت حية حتى الآن. ولقد شاهدتُها مرات عديدة وتحدثت إليها.

وبعد هذه الحادثة تم اسـتدعائي عدة مرات للتحقق من وفاة بعض الأشـخاص قبل أن يصـار إلـى دفنهم، نظراً لأن أبنـاء المنطقة لديهم ثقة كبيرة بالسـمّاعة الطبية، أو كما يسمونها، «مقياس الحياة» The Scales of life.

والفترة الوجيزة التي تنقضي بين الوفاة والدفن تكون عادة مليئة بمشاغل أخرى إلى درجة صرف النظر عن مراسـم التشـييع جملةً وتفصيلاً؛ ولكن لدى العودة إلى المنزل

أو الخيمة يُسمع صدى الندب والعويل في الحال. يقوم الرجال، وليس النساء، بواجب الإشادة بمآثر وفضائل المتوفى بطريقة إنشادية مؤثرة؛ وتجتمع النسوة في باحة الدار أو فوق سطح منزل الفقيد ثم يشبكن الأيدي على شكل حلقة، حيث تقوم تلك التي في الوسط بالترنم ببعض العبارت الحزينة عند رأس المتوفى، وبعدها تتولى كل واحدة منهن أخذ دورها في ذلك بشكل متماثل. وتترافق كل بضعة أبيات بأداء رقصة دائرية في إيقاع دقيق منضبط مثير للإعجاب. وما أن يتملك هذه المجموعة التعب، حتى تتولى مجموعة أخرى القيام بالمهمة مكان المجموعة الأولى، وهكذا دواليك منذ الصباح الباكر وحتى ما بعد منتصف الليل. يقوم الأقارب المباشرون للمتوفى بزيارة القبر والقيام بواجب الندب والعويل هناك. تستمرّ هذه الطقوس على مدى سبعة أيام، يتولى خلالها الجيران والمعارف من خارج نطاق العائلة القيام بواجب تقديم الطعام للعائلة المفجوعة لتمكينهم من التفرغ لواجبات المناسبة.

عند وفاة شخصية هامة كزعيم أو رجل دين، تتخطّى الأعراف والتقاليد واجبات التشييع والعزاء التقليدية المعتادة، إلى تعليق كافة النشاطات والأعمال اليومية على مدى سبعة أيام.

كان لدي دليل عملي على ذلك عند وفاة زوجتي في الكَرَك. لم نستطع أن نفهم السبب الذي حدا بالعرب إلى تحاشينا وتجنّبنا في وقت كهذا. كان واضحاً جداً أن أقرب المقربين من أصدقائنا تعمّدوا عدم الاقتراب منا. وبعد فترة من الزمن، قاموا بزيارتنا مرة أخرى. وعند سؤالنا إياهم عن مكان وجودهم طيلة هذه الفترة، أجابوا: «كنا نمضي أيام العزاء في بيوتنا حداداً على السيدة المتوفاة؛ لم نكن على علم بعاداتكم وتقاليدكم في مثل هذه الفترة، وهكذا قمنا بتعليق أعمالنا وإغلاق دكاكيننا والتزمنا بمراسم الحداد وفق عاداتنا وتقاليدنا».

لعرب شرق الأردن عاداتٌ وتقاليد إضافية تظهر مدى التوادّ والتعاطف الذي يكنّه أحدهم للآخر. فإذا ما نفق حصان أحدهم – وهو بمثابة رفيقه المفضل بعد ابنه البكر – يقوم جاره بإحضار حصان آخر ويضعه في مربط الحصان القديم ويتركه لمدة

سبعة أيام، وهو يفكر في طريقة للتعويض على جاره جرّاء فقدان الحصان. وكذلك فإنّ النسوة يقمن أيضاً بتصرفات مشابهة عند وفاة أحد الأطفال الصغار، حيث تعمد إحدى قريبات أو صديقات الأم المفجوعة إلى دفع طفلها لهذه الأم كي ترضعه وتعتني به على مدى سبعة أيام، ريثما يسكّن روعها وتتكيّف مع المصاب.

تحضرني حادثة مؤثرة وقعت في أثناء وجودنا في مؤاب. فبعد وقت قصير من وصولنا لتلك البلاد شاء القدر أن تفقد زوجتي رضيعها الصغير. وسرعان ما شاع الخبر بين النسوة اللواتي أبدين حزناً كبيراً حيال هذا المصاب. بعد يوم أو يومين حضر إلى باب بيتنا أحد شيوخ العشيرة من الشباب، وكان يعاملنا معاملة حسنة؛ ثم دخل وأخرج من تحت عباءته حملاً أبيض صغيراً ثم وضعه في حجر زوجتي قائلاً: «أنا آسف لما أصابكم، ولو كان عندي طفل لقدّمته لك لتعتني به ريثما يسكن روعك وتتكيفين مع المصاب؛ لدي هذا الحَمَل أحضرته لك لتعتني به وتطعميه». ثم غادرنا وعندما شاهدته آخر مرة كان قد قُتل غيلة على يد أحد أبناء العشائر العدوّة بالقرب من المكان. أقيمت للمغدور مراسم حداد وعزاء على مدى شهر كامل كونه كان كريماً وشجاعاً وطيباً مع الجميع. وعادة إقامة العزاء على مدى سبعة أيام هي عادة لا تقتصر على البادية وحسب، وإنما هي عادة متبعة في مدن وبلدات سوريا وفلسطين.

وتشكّل الأعراس مناسبة للفرح والابتهاج وإقامة الولائم، وأيضاً على مدى سبعة أيام.

يكون الأسبوع الذي يسبق اتحاد الشريكين مكرّساً بكامله من قبل العائلتين كلتيهما للأفراح والمسرات. ينعزل العريس والعروس، كل في بيته الخاص، في شقق مستقلة لتلقي تهاني وهدايا الأقارب والأصدقاء والجيران. والرجال لا يشاركون النساء في زياراتهم، لأن هذا يُعد انتهاكاً صريحاً للتقاليد. والمثل العربي القائل: «إن الطيور على أشكالها تقع»، يجد له تجسيداً عملياً في هذه الأوقات. في الخارج، تستمر الأفراح والولائم وشرب القهوة على مدى سبعة أيام. ولدى العائلات الميسورة يتمّ ذبح عشرين أو خمسة وعشرين خروفاً لتأمين الطعام للضيوف الذين قدموا لمشاركة العائلة

أفراحها ومسراتها. وإضافة إلى الخراف، يتمّ طهي كميات كبيرة من الأرز والقمح لسدّ النقص. وكثرة الشحم واللحم في مثل هذه المناسبات تمثّل شاهداً على سخاء وكرم العائلتين المتنافستين. أما في الداخل، وسط جمع النسوة، فتجري للعروس عملية استحمام وتطهير يومية لتهيئتها للعريس. وعملية الاستحمام هذه هي عملية الاستحمام الوحيدة الجيدة التي تتلقاها في حياتها؛ لذلك فهي تعد بمثابة مناسبة هامة للعروس، ومهمّة مضنية للقائمات عليها. أمّا العريس كذلك فلن يخرج إلى عروسه قبل أن ينال نصيبه من الفرك والدّعك والتبخير بشتى أنواع الطيب والعطور. تنتهي الأيام السبعة من الفرح والابتهاج بجلسة دينية تشكل خاتمة طيّبة لأسبوع حافل بالجهد والتعب.

كما يشكل ختان الولد الذكر مناسبة أخرى للفرح والابتهاج لدى الجميع، الرجال والنساء على حد سواء. لقد قيل ما فيه الكفاية لإثبات أن الأيام السبعة التي تحدّث عنها الكتاب المقدس لم يختصر منها شيء بأي حال من الأحوال، ما يظهر لنا الوتيرة البطيئة لتطور الحضارة بين أحفاد إسماعيل(1). حقاً «إنهم يعيشون وحدهم» (سفر إرميا، الجزء 31 – الفصل 49). Jer. xlix. 31

شراء الأراضي

ورد في الجزء 17 من الفصل 23 من سفر التكوين Genesis xxiii. 17: «والحقل والمغارة التي كانت فيه وكل الأشجار التي كانت في الحقل وعلى تخومه هي مُلكٌ لإبراهيم».

إنه لأمر واضح جداً كم كان ربّ العشيرة the patriarch دقيقاً في هذه الصفقة. كان يمكن له أن يشتري الحقل، معتقداً أنه يشتري كل مافيه، ولكن عند مجيئه إلى

(1) العادات العربيّة التي يذكرها فوردر قديمة جداً وترقى لآلاف السنين منذ أيّام ممالك العرب القدامى في اليَمَن وجنوبي جزيرة العرب، ولذا فهي ليست إثباتاً على موثوقيّة العهد القديم، بل هو يصف ويصوّر مجرّد شذرات من تراث يسبقه بعهود بعيدة.

ملكه وذهابه لإعداد المغارة لموتاه، أوقفه المالك السابق قائلاً: «أنت اشتريت الحقل فقط، وليس المغارة أو الأشجار التي في الحقل». وهكذا، فقد كانت حصّة إبراهيم في صكّ الملكية كل ما في الحقل وعلى تخومه. إنه لأمر شائع في الشرق أن يمتلك الرجل بئراً وسط حديقة أو أرض تخصّ شخصاً آخر.

وُجد البئر من قبل الرجل الذي كان قد اشترى الأرض، وحيث أنه لم يكن قد ورد ذكر البئر في صك الملكية، فالبئر، وفق العادات، تعود للمالك السابق للأرض. وهكذا عند شراء الأرض من العرب تستخدم عبارات كالعبارات التالية: «فلان اشترى من فلان الأرض الواقعة في مكان كذا، وكل ما عليها من شجر وحجر وكل ما قد يُعثر عليه في باطنها». وهذا يضمن للشاري حقه في كل ما يجده، بما فيه الكنوز. هذه العادة تجعل من تصرّف إبراهيم تصرفاً مفهوماً تماماً. والشخص المغفل قد يُخدع على الفور عند شرائه أرضاً في الشرق؛ بينما يتكتم البائع على ذلك ليحقق لنفسه كسباً مضاعفاً. هذه الصفقة التي نقرأ عنها أُبرمت بحضور الشهود، إنها ثغرة قانونية خطيرة في بلاد وعند أناس لا ينظرون إلى الكذب والخداع على أنه جُرم أو خطيئة، وحيث لا وجود تقريباً للكتابة والوثائق.



إنّ ما يرد في الجزء 14 من الفصل التاسع عشر من سفر اللاويين بالعهد القديم Leviticus xix. 14:

«لا يحق لك أن تلعن الصُّم أو تضع حجر عثرة في طريق المكفوفين». يُطبّق بحذافيره من قبل عرب هذه الأيام. فالغافل الضعيف الذي يتعرّض لعملية خداع واحتيال يلقى كل العون والتعاطف من قبل من حوله ويتم التغاضي عن كثير من أخطائه نظراً لعجزه وضعفه.



ورد في الجزء 20 من الفصل الرابع والعشرين من سفر التثنية في العهد القديم

Deuteronomy xxiv. 20: «إذا مـا أقدمـت على قطع شـجرة الزيتون خاصتك، فلن تتمكن من تسلق أغصانها ثانية، فهي للغريب واليتيم والأرملة».

هـذه الوصيّـة التي فرضت على بني إسـرائيل قبل ثلاثة آلاف عـام لا تزال متبعة من قبل مالكي أشجار الزيتون المحظوظين. يبدأ موسم قطاف الزيتون في شهر نوفمبر، حيث يتوجه المزارعون إلى البساتين مسلحين بالعصي أو عيدان الخيزران والسلالم والأكياس. فيصعد بعض الرجال إلى الشـجرة ويقومون بالضرب على الأغصان بقوة ما يتسبب بتساقط الثمار علـى الأرض، حيث تعمد النسـوة والأطفال إلى جمعها ووضعها في الأكياس والسـلال. ولا تتم العودة إلى الشجرة نفسها مرة أخرى، وما يتبقى من سقط الثمار على الأرض يكون من حق الفقراء. يشكل الزيتون جزءاً من النظام الغذائي لأبناء الشرق، والأسرة التي تملك واحدة أو اثنتين من أشجار الزيتون تعدّ محظوظة بالفعل.



ورد فـي الجزئيـن 24 و 25 من الفصل الثالث والعشـرين من سـفر التثنية في العهد القديـم Deuteronomy xxiv. 20: «إذا مـا أتيـت كَرمَ جارك يحق لـك أن تأكل كما يحلـو لـك حتى التخمة، ولكن لا يحق لك أن تحمل منه شـيئاً إلـى دارك. إذا ما أتيت حقل الذرة خاصة جارك، يحق لك أن تقطف من أكواز الذرة بيدك، ولكن لا يحق لك استخدام المنجل لقطع السنابل».

فأن تأكل العنب أو تشوي أكواز الذرة الخضراء أمر جائز تماماً في جنائن أو بساتين العـرب، ولـن يمنعك أحد من القيام بذلـك، ولكن لا يحق لك أن تحمـل أياً منها إلى دارك، باستثناء ما يُقدّم لك عن طيب خاطر.

طحن الحبوب على المطحنة

تشـكّل عمليـة طحن الحبـوب للاسـتخدام اليومي جزءاً مـن مهام ربّـة البيت عند العرب، حيث يكاد لا يخلو دار أو خيمة من رحى طحن الحبوب اليدوية الخاصة بها.

وعلى الرغم من أن أيّ شـيء آخر قد يكون تمّ احتجانه أو شـراؤه من منزل أو عائلة ما، فـلا بدّ من الالتزام الصارم بما ورد في الجزء 6 من الفصل الرابع والعشـرين من سـفر التثنيـة في العهد القديم Deuteronomy xxiv. 20: «لا يحق لأيّ كان أن يرتهن لديه مطحنـة جاره، لأنه بذلك يرتهن حياته». ومن الأقوال التي تعبّر عن أوقات العسـرة أن «مطحنتـه صامتـة»، أيّ أنـه لا يوجد أيّ حبـوب لطحنها. هنالك نوعـان من المطاحن المنزليـة: تلـك التي تديرها المرأة، وتلك التي يديرها الحمار. وبالنسـبة للثانية منهما، يتمّ تعصيب عيني الحمار كي لا يحس بالدوار من كثرة اللف والدوران. ومن الشـائن بالنسبة للرجل أن يقوم بعملية الطحن، ولذا كان المشهد المذلّ لشمشون في المطحنة داخل السجن عندما قاموا باقتلاع عينيه لتهيئته لهذا العمل.

المراثي السنوية

ورد في الجزء 39 من الفصل الحادي عشر من سفر القضاة بالعهد القديم Judges xi. 39: «وكان من العادات الشـائعة في أوسـاط بني إسرائيل أن تمضي بنات إسرائيل ليندبن ابنة يفتاح الجلعادي Jephthah the Gileadite لأربعة أيام في السـنة». تشكل زيارة الأضرحة والمزارات جزءاً مهماً من حياة العرب.

هنالك في كل منطقة ضريح أو مزار لأحد الأولياء أو الشخصيات البارزة من ذوي القـدرات الخارقـة على اسـتجلاب البركات، وكل مـا يجري إيداعـه بالقرب من هذه الأضرحة والمزارات يكون في مأمن تام من أيّ مكروه، كونه تحت الحماية المفترضة لذاك الولي صاحب المزار. من المألوف تماماً رؤية الخيام وأكياس الذرة والمحاريث وغيرهـا بالقرب من هذه الأماكن، ولا يجرؤ أحـد على العبث بهذه الودائع أو إزاحتها من مكانها خشية استجلاب لعنة الروح التي تقطن هذا المكان.

هنالـك زيارات سـنوية يجري القيـام بها لهـذه الأضرحة والمزارات لاسـتجلاب البركـة علـى عائلة الزائـر أو قطيع حيواناته. ولـكل فئة من فئات المسـلمين أضرحتها

ومزاراتهـا الخاصة، ولكن هنالك بعـض الأضرحة والمزارات التي يؤمّها الجميع، إما لتقديم القرابين أو التفجع والنواح[1].

من الأضرحة والمزارات الرئيسـية في فلسـطين وجزيرة العـرب أضرحة ومزارات النبي موسى قرب الأردن؛ وأضرحة ومزارات أخيه هارون على قمة جبل هور Mount Hor في إدوم Edom؛ وأضرحة ومزارات الأنبياء صموئيل ويوحنا ورؤبين بن يعقوب. وتعدّ مغارة مكفِلاه Machpelah في الخليل أحد المزارات الهامة لكلّ من المسلمين واليهود على حدّ سواء. ويعدّ قبر محمّد [عليه الصّلاة والسّلام] في المدينة المنورة في جزيرة العرب بالطبع أهم مزار على الإطلاق بالنسبة لأتباع الرّسول العربي.

يبيّن لنا هذا الفصل بوضوح أن العادات والتقاليد الشعبية التي يمارسها هؤلاء الناس البسـطاء من أنصاف المتحضّرين منذ آلاف السـنين تؤكد على مـاورد في التوصيفات والأحداث وغيرها من الأشياء المدونة في الكتب المقدسة. لقد أسهمت وتيرة التقدّم البطـيء للحضـارة في جزيرة العرب في الحفاظ على اسـتمرارية العديـد من العادات والتقاليد الأخرى التي لم يتمّ التطرق إليها في هذا الكتاب بكل تفاصيلها، وجميع هذه العادات والتقاليد لاتزال شائعة إلى حدّ كبير بين أحفاد إسماعيل.



(1) وهذه الممارسات الفاسدة التي شاعت في القرون الأخيرة ليست من الإسلام في شيئ، بل كان فيها منتهى الإساءة لروح الدّين التي لا تقرّ بالعبوديّة والقدسيّة إلا لله وحده.



عازف قيثارة عربي

للعرب نوعان من الموسيقا، وتظهر هذه الصورة شاباً يعزف على قيثارة ذات وتر مفرد. والآلة أخرى هي ناي مزدوج مصنوع من الخيزران النحيل، وعادة ما يعزف بها الراعي عندما يرعى قطيعه.



امرأتان تطحنان على رحى

لم يكن العرب يعرفون المطحنة البخاريّة، وتقوم النساء بطحن الطحين عند الحاجة إليه. تتألف الرّحى من حجرين، الأول يدور حول محور الأسفل، ويتمّ ملء الرّحى من خلال فتحة في الوسط. ويعدّ من العار على الرّجل أن يطحن على الرّحى.

الفصل الرابع والعشرون

جزيرة العرب في علاقتها بالكتاب المقدس

على الرغم مـن كونها صحراءَ رملية قاحلة بشـكل أساسـي، تمتـاز جزيرة العرب بأهميـة تاريخية ودينيـة بالغة. تمتدّ جزيرة العرب من الغرب إلى الشـرق بدءاً من منبع النيل في مصر السفلى Lower Egypt حتى الفرات والخليج العربي، وهي مسافة تقدّر بحوالي ألف ميل، وألف وأربعمئة ميل من من الخليج العربي حتى سوريا في الشمال. لقد قسم العرب بلادهم إلى قسـمين رئيسـيين؛ قسـم شـمالي، ويدعى بلاد الشام، أو «الشمال» the left، وقسم جنوبي ويدعى بلاد اليَمَن، أو «اليمين» the right.

لكـــن الجغرافييـــن قامـــوا بتقسـيمهـا إلـى ثلاثـة أقسـام منفصلـة وهـي: العربيّة الصّحراويّة Arabia Deserta والعربيّة الصّخريّة Arabia Petraea والعربيّة السّعيدة Arabia Felix.

ورد فـي الجـزء 6 من الفصل 25 من سـفر التكويـن (Gen. xxv. 6) أن العبرانيين القدماء سـيطروا على هذه المنطقة «بلاد الشرق» وسـكانها «أبناء الشرق»: الجزء 3 – الفصل 6 من سفر القضاة؛ والجزء 3 – الفصل 1 من سفر أيوب؛ والجزء 30 – الفصل 4. من سـفر العهد القديم؛ والجزء 14 – الفصل 2 من سـفر إشـعيا؛ (Judge. Vi. 3; Job i. 3; 1 K. iv. 30; Isa. ii. 14).

كانـــوا يقصـــدون بجزيـرة العـرب ذلك الجـزء الصغير مـن البلاد المسـمى اليوم Arabia (سفر حزقيال) Ezek. xxvii. 21; 2 Chron. xxi. 16, 17.

وهكذا، فقد كان يُنظر إلى سكان جزيرة العرب على أنهم يقطنون ذلك الجزء من الأرض المتصل بفلسطين Philistines 2 Chron. Xxvi. 7. ومن خلال الحديث عن «كافة ملوك جزيرة العرب» (K. x. 15; Jer. Xxv. 24 1) يمكن أن نفهم أن المقصود هم زعماء القبائل الرُّحّل الذين كانوا يسكنون الخيام. وعندما يتحدث الحواري بولص Apostle Paul عن زيارته لجزيرة العرب، (Gal. i. 17) قد يفهم البعض أن المقصود هو تلك المنطقة قرب دمشق، ويصر البعض الآخر بأن إدوم Edom هي المقصودة. أيهما كان الصواب، فجزيرة العرب مشمولة بهذه الإشارة. وعندما يتحدث عن سيناء Sinai في جزيرة العرب (Gal. iv. 25)، فهو يستخدم التسمية بمعناها الواسع.

من المفترض أن تسمية جزيرة العرب Arabia مشتقة من عَرَباه[1] Arabah، أي الصحراء، وهي إقليم موجود في إدوميا Idumea.

نقرأ في الجزء 8 من الفصل الثاني من سفر التثنية Deuteronomy ii. 8 عن السهل المتصل بإيلات Elath وعصيون جابر Eziongeber؛ والذي هو في الأصل هَعَرباه Ha–Arabah، أو العَرَبه. وعندما جاب الإسماعيليون المناطق المجاورة، انتقلت التسمية إليهم أيضاً. تتألف هـ – عرَباه، أو عَرَبه، من وادٍ قفر عظيم سحيق موحش يبدأ عند إيلات Elath وعصيون جابر Eziongeber وينتهي عند البحر الميت، الذي يسمى «بحر السَّهل»، أو عَرَبه، كما ورد في الجزء 49 من الفصل الرابع من سفر التثنية؛ والجزء 16 من الفصل الثالث من سفر يوشع.

---

(1) هذا كلام هواة وجهلة، أن تُعدّ التّوراة العائدة إلى القرن الخامس قبل الميلاد واللغة العبريّة أصلاً لتاريخ المشرق وأصلاً لما سمّاه النمساوي شلوتسر Schlötzer باللغات السّاميّة. وحقيقة الأمر أن أسرة اللغات العروبيّة المشرقيّة التي نشأت أول الأمر في اليَمَن هي أصل جميع اللغات التي سُمّيت بالسّاميّة، بدأت باللهجات العربيّة الجنوبيّة كالسبئيّة والقتبانيّة والحميريّة، وتفرّعت منها 42 لهجة عربيّة، وظهرت لها كتابات كقلم المُسند وقلم الجزم.. أمّا اشتقاق اسم العرب فليس بالطبع من العبريّة (عَرَباه)، بل أظنه مفردة كنعانيّة من شرقي جزيرة العرب، وتعني: الغرب. وفي الكنعانيّة يعبّر عن جهة المغرب بقولهم: معراب، فورثتها الآراميّة: مَعرَبا. ومؤدّى ذلك أن ممالك جنوبي الجزيرة القديمة سُمّيت بذلك لوقوعها إلى غربي أراضي بني كنعان في شرقي الجزيرة والخلج العربي.

تلـك الأجـزاء من البلاد المتاخمة لفلسـطين ومصر سـكنها أساسـاً كـوش Cush بن حام Ham، ومن هنا أصبح اسـم كوش Cush تسـمية شـائعة عند العرب وسـكان أثيوبيا[1].

يرجـع العـرق العربي النقي في جذوره إلى يقطـان Joktan أو قحطان kahtan ابن عيبـر Heber مـن سـلالة نـوح Noah. يتحدث موسـى عن ثلاثة عشـر ولداً مـن أبناء قحطان كما ورد في الجزئين 26–29 من الفصل العاشـر من سـفر التكوين (Gen. x. 26–29). والعديد من أسـماء هؤلاء الأبناء جرى تحديدهـا من قبل المؤرخ الألماني نيبـور[2] Niebuhr وغيره من خلال مطابقتها مع أسـماء بلدات وأقاليم جنوب جزيرة العرب. العربي القادر على تحديد نسـبه بوضوح في شجرة الأنساب العربية يدعى من العرب الأقحاح، أو «عربي ابن عربي» إشارة إلى نقاء نسبه. الفئة الثالثة من العرب، أو ربمـا أولئـك الذين نجدهم عموماً في أيامنا الحاضرة، هم من نسـل إسـماعيل، الذين تفـرع أبناؤهم إلى اثني عشـر سـبطاً وفقاً لمواطنهم إحقاقاً للوعـد الإلهي لإبراهيم في الجزء 20 من الفصل السـابع والعشرين من سـفر التكوين (Gen. xvii. 20). أما بقية القبائل فقد تحدرت من قطوراه Keturah الزوجة الثانية لإبراهيم.

يُقسـم مجموع هذه القبائل إلى فئتين اثنتين وهما: عرب المدن Arab el–mudn، مـن يسـكنون المنازل؛ والبـدو Bedouin، من يسـكنون «بيوت الشـعر»، لأن الخيمة المقصـودة مصنوعـة مـن وبر أو شـعر الماعز الـذي تقوم النسـاء بغزلـه وحياكته لهذا

---

(1) هذه كلّها ترّهات، صنّفها عزرا الكاتب في سفر التكوين، ويطلب منا أن نصدّقها ونأخذ بها. البحث العلمي في تاريخ الشرق الأدنى القديم عليه الاستناد إلى علم الآثار الذي فصّل إلى حدّ رائع في أطلال المدن والحواضر القديمة في كل من بلاد الرّافدين وسوريا القديمة ومصر، وبالطبع في جزيرة العرب ذاتها في عصر الجاهليّة. ثمّ لدينا ذاك الكمّ الهائل من نصوص اللغات المشرقيّة القديمة وتراثها الدّيني والأدبي والإداري والفلسفي العظيم، كالتراث الآشوري والبابلي والأكادي وتراث إيبلا وأوغاريت. بعد ذلك كله نجد اللغة العبريّة مجرّد قزم صغير يقف على أعتاب لغة كنعان، ونفهم أنّ هذه التّوراة المحرّفة ليست سوى مقاطع مجموعة من تراث بابل وأكّاد وأوغاريت، التي تسبقها بما يزيد على عشرة قرون في أقل تقدير.

(2) كارستن نيبور لم يكن مؤرّخاً ألمانياً، بل هو رحّالة وباحث دنماركي.

الغرض. وهذه الفئة الثانية تعيش بشكل كلي في البراري والصحارى ترعى قطعان ماشيتها، محققة إلى حدّ ما النبوءة الإلهية: «سيكون من أبناء البراري» He will be a wild man التي ورد ذكرها في الجزء 12 من الفصل السادس والعشرين من سفر التكوين (Gen. xvi. 12).

صحراء **جزيرة العرب** هي بمعظمها صحراء قاحلة لا متناهية يكاد غطاؤها النباتي لا يسدّ رمق سفنها الصحراوية التي تمخر عباب رمالها كل يوم، ألا وهي الجمال. وصحراء **جزيرة العرب** هي أيضاً فقيرة بالمياه، ما خلا بعض الينابيع الملحية التي لا تكاد تطفئ ظمأ قاطنيها أو تفي باحتياجاتهم اليومية. تتناثر هنا وهناك فوق النجود العالية المدن الكبيرة المحاطة بحدائق وبساتين النخيل. ليس هنالك أيّة أنهار أو جداول دائمة الجريان تطرح الخير والبركة في صحراء **جزيرة العرب** وتجلب الخصب إلى أرضها القاحلة وتنفخ روح الحياة في قاطنيها النائين عن الحضارة والمدنية. تطوّق الصحراء أو تتخللها جبال جرداء بقمم شامخة صعبة المرتقى. أمّا الهواء فجاف، وقد تنقضي سنوات عديدة دون أن تبلّل وجه الصحراء قطرةُ مطر واحدة. تقدم لنا الكتب المقدسة وصفاً رائعاً ومؤثراً **لجزيرة العرب**: «أرض الصحارى والحفر، أرض الجفاف وظلال الموت، أرض لم تطأها قدم إنسان من قبل، ولم يسبق لإنسان أن قطنها» (الجزء 6 – الفصل 2 – سفر ارميا) Jer. Ii. 6. ولا يزال الجزء الأعظم من جزيرة **العرب** غير مكتشف حتى وقتنا الحاضر، وهو بانتظار قدوم رواد المبشرين، الذين يتوجب عليهم، قبل غيرهم من الرواد، سبر أغوار هذه الأرض النائية مرة بعد مرة.

تشتق بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea اسمها من بِترا[1] Petra وتعني «الصخرة» نظراً لوجود العديد من الأقاليم الصخرية ضمن حدودها. لقد اختصّ الله، حسب نبوءة يهوداه Judea، هذه الأرض الموحشة، وإنما البالغة الأهمية، بقداسة لم

(1) جرت العادة حتى اليوم تسمية هذه العاصمة النبطيّة العظيمة بصيغتها اليونانيّة: بترا، والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطيّة: سِلَع، التي تعني الصّخرة أصلاً وعنها تُرجمت التسميّة اليونانيّة.

يسبق أن خصّ بها أرضاً غيرها.

لقد كانت هذه الأرض مسرحاً للعديد من الأحداث المهولة والاستثنائية المدونة في التاريخ اليهودي، الأهمية المقدسة لسيناء التي أقام الإله فوق قمتها الملبدة بالغيوم سُرادق العتمة عندما أصدر للمرة الأولى نظاماً للقوانين المكتوبة للجنس البشري؛ وهنالك حوريب Horeb بأشجارها الفاقعة الحمرة وكهوفها التي وفرت ملجأً لنبي اليهود إيليا Elijah عندما فر من إيزابيل Jezebel الأميرة الفينيقية وملكة إسرائيل؛ وأرض المراعي النائية، التي كانت آنذاك بمثابة أرض المنفى للقادمين من مصر، حيث كان المخلص اليهودي the Jewish deliverer يرعى قطعان يثرو Jethro، كاهن مدين Midian؛ وهنالك أيضاً شور Shur وپاران Paran بآبار ماراه Marah المرّة، والصخرة المضروبة التي انبثق منها الماء؛ وهنالك كذلك أرضُ عوص Uz، الأرض التي شهدت سرّاء النبي أيوب وضرّاءه ابتلاءً لصبره وانتصار إيمانه؛ كل هذه الأحداث وقعت ضمن الإطار الجغرافي لبلاد العرب الصخرية[1] Arabia Petraea.

لقد اشتقت تسمية **جزيرة العرب السعيدة** Arabia Felix بسبب أرضها الفائقة الخصوبة؛ وهي أرض جبلية وافرة المياه تعطي محاصيل جيدة من الحبوب والبن والفاكهة. والسكان الحاليون لهذه الأرض يعانون من فقر مدقع نتيجة السنوات المتعاقبة من الجفاف والضرائب الباهظة التي تفرضها عليهم الحكومة التركية. يقطن **جزيرة العرب السعيدة** Arabia Felix المعروفة أكثر بـ «اليمن السعيد» آلاف اليهود متخذين لهم فيها موطناً ومستقراً منذ قرون عديدة.

من أهم السكان الذين قطنوا هذه الأقسام الثلاث الكبرى **لجزيرة العرب** ما يلي:

1 - الإدوميون The Edomites: أرض أبناء عيسو ـ Esau «الذي هو إدوم» بعد أن «فرّ من وجه أخيه يعقوب» إلى جبل سعير Seir، وهو مرقى مرتفع عن الأرض يمتدّ من جنوب البحر الميت حتى خليج عصيون - جابر

(1) انظر كتاب كرايتون جزيرة العرب: Crichton: *Arabia*.

Ezion-geber. سـكانها الأوائل كانوا من قاطني الكهوف Horims كما يرد في سفر التثنيـة (Deut. ii. 12, 22). وقـد أطلق عليها الإغريـق والرومان في العصور اللاحقة اسـم إدوميـا Idumea. كان الإدوميون رجالاً مولعين بالحرب والقتال، وقد انتشـروا شـيئاً فشـيئاً باتجاه الشـرق والجنوب عبر مسـاحات واسـعة من الأرض، وقد أنشؤوا لهـم موانـئ عديدة على البحر الأحمر أخذها منهم داود David وألحقت مملكة إدوم بملكـه، إلـى أن ثـارت لاحقاً في عهـد يهـورام Jehoram، كمـا سـفـر الأيـام الثانـي (2 Chron. xxii. 8-10).



خزنة فرعون، تحفة إدوم

هـذا الهيـكل منحـوت بالحجر الـوردي اللون. يتجاوز ارتفاعـه ثمانية أقدام وعمره أكثر من ألفي سـنة. يحتـوي على ثلاثة غرف واحـدة بحجـم خمس وثلاثين قدمـاً مربعاً، واثنتان بحجم خمس وعشـرين. ولقد حافظ موقعه المحمي علـى النحت الرائع من الخراب الذي يسبّبه الطقس. ويطلق العرب على هذا المعبد «خزنة فرعون». ولا أحد يعرف ما الغاية من هذه المنحوتة المتقنة.

قبل حوالي مئة وخمسين سنة من الحقبة المسيحية جرى إخضاع الإدوميين مجدداً، ثـم جرى دمجهم شـيئاً فشـيئاً فـي المجتمع اليهودي، إلى أن انقرض اسـمهم السـابق وتلاشـى إلـى الأبد. والأرض التي كانت يوماً مهداً للعديـد من المدن والقرى وكانت سوقاً لتجارة الشرق، باتت الآن من أكثر المناطق التي يتعذر بلوغها في الشرق.

-2 المؤابيـون The Moabites: الأرض التي يقطنها أحفـاد الابن الأكبر لنبي الله لوط Lot تقع إلى الشرق من الأردن والبحر الميت، وتاريخها وثيق الصلة ببني إسرائيل. لقد شـكّل هؤلاء الناس قبيلة قوية، لكنها عاجزة عن وقف تقدم العبرانيين في طريقهم إلـى كنعان Canaan. مع ذلك، فقد تمكنوا باتحادهـم مع المدينيين Midianites من استمالة بني إسرائيل إلى الخطيئة وعبادة الأوثان، انظر سفر العدد (Num. xxv).

تقع المدينة الرئيسـية وهـي البتـراء[1] Petra، ولعلها يقوثئيـلIoktheel التي ورد ذكرهـا فـي الكتـاب المقـدس – فـي واد عميـق ضيـق شـديد الانحدار أو شـعب من الصخور يشـمخ جانباه كلاهما إلى ارتفاع شـاهق، مشـكلاً حصناً دفاعياً طبيعياً رائعاً. جرى في هذه الصخور التي ترتفع إلى مئات الأقدام نحت العديد من البيوت والمدافن لسـكانها الأوائل والتي تسـتحق بكل جدارة أن يطلق عليها تسـمية «أعشاش النسور». لقـد خيّم الصمـت والرّهبة على أوابد هذه المدينة ذات المنـازل المنحوتة في الصخر ولفهـا الغمـوض لعصـور متعدّدة إلـى أن أعيدت إلـى دائرة الضوء مـن جديد على يد بوركهـارت[2] Burckhardt فـي أوائـل القرن التاسـع عشـر، ولاحقاً علـى يد لابورد

(1) هذا تعريب غشيم لتسمية العاصمة النبطيّة العظيمة بصيغتها اليونانيّة: پترا، والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطيّة: سِلَع، التي تعني الصّخرة. أما البتراء فماذا تعني في العربيّة؟ إنها لا تعني سوى المقتطعة والمنقوصة.

(2) رحّـالـة سويسـري شهيـر مـن بـازِل Basel واسمـه: يوهـان لـودڤيك بوركهـارت Johann Ludwig Burckhardt، بعد تحصيله الدّراسي في إنكلترا أوفده إلى الشرق الاتحاد البريطاني الأفريقي British African Association وفي غضون إقامته لأكثر من عامين بمدينة حلب وتجواله في سوريا والنّوبة، أجاد تقمّص شخصيّة أهل الشرق وتكنّى بالحاج إبراهيم، واشتهر من جرّاء اكتشافه لمدينة پترا الأثريّة. له كتابان مهمّان: «يوميّات رحلة في جزيرة العرب» *The Arabian Journal* نُشر بلندن في جزأين عام 1829، والآخر «ملاحظات عن

Laborde وروبنسون[1] Robinson. لقد قام الكاتب بست زيارات لهذه الأوابد الهامة محطماً الرقم القياسي فيما يتعلق بالزيارات إلى البتراء.

كان الإدوميون The Edomites وفي كل العصور مناوئين للعبرانيين؛ من هنا يصح القول مجازاً بأن أعداء بني إسرائيل الحقيقيين يطلق عليهم تسمية «الإدوميين» The Edomites.

كانت عاصمتهم تدعى عار Ar، أو ربّات مؤاب Rabbath Moab على الطرف الجنوبي للممر الضيق المؤدي إلى وادي الموجب Mojeb، الذي يجري خلاله نهر أرنون Arnon. عند الأغريق كانت تدعى آريوبوليس Areopolis، أو مدينة مارس "the city of Mars"، أوابدها كثيرة ومحفوظة بشكل جيد.

قلعة مؤاب وكان حصنها الشهير قير Kir المعروف اليوم بالكَرَك، حيث عاش كاتب هذه الصفحات لعدة سنوات. يصف النبي إشعيا Isaiah العديد من مدن مؤاب الرئيسية متفجعاً على اجتياح هذه البلاد وتدميرها على يد الآشوريين Assyrians.

3 – العماليقيون The Amalekites: كان ممتلكاتهم إلى الغرب من إدوم؛ وكانوا يسمّون في نبوءة بلعام Balaam «أول الأمم» The first of the nations (Num. xxiv. 20). وقد ورد ذكرهم على أنهم الشعب الذي يقطن كامل المنطقة الممتدة من شور Shur في مصر إلى حَويلة Havilah أو الخليج العربي (Sam. Xv. 7 1).

4 – المدينيون: هم أحفاد إبراهيم وقطوراه Keturah عن طريق ولده مدين Midian؛ وقد استقرّوا قرب جبل حوريب Mount Horeb. لقد اجتاح بنو إسرائيل جزءاً لابأس به من أرضهم في طريقهم من مصر إلى كنعان. وكان قسم أو فئة من هذا

البدو والوهابيّين» *Notes on the Bedouins and Wahabis* نُشر في جزأين أيضاً بلندن عام 1831.

(1) سوف تكون لنا عودة على صفحات هذه السلسلة مع الرّحالة الفرنسي ليون دى لابورد Léon de Laborde، والأميركي إدوارد روبنسون Edward Robinson، في كتب شائقة وممتعة.

الشعب حلفاء المؤابيين (Num. xxii. 4, 5)، وتمت الإطاحة بهم على يد جدعون Gideon .Judges vi

5 – العمّونيون The Ammonites: وهم من نسل بن عمومي Ben Amomi ابن نبي الله لوط Lot، قطنوا الأرض الواقعة بين نهري آرون ويبوق Jabbok. أبعدهم العموريون The Amorites إلى مسافة أبعد باتجاه الشرق. كان هؤلاء الناس على عداء مستفحل مع بني إسرائيل، وكانت نبوءة إرميا Jeremiah وعاموس Amos وحزقيال Ezekiel وصَفنيا Zephania ضدهم، حيث اختفى اسمهم من التاريخ قبل مولد السيد المسيح؛ وهم بلا شك اندمجوا في واحدة من أكبر القبائل العربية التي عاشوا في كنفها.

6 – الإسماعيليون The Ishmaelites: كان نبايوت Nebajoth وقيدار Kedar أكبر أبناء إسماعيل (Gen. xv. 13)؛ وقد أطلق الأول منهما اسمه على المنطقة عند جبل هور؛ أما الثاني فقد أوغل بعيداً في الصحراء وأقام في خيام مصنوعة من وبر الماعز الأسود، من هنا جاء التعبير في الجزء 5 من الفصل 1 من أناشيد سليمان في العهد القديم Solomon Songs: «سوداء كخيام قيدار». كانوا أغنياء في قطعانهم (Isa. 1x. 7) وكانوا رماة قوسٍ بارعين ومحاربين أشداء (Isa. xxi. 16, 17; Ps.Cxx. 5, 7)، وشقَّ دوماه Dumah ثالث أبناء إسماعيل طريقه نحو الشرق قرب الخليج العربي. وقد جاءت إحدى النبوءات في غير صالح أحفاده (Gen. xxi. 11). أما تيما Tema الابن التاسع (Gen. xxv. 15) فيرد ذكره في الجزء 14 من الفصل 21 من سفر إشعيا (Isaiah. xxi. 14) فيما يتعلق بقوافل ديدان Dedan.

أما بقية أبناء إسماعيل فقد انتشروا فوق ذلك الجزء من **جزيرة العرب** الواقع جنوب فلسطين والممتد حتى شور بالقرب من مصر، والتي كانت الأخيرة تقيم معها علاقات تجارية منذ أيام نبي الله يعقوب (Gen. xxxvii. 25, xxxix, 1).

ولا زالت أسماء الأبناء الاثني عشر لإسماعيل حيّة بين قبائل وأسر وقرى وأقاليم جزيرة العرب.

7 – القينيّـون The Kenites: قبيلـة عربيـة تقطـن بالقـرب مـن العماليقييـن The Amalekites أو بينهم في جنوب غرب بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea. كانوا قد أبدوا لطفاً في التعامل مع بني إسـرائيل عنـد خروجهم من مصر، وبالمقابل، عندما انقلبوا ضد العمالقيين The Amalekites، تمنى عليهم شاؤول Saul الانسحاب كي لا يلاقوا ذات المصير الذي لقيه أعداؤه (Sam. Xv. 6 ;21–Num. xxiv. 20).





مشهد عام لدمشق من الأعلى

دمشق جنة العرب الدنيوية على الأرض ولؤلؤة الصحراء، هي إحدى المدن المشرّفة لدى المسلمين. يبلغ عدد سكانها 150,000 تقريباً، وشكلها يشبه الملعقة وهي محاطة بالحدائق ووراءها الجبال. هذه الصورة الملتقطة من مئذنة تظهر أسطح أبنية البيوت وقباب بعض الأضرحة المقدسة. ومن دمشق تنطلق قوافل ضخمة إلى جزيرة العرب وشمال سوريا.

الفصل الخامس والعشرون

نظرة استشرافية

في كلمة ختامية، دعوني أقول بأني آمل ألا تكون «مغامراتي بين العرب» نهاية المطاف. لقد حدثتكم عن تجربتي الاسكتشافية في بلاد العرب. وكل عام ينقضي يجعل من هذه التجربة أكثر سهولة، وكل رحلة ستعني قدراً أقل من العراقيل والمنغصات، وإحاطة أكبر من جانب العرب بالمسيحية البروتستانتية بالمقارنة مع مسيحية الشرق، وهو ما يُسهم أكثر فأكثر في التخفيف من مستوى سوء الفهم والتحامل والتعصّب.

لا بدّ أن تملي مقتضيات الضرورة في بعض الأحيان على العمل التبشيري أن يواجه العزلة والمشاق والخطر، وربما الموت. لكن مثل هذه المصاعب هي دائماً الضريبة التي تسبق النجاح والنصر المبين للبشرى كما عبّر عنها جودسون Judson في الهند، وكالڤِرت Calvert بين أكلة لحوم البشر في البحار الجنوبية.

قد لا تجد المحطات التبشيرية والكنائس والمجامع الدينية لنفسها موطئ قدم لبعض الوقت في جزيرة العرب، لكن لا ينبغي لذلك أن يعيق الالتزام بإطاعة الأوامر بالتقدم.

«عليك أن تمخر عباب العالم في نشاطك التبشيري»، وعليه، فمن خلال الشهادة الصادقة وجهود التبشير الدؤوبة والمتواصلة، وتوزع العالم، يمكن أن نكسب إلى صف يسوع المسيح بالصبر والأناة أعراب الخيام والمدن[1]، كما حدث للأفارقة

(1) هذا الشيء لم يحصل ولن يحصل أبداً، والنتيجة التي آلت إليها رحلات زويمر وفوردر في جزيرة العرب كانت مثالاً صارخاً للفشل الذريع، ولم يحصدا منها غير التعب وركوب المخاطر.

بفضـل إيمان ماكاي Mackay وإخلاصه، وللصينيين بفضل إصرار پيرسـي Piercey ومواظبته.

إنّ العمـل الذي جـرى تصويره على هـذه الصفحات كان في إحـدى جوانبه عملاً مسـتقلاً. نـادراً ماكانـت الجمعيـات المنظمـة تمدّ يـد العـون للبعثات الاستكشـافية والتبشـيرية فـي مراحلها الأولى. لقد تم وضع الموارد والمقـدرات الخاصة لعباد الله مرة بعد مرة بتصرف المبشـر أو المستكشـف، وجرى اسـتخدامها لفتح واستكشـاف بـلاد جديدة، وهـو ما يبدو لي بأنـه ينطبق على حالـة جزيرة العرب المهملـة والبعيدة عـن الحضارة. إذا ما توصلنا إلى هكذا نتيجة من خلال قراءتنا هذا الكتاب، فلن يكون الجهد الذي بذلتُه في كتابته قد ذهب بلا طائل.

لذلك فقد سخّرني الله، وهو مدرك تمام الإدراك لحاجتي الماسة ورغبتي الصادقة، لإنجاز هذه المهمة بالتعاون مع الآخرين.

لقد هيأ لنا الفرصة لتبشير بني إسماعيل، والأبواب التي لطالما كانت مغلقة، أخذت تتفتح أمامنا شـيئاً فشـيئاً. السـنون تنقضي بسـرعة والعمل المضني لم ينجـز بعد. أيها القارئ:

«إنه شأنك أنت، وأنت أولى به» (Ezra x. 4)

لن يكون الموعد بعيداً إذا ما

«شنّفت الموسيقى السّاحرة أسماع الليل المظلم،

وشدّت هموم الحياة اليومية ومشاغلها رحالها

كما يشدّ عرب الصّحراء رحالهم..

وانسلّت عنّا بعيداً بصمت».




CYPRUS
DAMASCUS
PALESTINE
KERAK
SINA PENN.
EGYPT
Nile
NUBIA
MEDINA
HAIL
EL HEJAS
TURKISH TERRITORY

فهرس الكتاب



مغامرات بين العرب

رحلات في الأردن وفلسطين بين 1891-1899م
ورحلة إلى جوف السَرحان عام 1900-1901م

أرتشيبولد فوردر مبشر بريطاني سافر عام 1891 بصحبة زوجته إلى القدس، وتوجها منها إلى الكرك عاصمة مؤاب في شرقي الأردن، حيث عَينا مشرفين على مدرسة للصبيان، وبقي الرجل هناك حتى عام 1897 حيث انتقل إلى القدس.

كان حلم فوردر أن يزور جزيرة العرب، وهذا ما حاول القيام به نهاية عام 1899 ولكن من دون جدوى، ثم أخيراً واتته الفرصة لتنفيذ حلمه في ختام عام 1900 فانطلق إلى الجوف بطريق جبل العرب، فوصل بعد رحلة شاقة إلى بلدة كاف ثم قرية إثرة، ومنها توجّه إلى الجوف التي كان يحكمها آنذاك أحد رجال أمير جبل شمّر. وعلى الرغم من أنّ مهمته التبشيرية مُنيت بالفشل الذريع، فإنه تبقى لها قيمتها كمهمة استكشافية، وكوثيقة تاريخية تضم رواية حية ممتعة، وصف بها أخبار رحلته وعلاقته الشخصية مع البدو وشيوخهم، والمغامرات الخطيرة التي تعرض لها.

السعر 00 درهم



